كتيبة الشمال

السبّاقون إلى الجنّة

تأليف الأسير المجاهد: حسام بدران

تقديم الأستاذ المجاهد: خالد مشعل

تدقيق ونشر: المكتب الإعلامي لكتائب الشهيد عز الدين القسام

٢٠١٠م

الإهداء...

إلى والديّ ...

اللذين علما فأحسنا الأداء

إلى ولديّ جمان وعماد الدين...

وقد حرمت من تربيتهما بفعل الأعداء

إلى حبي الأول والأكبر...

بلا جدال ولا مراء

إلى أرواح الشهداء ...

وإلى الأجيال من بعدهم ...

ليحسنوا الاقتداء

مقدمة الناشر

كلمات من نور يسطّرها مجاهد من قادة القسام الميامين الذين حملوا أرواحهم على أكفّهم ونذروا أنفسهم لخدمة دينهم ووطنهم وقضيتهم، فمنهم من قضى نحبه شهيداً فظفر، ومنهم من ابتُلي بالأسر فصبر، ومنهم من أصيب فاحتسب وانتظر، هكذا هي درب الجهاد والصمود والتحدي، صولات وجولات، كرّ وفر، مراغمة ومقاومة، إقدام واقتحام للمهالك التي لا يطيقها إلا أولو العزم من المؤمنين الصادقين.

ولقد عوّدنا مجاهدو القسام الذين تخرّجوا من مدرسة القرآن وكلّية الياسين وجامعة الشهداء أن يكونوا في صدارة القابضين على الجمر في زمن الخذلان والنسيان، فهم الذين تركوا الديار والأهل والأحباب وسكنوا مواطن الحرب وسلكوا طريق ذات الشوكة مستعينين بربّهم الذي وعدهم "لنهدينّهم سبلنا"، ورفعوا شعارهم الخالد: الله غايتنا والرسول قدوتنا والقرآن دستورنا والجهاد سبيلنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا؛ فكانت الثمرات الطيبات أن هانت عليهم الدنيا وأحبّوا لقاء الله وطلبوا الموت مظانّه، لا لشيء إلا ليصنعوا الحياة الكريمة ويغرسوا بذور العزة والنصر القادم بإذن الله.

إنّه البناء الشامخ الذي وضع أولى لبناته رسول الله المجاهد الشهيد، وتعاهده الصحابة والتابعون وسلف الأمة بالبناء والتشييد، حتى جاء زمن الفتن العظيمة فتنكب الطريقَ خلقٌ كثير وتناقصت الخيرية وتقاصرت الهمم، فسخّر علاّم الغيوب لهذه الأمّة رجالاً اختارهم لإحياء سنة الجهاد ضد أعدائه اليهود الغاصبين، فكانت لبنة حماس والقسام من اللبنات المتينة التي أسسّت لعهد جديد في تاريخ هذه الأمة وخاصة في بيت المقدس وأكنافه في بلادنا فلسطين.

وكانت "كتيبة الشمال" ثمرة طيبة من ثمرات هذا الغرس الأصيل، يروي لنا الأسير المجاهد حسام بدران هنا بعضاً من الدروس والعبر والذكريات والسير التي استجمعها من تجربته الخصبة ومن خبرات إخوانه العمليّة.

"كتيبة الشمال".. يفوح من بين ثنايا الحديث عنها شذا دماء الشهداء العطرة، وتتنسّم من بين فصول ذاكرتها نسائم الجهاد المقدّس الذي أحياه أبطال هذه الكتيبة كغيرهم من مجاهدينا في كتائب القسام على امتداد الوطن السليب الجريح، فأحيوا به الأمّة جمعاء، فتعود هذه الذاكرة الجهادية بذاكرتنا إلى ملاحم البطولة والفداء ومواطن التضحية والعطاء التي شهدها شعبنا وأمتنا والعالم كلّه بفضل الله ثم بجهاد ودماء وجهد وعرق فرسان هذه الكتيبة الشمّاء.

يسطّر أسيرنا المجاهد هذه الكلمات الغالية ناصحاً أميناً، ومرشداً لإخوانه المجاهدين ومعبّراً عن حبّه وتعلّقه بالجهاد والشهادة والشهداء، ويحكي من خلف قضبان الظلم قصص بعض شهداء هذه الكتيبة، فيكون لها طعم خاص مركّب مجبول من المعاناة والألم مع العزة والقوة والشموخ، ونضعها نحن في المكتب الإعلامي لكتائب القسام بين أيديكم سائلين المولى عزّ وجل أن ينفع بها كل مسلمٍ غيور على الجهاد ومحبٍ لأرض فلسطين الطاهرة، ولله الحمد في الأولى والآخرة، وصلي اللهم على نبينا محمد

المكتب الإعلامي لكتائب الشهيد عز الدين القسام- فلسطين

ربيع الآخر ١٤٣١هـ - ابريل ٢٠١٠م

تقديم

بقلم أ. خالد مشعل – رئيس المكتب السياسي لحركة حماس

هذا كتاب فريد.. سطره مجاهد أسير، شق ظلمات معتقله بسنا كلماته المؤمنة، العبقة بأريج الشهادة ومسك الشهداء الذين رافقهم في طريق الجهاد العظيم على أرضنا المباركة..

إنه العطاء الذي لا ينقطع رغم القيود والسلاسل والمحن والزلازل .. فمن ذاق عرف، وأولئك رجال ذاقوا طعم العزة والفخار بجهادهم وصبرهم وتضحياتهم، وذاقوا طعم الإيمان المصدّق بالجهاد والصبر والعمل، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فلم يزدهم الاعتقال إلا ثباتاً ورسوخاً على درب الجهاد والمقاومة، ولم تزدهم غيابات السجن إلا عزماً وتصميماً وتمسكاً بذات النهج الذي سار عليه رفاقهم الذين قضوا نحبهم مقبلين غير مدبرين. لم تزدهم معاناتهم في سجون الاحتلال إلا وفاءً لإخوانهم وقادتهم الذين تسابقوا معهم طويلاً ليحظوا بجنة عرضها السماوات والأرض، ذلك الوفاء تلمسه وتشعر به يشع من بين سطور هذا الكتاب، الذي يشعرك بما يكنّه الكاتب لمن أرّخ لهم من محبة وغبطة واستبشار يشي بها عنوانه "السبّاقون إلى الجنة".

بديع هذا الكتاب الذي يأتينا من خلف الأسوار والقضبان .. فهو ملحمة ممتعة وشيّقة، وما سطّره الأخ المؤلف الحبيب مصدر فخر واعتزاز رغم ما يبعثه ويصاحب قراءته من حزن وألم على عذابات شعبنا وفراق أحبابنا. ولأن الكتاب يأتي من خلف القضبان، ولأن مؤلفه الكريم يكتب من موقع الجهاد والعطاء والتجربة الصادقة والاختبار القاسي، فإن أهمية هذا الكتاب تزداد وتعظم مكانة وقيمة.

كم جميل هذا التناول لبدايات العمل والنحت في الصخر بناءً وإبداعاً، والبحث عن السلاح والخبرة والأفكار الرائدة، وكل ما يساعد على البناء والتطوير، ليتغلب في نهاية المطاف الإيمان والإصرار والعزيمة على كل المعوقات .. وتنطلق الانتفاضة ومعها المقاومة بكل عنفوانها، تصحبها رعاية الله تعالى، ويلتف حولها شعب عظيم وفّر لها الحضن الدافئ، وأمة عظيمة أمدّتها بالدرهم المقاتل مع الدعاء والتأييد الجماهيري الواسع.

ويصور لنا المؤلف الكريم المشهد في الطرفين: قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار .. خسائرنا وخسائر أعدائنا.. كيف أبدع مجاهدونا في مقاومة المحتلين عبر العمليات الاستشهادية، والكمائن واقتحام المستوطنات، وصولاً إلى صواريخ القسام، وكيف وصل العدو إلى قادتنا وأبطالنا عبر الاغتيالات وقصف الطائرات .. الخ. فالجميع يتألم، ولكن شتان بين ألم المجاهد وألم المحتل الغاصب المعتدي.

((إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من اللّه مالا يرجون وكان اللّه عليما حكيماً)).

ومع جمال وعمق ما تناوله المؤلف من عناوين متعددة في هذا الكتاب، حيث لم ينس تجربة المطارد وإبداعه في التمويه وخداع العدو، ولا دور المرأة الفلسطينية العظيمة في ميدان المقاومة، ولا الحديث عن إعلام المقاومة، ولا الحديث عن موضوع الأسرى أهل المراغمة كما وصفهم، وحقهم على شعبهم وأمتهم جميعاً، فضلاً عن الفصل الذي خصصه للمراجعات وتسجيل الملاحظات واستلهام العبر والدروس وتثبيت جملة من القناعات المستخلصة والتي تعززها التجربة.. لكن يبقى الفصل الخامس هو الأكثر تأثيراً، على الأقل في نفسي، وأنا أقرأ كلماته المعبّرة التي يصحبنا فيها مؤلف الكتاب جزاه اللّه خيراً، مع "السبّاقين إلى الجنة" من قادة شعبنا ورجالاته وعظمائه، مع هذه الثلة المؤمنة والقافلة البديعة، يصف لنا أخلاقهم وشمائلهم، وقدراتهم وإبداعاتهم، وقلوبهم وعقولهم، وتفاصيل دقيقة من حياتهم اليومية بكل ما حفلت به من إيمان وحب وإنسانية طافحة، وصبر واحتساب، وإصرار وبناء وعطاء، مع تعلق عظيم باللّه تعالى، وخلق رفيع يملأ المكان ويفيض على الآخرين، وزهد في الدنيا وإعراض عن زخارفها، فالرغبة والحنين إلى لقاء اللّه تعالى ونبيه الكريم ولقاء الأحبة في جنان الخلد هو ما كان يشغلهم ويطغى على تفكيرهم ومشاعرهم .. إلى أن فازوا بالشهادة وسبقوا إلى الجنة بإذن اللّه.

رحم اللّه أولئك الشهداء الكرام، وكل شهداء شعبنا وأمتنا، وجزاهم عنّا خير الجزاء، وألحقنا بهم في مستقر رحمته، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وإذا كانت قمة الوفاء للشهداء السير على نهجهم وسلوك دربهم، فإن أول ما يعين على ذلك هو نشر سيرتهم العطرة، وتخليد أعمالهم وإنجازاتهم، وتقديمهم للأجيال القادمة ليبقوا مصدر إشعاع وإلهام لعشاق القدس والأقصى والأكناف المباركة من كافة أصقاع المعمورة، ليشدوا الرحال ويلبوا النداء ويشكلوا بدعمهم رافعة لمشروع الجهاد والمقاومة على أرض فلسطين المباركة، ليزول الاحتلال البغيض الذي دنس الأرض واستباح المقدسات وقتل واعتقل ودمر وشرّد واستبد وعاث في الأرض فساداُ وإفساداً ..

لم تكن كتيبة الشمال إلا حلقة من حلقات الجهاد والمقاومة المتميزة عبر تاريخ شعبنا المقدام الذي توارث البطولة والفداء جيلاً بعد جيل، والذي لم يبخل أبداً عن تقديم صفوة رجاله وخيرة أبنائه وكبار قياداته قرابين في ملحمة بطولية ما زالت تدور رحاها على أرض مباركة احتضنت الأنبياء وتخضبت بدم الشهداء وتعطرت سماؤها برحلة الإسراء..

ومع سعادتنا الغامرة وإعجابنا الكبير بهذا الكتاب الصادق والمتميز. والذي يعد إسهاما هاماً وإضافة مميزة للمكتبة العربية والإسلامية، إلا أن الحاجة ماسة للمزيد المزيد من الكتابات التي تؤرخ وتوثق لسير أولئك العظماء، الذين سطعوا نجوماً في سماء أمتنا في حقبة حالكة السواد. فجزى اللّه الأخ الحبيب مؤلف الكتاب، الأخ الأسير القائد حسام بدران، خير الجزاء على ما قدمه من كلمات صاغها بدمه وعرقه ومعاناته وإشراقة إيمانه. وفك اللّه أسره هو وبقية إخوانه الأسود الرابضين خلف قضبان السجون.

وبعد... فلا شك لدينا، بل هو الإيمان الراسخ المطمئن، أن دماء الشهداء الأبرار، وعذابات الأسرى الأحرار، وإبداعات المجاهدين الأبطال، ومعاناة كل جريح ومعوق، وكل مبعد ومشرد، لن تضيع سدىً، بل ستثمر عمّا قريب نصراً مؤزراً بإذن الله. فاللّه لا يضيع إيمان عباده، ولا يضيع أجر مَـنْ أحسن عملاً .. وهو سبحانه الناصر والمعين، والهادي إلى سواء السبيل.. نعم المولى ونعم النصير، والحمد للّه رب العالمين.

خالد مشعل

دمشق ٢١ رمضان ١٤٢٩هـ

٢٠٠٨/٩/٢١م

مقدمة المؤلّف

في أحاديث السجن مع الأصحاب، أو عبر خواطر النفس بعد اغتراب، كانت تتردد حكايات الشهداء وتتكرر بلا ملل، وتمر الصور وترجع الأحداث كأني أراها في ساعتها؛ فيزداد القلب خفقانا، وتترقرق الدموع في المآقي شوقا وأحزاناً، وتخرج الذكريات من عمق الأحداث فترتسم كطيف مشرق متعدد الألوان..

فهذا الشيخ الشهيد في موقف عز يخطب بالناس، وهو هناك عندما التقيته في الاعتقال السابق، وذاك موقف صبر وثبات عرفته له عندما كان مبعدا في مرج الزهور.

وها هو يتابع العمل السياسي ويتواصل مع إخوانه، ثم هو في الزمن البعيد يجمع بعض الشباب في أسرة تربوية إخوانية في منزله يحدثهم عن المقاومة والتحرير فيما يشبه الأحلام في تلك المرحلة.

وهذا المجاهد الشهيد وقد نجا من محاولة اغتياله الأولى فخرج مبتسماً ساخراً من عدوه، وهو قبل ذلك يعاني ظلم ذوي القربى مع إخوانه في سجن جنيد وقبله في سجن أريحا.

وذلك الطالب الشهيد المتفوق دراسياً النشيط دعوياً، وهو يرتب الصفوف ويقود الانتخابات الطلابية فتكون الغلبة لدعوته وفكرته.

وهذا الإستشهادي الفدائي لم يتجاوز سن العشرين، كان قد قال كذا .. وفعل كذا..

قصص وروايات في كل يوم .. وكأن أرواح الشهداء تحلق فوقنا.. أو تزورنا بين الحين والآخر.. عندها .. ومن منطلق الوفاء لشهداء عرفتهم وأحببتهم.. وتشرفت بالعمل معهم.. رأيت أن أكتب بعض انطباعاتي الشخصية عنهم في سطور قليلة ، حرصت من خلالها أن أظهر جوانب القدوة في حياتهم..

فلم تكن الفكرة كتابة سيرهم.. وما هي بتراجم رجال، وإنما بعض ما فعلته صحبتهم في نفسي، وهي كتابة مصبوغة بالحب ابتداء وانتهاء.

واخترت لهذه الصفحات عنوان "السبّاقون إلى الجنّة" ..

ذكرت فيها عدداً محدوداً من الشهداء، وهي نماذج تمثل معظم الشرائح التي عملت في هذا الميدان، وهي محصورة زمنياً بالعمل الجهادي الذي كان في السنوات الأولى لانتفاضة الأقصى، وتحديدا في السنوات الثلاث الأولى.

كما أنها محدودة تنظيمياً بمنطقة شمال الضفة ومركزها نابلس مضافاً إليها بعض المجاهدين من مناطق أبعد؛ والذين كانت لهم روابط عملية بهذه المنطقة.

ثم رأيت بتشجيع من بعض إخواني أن أضيف إلى أحاديث الشهداء خلاصة التجربة بما لها وما عليها.

فكتبت عن البدايات، والآليات، وجوانب العمل المختلفة، وبعض المعوقات، وكذلك تطرقت إلى أهم الإنجازات، ثم التضحيات، وبينت ذلك مع بعض التحليل والتوضيح ثم جاءت عدة توصيات .

وأطلقت على الدراسة كلها اسم (كتيبة الشمال) نسبة إلى المنطقة الجغرافية المعروفة بشمال الضفة الغربية وفق الهيكلية التنظيمية المعروفة لدى حماس .

عقبات..

الكتابة داخل السجن صعبة ومعقدة، فعوامل التأثير في نفسك متعددة، ومعظمها غير مرتبط بك، فعيون السجان تلاحقك ليل نهار، وأنت في كل ساعة عرضة للنقل إلى سجن آخر أو التفتيش في غرفتك وبين أغراضك وما يتبع ذلك من مصادرة للأوراق والكتابات.

ثم إن تمكنت من انجاز ما عزمت عليه فسوف تقابلك عقبة أكبر في كيفية إخراج الكتابة خارج أسوار السجن وهي مهمة عسيرة دونها فرط القتاد.

كما أنه لا مصادر ولا مراجع يُعتمد عليها، ولا أرشيف صحفي أو مركز معلومات، فكانت كل الكتابة من الذاكرة، ومن الذاكرة فقط.

اعتذار..

لقد كان جهاد "كتيبة الشمال" أكبر من أن تضمّه الأوراق وأثرهم أعظم من أن تشرحه الكلمات، ولكن حسبي أن تكون كتابتي ملامح وإشارات، ولعل غيري يفصل ويسهب إذا توفرت له الإمكانات..

وأما أبطال هذه الكتيبة فهم كثر.. شهداء وأسرى وغيرهم، ومثلي لا يملك إلا أن يتقدم لهم باعتذار؛ إذ التقصير شأن البشر، والنقص طبيعة الناس حتى لو توفرت لهم كل الأعذار.

جهادنا فخار ومقاومتنا انتصار..

قال تعالى: "انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون" التوبة ٤١

هو نداء الله عز وجل لعباده المؤمنين يدلهم على خير العمل ويستنفرهم لنصرة الدين وحماية الوطن وهو خطاب عام لا يستثني أحدا يقدر على القتال.

ولما كان الاحتلال في بلادنا فتنة للأمة كان الأمر من الله تعالى "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين" البقرة ١٩٣

وعندما تجبّر المحتل فدمر وقتل، جعل الله من سنة الحياة ألا يرد العدوان إلا بالجهاد؛ فكان النصر نتيجة ما عمله المقاومون بأيديهم، "قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين" التوبة١٤.

ولا عذر لنا إن قصرنا في الأخذ بالأسباب، ولا يحق لنا أن نعتمد على إيماننا والتزامنا فقط ونغفل عن عوامل النصر العملية الأخرى التي أُمرنا بها .. "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم" الأنفال ٦٠ ..

أنا لا ألوم المستبد إذا تجبّر واعتدى ** فسبيله أن يستبد وشأننا أن نستعد

والمقاومة في فلسطين كغيرها تحتاج إلى عمل جماعي منظم كي تحقق أهدافها "إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص" الصف ٤، ولا سبيل لمؤمن صادق أن يخشى الناس أو يتردد أو ينشد التأخير والتسويف إذا حانت مرحلة الجهاد والمقاومة، والأخيار ممن قصدهم الله تعالى بقوله "فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إذا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أو أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ" النساء ٧٧.

إن الجهاد لا يعادله شيء، ولن يعرف قيمته إلا من جرب، ولن يستشعر بركته إلا من قاتل فتدرب أو درب.

وإن الانتماء لحماس خير كله، ولكل عامل فيها فضل، ولكل فرع فيها من الخير نصيب.

وإن الله أكرمني فشاركت في لجان حماس كلها، وعلى مستويات مختلفة؛ من العمل التربوي والثقافي إلى التنظيمي والإداري، وفي قطاع الطلاب والجامعات، والميدان الإعلامي، ونشاط المؤسسات والجمعيات، ثم التحرك الجماهيري العلني والإطار السري الداخلي، وفي مجال السياسة، وفي الآليات الشعبية لمقارعة الاحتلال، ثم العمل الاجتماعي والخيري والإغاثي واستمر ذلك كله سنوات طويلة.

غير أن المشاركة في العمل الجهادي المباشر لها مذاق خاص وطعم مميز، تحس بالبركة من حولك وتزيد من إيمانك، وتفتح أمامك أبواب الفهم والوعي وتهذب خلقك وتقربك من ربك.

فالجهاد خير كله، رغم ما يصيبك من تلف وضرر، ومن ذاق عرف.

كما أن الله تعالى جعل الجهاد عامل ترجيح في الموازنة بين المؤمنين فقال: "لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً" النساء ٩٥. وكذلك ينبغي أن يكون العرف والنهج لدى حماس بحيث تكون المقاومة والجهاد أحد المقاييس الرئيسية والمعايير الأساسية في تقييم العناصر، ومن أهم العوامل التي تحدد آليات الارتقاء التنظيمي والتسلسل القيادي داخل الحركة، على أن ينضم إلى ذلك مقاييس وعوامل أخرى لا تخفى على أحد.

وليس أدل على مكانة الجهاد في الإسلام ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه حيث قال: ((جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : دلني على عمل يعدل الجهاد في سبيل الله . قال لا تستطيعونه . قال : فأعادوا عليه مرتين وثلاثا كل ذلك يقول لا تستطيعونه. وقال في الثالثة: ((مثل الجهاد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى)) رواه مسلم . فانظر رعاك الله واعتبر.

فإذا لم تحدث نفسك بالجهاد.. فراجع إيمانك ((من لم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق)) رواه مسلم .. فإذا عزمت واستحضرت النية فاعلم "إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض" رواه مسلم.

الأسير / حسام بدران
١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨م

الفصل الأول

بداية العمل...

النار تحت الرماد

بداية العمل... نارٌ تحت الرّماد

بقي الأقصى حياً في قلوب محبيه، وأثبتت الأيام أنّ تعرضه لأي خطر يشعل النار في المنطقة كلها، وحين تجرأ شارون على تدنيس ساحات الحرم بتاريخ ٢٠٠٠/٩/٢٧ لم يدر في خلده أن هذه الخطوة ستكون الشرارة التي تفجر بركان الغضب المحتدم في قلوب الفلسطينيين، وأن وجه المنطقة سيتغير بعد ستة أعوام!!

وجاءت خطوته الحاقدة محاطة بالحراسات لتكون فاتحة لمرحلة جديدة من الصراع ضد المحتل.

وكانت حماس من أوائل القوى التي دعت إلى مواجهة هذا الإجراء، من خلال دعوة الجماهير للتوجه إلى الأقصى والتظاهر فيه ومحاولة عرقلة هذا الاقتحام لواحد من أكثر الأماكن قدسية لدى كل مسلم.

وفي اليوم الموعود دارت مواجهات وصدامات عنيفة استخدم فيها الفلسطينيون أجسادهم وأرواحهم وما طالته أيديهم من حجارة القدس مقابل آلة الدمار والخراب الصهيونية، وسقط الشهداء والجرحى وسالت دماء زكية معلنة ابتداء جولة هامة في تاريخ الصراع مع الاحتلال.

امتدّت المواجهات في طول البلاد وعرضها وانتشرت كالنار في الهشيم، وتركزت معظم الصدامات وأعنفها في المدن وفي المناطق التي كانت تخضع للسلطة الفلسطينية منذ عام (١٩٩٤)، وكان الطابع العام لهذه الأحداث مبني على فكرة الاحتجاجات السلمية، حيث يخرج آلاف الفلسطينيين في مسيرات تنطلق من مراكز المدن وتتجه نحو الحواجز (الإسرائيلية) المقامة على أطرافها.

وفي حين يستخدم الشبان والأطفال الحجارة كان جنود الاحتلال يردّون بالرصاص الحي وبنية مسبقة للقتل ودون أن تتعرض حياتهم لأي خطر حقيقي، وفي كل يوم كان يسقط العشرات بين شهيد وجريح في كافة المناطق ثم يكون تشييع الجنائز سبباً لمواجهات جديدة توقع ضحايا جدد.

ويتكرر المشهد وتبث الصور المأساوية عبر وسائل الإعلام وتتصاعد مشاعر الحزن والغضب في نفوس الناس، وصارت الجماهير بفطرتها تنادي بالرد وتطالب حركات المقاومة بالقيام بواجبها في حماية الشعب وصد العدوان، وتؤكد على ضرورة إيجاد معادلة جديدة أساسها توازن الرعب إذا لم يتحقق توازن القوة، وكان النداء موجهاً لكتائب القسام على وجه الخصوص نتيجة لثقة الناس بهؤلاء المجاهدين.

لكن المقاومة كانت في محنة حقيقية في الأيام الأولى بسبب ظروف ذاتية وموضوعية – سآتي على ذكرها لاحقاً – أهمها: أن أجهزة الأمن الفلسطينية زجّت بمجاهدي القسام في غياهب السجون.

انتفاضة أم "مسرحية" ؟!!

ثارت كثير من الشكوك في نفوس بعض الفلسطينيين حول ماهية هذه الأحداث، وما إذا كان أحد يحركها لدوافع خفية، وانتقل هذا الجدال إلى صفوف حماس، وطرحت المسألة للنقاش في كثير من مراكز صنع القرار فيها، واختلفت وجهات النظر وتباينت التحليلات وانقسم المعنيون إلى فريقين.

فريق يرى أصحابه أن كل هذه التطورات مخطط لها مسبقاً، وأن دعاة التسوية من الجانبين الفلسطيني و(الإسرائيلي) قد رسموا هذا السيناريو كوسيلة لتخفيف الضغط الداخلي لدى الشعب الفلسطيني وللتنفيس عن مشاعر الإحباط والغضب التي استحكمت في نفوس الناس نتيجة لمظاهر الفشل التي جاءت بها عملية التسوية وما تضمنته من إخفاقات سياسية واقتصادية، وما رافق أداء السلطة من فساد ومظالم شملت جميع مناحي الحياة الفلسطينية.

وقد وجد هذا الفريق أن مفاوضات "كامب ديفيد" الأخيرة بين عرفات وباراك قد أسدلت الستار على إمكانية إقامة دولة فلسطينية من خلال الحوار السياسي وحده، وأن السلطة الفلسطينية تحتاج في هذه المرحلة إلى أوراق ضاغطة تعمل على تحسين الأداء التفاوضي لها لاحقاً، وأن الطرف الإسرائيلي ليس عنده ما يعطيه طواعية؛ وبناءً على هذا التحليل فإن الأحداث لا تعدو أن تكون مسرحية أعدّت وجهزت ووزعت فيها الأدوار ابتداءً في عملية معروفة النتائج ومحدودة التطلعات.

بل إن البعض قد بالغ في السير بهذا الاتجاه إلى درجة القول أن القصة كلها مرتبة بين الجانبين الفلسطيني و(الإسرائيلي) بغية الكشف عن العناصر الحيّة في صفوف الشعب الفلسطيني وداخل جميع الأطر السياسية، والتي يمكن أن تثور وأن تتصدى لرفض الاحتلال والإقرار بالحقوق الفلسطينية، وأنه لا بد من استدراج هؤلاء، وتكون النتيجة القضاء على هذه الفئة بالقتل والاعتقال والملاحقة.

وبناء على هذه الرؤية، فقد تبنى هذا الفريق موقف الحذر وعدم الاندفاع بقوة إلى حين تتضح الصورة بشكل كامل، وإن كان ولا بد من المشاركة فلتكن بطريقة مخفية ودون العمل بالاسم المباشر للحركة حتى لا تتعرض لمزيد من الضربات والتضييقات.

وفي المقابل فإن الفريق الآخر رأى أن هذه الأحداث هي انتفاضة شعبية حقيقية وأن الجماهير قد تحركت من تلقاء نفسها ودون إيعاز من أحد، وأن المنطلقات الأساسية لهذا الانفجار هو إحباط الناس من جدوى عملية التسوية ، إضافة إلى الكثير من مشاعر الكبت التي تراكمت في النفوس بسبب أداء السلطة على المستوى الداخلي، حتى أن كثيراً من المحللين كانوا يتوقعون حدوث انتفاضة ضد السلطة نفسها لولا أن الجماهير قد انفجرت في وجه الاحتلال فحققت الهدفين!. ولم تكن حادثة اقتحام شارون للأقصى إلا القشة التي قصمت ظهر البعير، والفرصة التي كانت تنتظرها الجماهير، كما رأى أصحاب هذا الرأي أن هذه التطورات يمكن أن تشكل مدخلاً لإعادة بناء الجدار النفسي بيننا وبين الاحتلال، بعد أن حاول مروجو التسوية إزالة كل الحواجز ومشاعر العداء خلال سنوات أوسلو، ورأوا في هذه الانتفاضة بداية لإعادة الاعتبار لمشروع المقاومة على حساب مشروع المفاوضات العبثية، كما احتجّ هذا الفريق لموقفه بأنه إذا اعتبرنا هذه الانتفاضة هي مجرد مسرحية على أسوء الاحتمالات فإنه بالإمكان استغلالها لتجاوز النصوص التي يضعها المخرج وإدخال عناصر قوة جديدة تفسد كل المخططات وتحقق نتائج تخدم الموقف السياسي للحركة.

وتبنى هذا الفريق ضرورة الدخول في الانتفاضة بكل قوة وبشكل واضح تحت لافتة حماس، وأن يتم ذلك بأسرع وقت وأن تكون المشاركة في كافة المجالات الجماهيرية والإعلامية والعسكرية.

ومن الجدير بالذكر أن الحركة قد دخلت في فعاليات الانتفاضة منذ اليوم الأول، وساهمت في قيادة الجماهير والتحركات الشعبية بقوة وفاعلية وبحضور مميز (فأول الشهداء كان من حركة حماس وهو الشهيد البطل زكريا الكيلاني).

بمعنى أن النقاش كان دائراً حول مستقبل الانتفاضة ومراحلها القادمة، ومع البدايات الأولى حسم هذا الجدل بنسبة كبيرة جداً لصالح الفريق الثاني، والذي يرى أن هذه الأحداث هي انتفاضة حقيقية وأنه لا يوجد أبعاد سلبية لها من قبل جهات أخرى، وإن حاول البعض تجيير الأمور لصالحه، وهكذا دخلت الحركة بكل قطاعاتها وأماكن تواجدها في قيادة الانتفاضة وبقرار رسمي مبني على دراسة بعد أن كانت المشاركة عفوية تلقائية قبل ذلك.

وقد سمعنا الشيخ جمال منصور يتحدث في تأبين الشهيد البطل عماد الزبيدي أن هذه الانتفاضة انتفاضة تحرير وليست تحريك، وأنها لن تتوقف قبل أن تحقق بعض الأهداف المهمة.

العمل الجماهيري في انتفاضة الأقصى

كانت السنوات التي سبقت الانتفاضة قد شهدت تراجعاً واضحاً في حجم النشاطات الجماهيرية التي تنظمها حماس في مختلف المناطق؛ وذلك بسبب تواصل هجمة الاحتلال عليها في المناطق التي ما تزال محتلة، وملاحقة قادتها وعناصرها وزجهم في السجون، كما عملت السلطة في مناطق نفوذها بكافة الوسائل على تضييق الخناق على الحركة ومحاولة منعها من التواصل مع الناس، وتضمن ذلك الاعتقال السياسي للمئات من كوادر الحركة واحتجازهم في سجون السلطة لعدة سنوات، وفي هذه المرحلة قامت الأجهزة الأمنية الفلسطينية بعمليات تحقيق واستجواب شملت الآلاف من أبناء الحركة، وذلك بتهمة ممارسة فعاليات سياسية وتحركات جماهيرية وممارسات تنظيمية، كما حرمت السلطة أبناء حماس من العمل في المؤسسات والوزارات المختلفة، وفي أحيان كثيرة قامت السلطة بمنع حماس من إقامة المسيرات والمهرجانات والاحتفالات في المناسبات المختلفة، ولم تكن تعطي التصاريح بذلك في حال تقدمت الحركة بالطلب مسبقاً، وعلى سبيل المثال كانت حماس في مدينة نابلس - وهي إحدى أكبر المدن الفلسطينية- قد دعت إلى مسيرة جماهيرية سلمية تضامناً مع الأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال بحيث تنطلق بعد صلاة الجمعة من مسجد النصر في البلدة القديمة، فما كان من السلطة إلا أن نشرت المئات من عناصرها حول المكان وحالت بالقوة دون انطلاق المسيرة!! واكتفت الحركة بمهرجان داخل المسجد تجنبا للفتنة! وفي سياق آخر اقتحمت السلطة ساحات المدرسة الإسلامية في المدينة نفسها وذلك في ساعات الليل حيث صادرت محتويات معرض أقامته الحركة الطلابية الإسلامية وفاءً للأسرى أيضاً، واعتقلت القائمين عليه! وفي مرحلة سابقة كانت قد اقتحمت حرم جامعة النجاح الوطنية في نابلس بالقوة ومنعت العديد من نشاطات الحركة داخله في سابقة لم تحدث من قبل، وقد تكررت هذه السياسة في بقية المدن والقرى الفلسطينية وكان من نتيجتها تخوف بعض الناس وترددهم من المشاركة في مثل هذه النشاطات.

لكن مع بداية الانتفاضة عام ٢٠٠٠ قامت حماس على الفور بتشكيل العديد من اللجان لمتابعة الأحداث، وأظهرت قدرة فائقة على التنظيم والدقة والحشد الجماهيري فاق كل التوقعات، وبدا ذلك واضحاً في المواجهات والمسيرات الشعبية والمهرجانات الخطابية سواءً تلك التي نظمتها حماس وحدها أو التي اشتركت فيها مع بقية القوى والفصائل.

وصار الطابع العام لهذه الأحداث مميزاً باللون الأخضر - الشعارات الإسلامية - مما دفع بعض الفصائل أن تطلب أكثر من مرة في اجتماعات القوى الوطنية والإسلامية منع رفع "الرايات الفصائلية" للتخفيف من أثر حماس وقوة حضورها في الشارع، الأمر الذي رفضته الحركة معتبرة أن الأمر متروك لكل فصيل كي يجتهد في تجميع عناصره وتحريك أنصاره في الشارع، وبهذا تكون حماس وخلال فترة قصيرة قد حسمت هذا الجانب في انتفاضة الأقصى.

واقع العمل العسكري للحركة في ظل السلطة الفلسطينية حتى عام ٢٠٠٠:

ركّزت اتفاقية أوسلو عام ١٩٩٣م على الجوانب الأمنية والتي أراد الاحتلال من خلالها محاربة المقاومة الفلسطينية فكراً ومنهجاً وممارسة؛ ولهذا جاءت النصوص تفصيلية وشاملة في هذا المجال، وحرصت دولة الاحتلال على اتخاذ كافة الخطوات اللازمة من أجل تحقيق هذا الهدف، وكانت حماس على سلم الأولويات كونها تمثل العمود الفقري للمقاومة الفلسطينية ورأس الحربة في المعارضة الرافضة لاتفاقيات التسوية السلمية، فعمد الاحتلال إلى مواصلة سياسة التصفيات الجسدية التي طالت عدداً من كبار قادة القسام ومن أبرزهم القائد المهندس يحيى عياش الذي تم اغتياله جواً عام ١٩٩٦ في قطاع غزة الخاضع لسيطرة السلطة الفلسطينية، كما توسعت حملات الاعتقال والملاحقة ضد نشطاء حماس على وجه الخصوص.

وفي المقابل أوعزت السلطة الفلسطينية إلى أجهزتها الأمنية ببذل كل الجهود لمنع حدوث عمليات للمقاومة ضد الاحتلال !!. وعملت على تفكيك الخلايا والمجموعات العسكرية من خلال عمليات المراقبة والاعتقال والتحقيق الشديد والعنيف، وأمضى بعض المجاهدين سنوات داخل سجون السلطة بتهمة الاشتراك في مقاومة الاحتلال أو حتى التخطيط لتنفيذ عمليات عسكرية !! بل إن عدداً من أبناء القسام تمت محاكمتهم من قبل محاكم أمن الدولة التي فرضت عليهم أحكام عالية وصلت إلى السجن المؤبد في بعض الأحيان، ويكفي أن نذكر منهم القائد الشهيد محمود أبو هنود الذي أوقعت عليه محكمة عسكرية فلسطينية عام ٢٠٠٠ حكماً بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً، وذلك فور نجاته من محاولة اغتيال (إسرائيلية) أصيب فيها بجراح بعد أن تمكن من قتل وإصابة عدد من الجنود المحتلين، ووضع في سجن انفرادي بنابلس دون أن يسمح له بالاختلاط مع بقية المعتقلين السياسيين لدى السلطة، كذلك حكم على اثنين من قادة القسام -هما نسيم أبو الروس وجاسر سمارو- بالسجن خمسة عشر عاماً وكانا يقضيان المدة في سجن أريحا ذي الظروف المعيشية والمناخية الصعبة وبعيداً عن أماكن سكناهم في مدينة نابلس!!.

وتشهد سجون الجنيد ونابلس وأريحا وبيتونيا والظاهرية وبيت لحم وغيرها على هذه المرحلة الصعبة التي واجهت العاملين في الجناح العسكري لحماس . وما رافق ذلك من آثار نفسية حين يأتي الظلم من أبناء جلدتك، وحين تكون التهمة تتعلق بخير الأعمال وأشرفها وهي الجهاد في سبيل الله.

ثم تصاعد الضغط على المقاومة من خلال عمل مشترك بين الاحتلال والسلطة فيما كان يعرف بالتنسيق الأمني والذي كان يتم على أعلى المستويات وتشارك فيه أحياناً المخابرات الأمريكية حيث يتم تبادل المعلومات وتناقل الأخبار والتقارير ونتائج التحقيق مع المعتقلين لدى الجانبين، وبلغ هذا

التنسيق أوجه بتسليم بعض المجاهدين المحتجزين في سجون السلطة لقوات الاحتلال، ومن أشهر هذه الحالات ما حصل مع خلية بلدة "صوريف" قضاء الخليل، حيث كانت قوات الاحتلال تنتظرهم أثناء نقلهم في سيارة السلطة من مدينة إلى أخرى في عملية مخطط لها ومنسقة مسبقاً، وانضم بقية أعضاء المجموعة إلى من سبقهم في سجون الاحتلال وحكم عليهم بالسجن المؤبد.

وكان المجاهدون الملاحقون والمطاردون من قبل الاحتلال يحتاجون إلى الاختفاء أيضاً من أمام الأجهزة الأمنية الفلسطينية مما جعل أوضاعهم أكثر صعوبة، وصارت تحركاتهم معقدة مما جعلهم يبذلون جهوداً كبيرة من أجل المحافظة على أنفسهم على حساب تركيزهم على أعمال المقاومة أو ترتيب الصفوف وزيادة القدرات القتالية.

هذه الظروف مجتمعة ساهمت في إضعاف توجه جيل الشباب نحو العمل الجهادي المباشر، كما لم يشكل المحيط الشعبي حضنا دافئا للمقاومين.

وكانت حماس تركز على وضعها الداخلي التنظيمي وتحاول الوقوف أمام التحديات الكبيرة التي وقفت في وجهها خاصة بعد انعقاد مؤتمر شرم الشيخ في مصر حيث تحالفت القوى الرئيسة على المستوى الدولي والإقليمي والمحلي لمحاربة حماس ووضع الخطط لإقصائها من المشهد الفلسطيني، وجاء هذا المؤتمر إثر عمليات الثأر التي نفذتها حماس رداً على اغتيال الشهيد المهندس يحيي عياش عام ١٩٩٦ م وأسفرت عن خسائر فادحة لدى المحتلين.

ولاحقاً اعتقلت قوات الاحتلال المئات من أبناء حماس فيما شنت السلطة الفلسطينية حملة متزامنة شملت ما يزيد عن ألف وخمسمائة (١٥٠٠) من قيادات الحركة وعناصرها.

إذن جاءت انتفاضة الأقصى في العام ٢٠٠٠ م في وقت كانت كتائب الشهيد عز الدين القسام الجناح العسكري لحركة حماس تعيش واقعاً غاية في الصعوبة، ويمكن القول أنه في هذه المرحلة لم تكن لدى الكتائب بنية تنظيمية قائمة، ولم يكن هناك تواصل وتعاون جدّي بين مختلف المناطق، وكانت العلاقات مع القيادة خارج فلسطين غير موجودة من الناحية العملية إلا من خلال قنوات هامشية غير فعّالة ومرتبطة ببعض الأخوة هنا أو هناك.

ولم تتوفر إمكانات مادية متفق عليها، ولم يكن بين أيدي المجاهدين أسلحة تستحق الذكر، وكان العدد الأكبر من رجال الكتائب المعروفين موزعين بين سجون الاحتلال وسجون السلطة، أو ملاحقين لا يمكنهم القيام بعمل منظم شامل على مستوى الأحداث مع بداية الانتفاضة.

ومن المهم الإشارة إلى أن القرار العام للحركة في مرحلة ما قبل الانتفاضة كان يدعم ترشيد العمل العسكري، وهو مصطلح عام يحتمل العديد من التفسيرات والتأويلات، وجاء هذا القرار بعد

نقاش وبحث معمق فرضته الظروف والمتغيرات الجديدة التي وصل إليها الصراع الفلسطيني (الإسرائيلي) عقب وجود السلطة الفلسطينية عام ١٩٩٤م وسيطرتها على بعض المناطق في الضفة الغربية وغزة.

قرار استئناف العمل:

أدى تتابع الاحتجاج على اقتحام شارون للمسجد الأقصى و الأحداث منذ الأيام الأولى للانتفاضة عام ٢٠٠٠م إلى تغيير جذري في معطيات الصراع وتحول واضح ومتسارع في المزاج العام لدى الشارع الفلسطيني؛ بسبب التعامل الإجرامي المفرط الذي واجهت به قوات الاحتلال الاحتجاجات السلمية التي خاضتها الجماهير، ورأى الفلسطينيون ضحاياهم تتساقط أمامهم بشكل يومي في وقت عجزت فيه السلطة الفلسطينية عن حمايتهم بالطرق السياسية الدبلوماسية أو العسكرية، وبانت عورة الاتفاقات الموقعة، مما تسبب في فقدان الناس ثقتهم في العملية السلمية برمتها، وتحولت أنظارهم نحو المقاومة التي وجدوا فيها الخيار الحقيقي والمنطقي لصد العدوان ثم لتحقيق الطموحات والتطلعات الوطنية للشعب الفلسطيني.

كما رأت حماس أن الوقت قد حان لإعادة الاعتبار لمشروعها السياسي المبني على أساس المقاومة بكافة أشكالها، وهنا كان قرار استئناف العمل العسكري، وضرورة بذل كل الجهود وتوفير جميع الإمكانات المطلوبة لإنجاح العمل وإخراجه إلى حيز التنفيذ بالسرعة الممكنة، وبالزخم الأكبر الذي يلبي احتياجات المرحلة سياسياً ويشفي صدور الناس الذين طال بهم الانتظار، فاجتمعت المصلحة المبنية على الرؤية السياسية مع الرغبة الشعبية فكان التحرك قوياً وكانت النتائج سريعة ومذهلة قد باركها الله عز وجل.

غير أنه من الناحية العملية لا تقوم المكاتب الإدارية وغيرها من اللجان القيادية في المناطق باتخاذ قرار مفصل في موضوع العمل العسكري، وغالبا فإنه لا يتم تكليف أشخاص محدّدين لقيادة هذا العمل من خلال هذه الهيئات القيادية؛ ويرجع ذلك لأسباب أمنية وأخرى ذاتية تتعلق بطبيعة تشكيل هذه اللجان وآليات عملها واختصاصاتها وطبيعة الظروف التي تعمل فيها.

إلا أن ذلك لا يقلل من قيمة وأهمية دعم هذه الهيئات للعمل العسكري وموافقتها المبدئية على نضوج الظروف للاستمرار، وهكذا يمكن تفهم التباينات التي برزت بين منطقة وأخرى في قوة العمل العسكري وكذلك في الوقت الذي احتاجته كل منطقة للبدء اعتماداً على مدى قوة وثبات المظلّة التي توفرها القيادات السياسية المحلية والهيئات التنظيمية العليا.

من يرفع لواء المعركة:

عند هذه المرحلة تكون الأمور مهيأة والظروف ناضجة ويبدو قرار العمل متفقاً عليه، وليس ثمة حاجة بعدُ سوى لرجل أو أكثر يضرب على صدره ثم يحث الخطى ويقرع طبول الحرب ثم يتقدم الصفوف ويرفع الراية ليلتف من حوله المجاهدون المشمرون ممن كان ذا خبرة وسبق أو من جاء بعدهم ثم التحق.

وفي أغلب الأحيان هذا ما حصل خلال هذه الانتفاضة في معظم المدن والمناطق الفلسطينية حيث تطوع واحد على الأقل من الهيئات التنظيمية العليا وتقدم شاهرا سيفه، وإذا حدث أن منطقة جزئية ما لم يوجد فيها مثل هؤلاء الرواد المبادرين فإن ذلك ينعكس على كل المنطقة بحيث يكون العمل المقاوم فيها ضعيفا. وهذا يلزم العناصر الراغبين من حماس في العمل في إطار الكتائب إلى البحث عن لافتة أخرى يتحركون من خلالها أو محاولة التواصل مع مناطق أخرى من خلال العلاقات الفردية المسبقة، وهذا ما حصل في حالات نادرة بشكل عام، ويخطئ من يظن من المسئولين أن عليه الانتظار حتى تأتيه أوامر تفصيلية أو قرارات مباشرة طالما أن التوجه العام للحركة كان واضحا وجليا ومعلناً، وكانت المرحلة مرحلة المبادرة الذاتية وليس الجمود والتردد، والأمر كان يحتاج إلى إرادة قوية وقدرة إدارية ووعي سياسي وقبل ذلك كله وبعده توفيق من الله عز وجل لمن أخلص النية.

تفرس في الوجوه:

ولأننا نتحدث عن كتيبة الشمال على وجه الخصوص فسوف نسوق الأمر من بداياته في هذه المنطقة عموما وفي مركزها نابلس بالتحديد.

حيث تحرك بعض الرواد من قادة الحركة منذ الأيام الأولى للانتفاضة في مبادرة مبكرة وصار البحث عن جنود وقادة ميدانيين للمقاومة هو شغلهم الشاغل، وراحوا يتفقدون من يصلح لهذا الأمر ويطرقون الأبواب أملاً في إيجاد نواة ينطلق منها العمل.

وفي حين كان الآلاف يشاركون في المسيرات والمهرجانات وجنازات الشهداء كان هؤلاء القادة يتابعون الناس ويحدقون ويمعنون النظر فيهم، ويتفرسون في الوجوه لعلهم يرون من هو أشد حماساً وأكثر عاطفة وأصدق لهجة ومن تتوفر فيه صفات الاستعداد والتضحية والجرأة، ثم تتم محاولات لفحص إمكانية النجاح ومعرفة احتمالات القبول فكانت إشارات استجابة محدودة وغير مباشرة ولا ترقى إلى المستوى المطلوب.

وبقيت الأمور على هذا النحو تسير في إطار البحث والتحضير والاستفادة من كل الفرص المتاحة والمحتملة حتى وصلت رسالة قصيرة مكتوبة بخط اليد موجهة إلى المسئولين تمثل مجموعة من الإخوة قالوا أن لديهم خبرات عملية وهم على استعداد للعمل وجاهزية للتضحية والفداء، غير أنه تنقصهم الإمكانات العملية والدعم المادي، ولا توجد لديهم اتصالات رسمية مع الجهات المختصة بهذا العمل في الخارج، ويحتاجون إلى من يتابع أمورهم إدارياً وسياسياً.

استقبل الشهيد صلاح دروزة (أبو النور) هذه الرسالة فعرضها على الفور على أخ آخر، ودارت استفسارات لبضع دقائق في ذات اللقاء وكان السؤال الأهم ليس في صحة العمل ولا ضرورته وليس في توقيته أو الحاجة إليه، إنما هل هناك جهة رسمية معنية بالمتابعة متفق عليها مسبقاً؟ خاصة أن الحركة اعتادت منذ فترة طويلة على الفصل التام بين العمل السياسي والتنظيمي والإداري من جهة وبين العمل العسكري من جهة ثانية، وعملية الفصل هذه يمكن تأويلها وتفسيرها بصور مختلفة ووجهات نظر متباعدة وذلك اعتماداً على طبيعة الأشخاص وظروف المرحلة، ولهذا فإنه لا يصح أن يتخذ هذا الأمر ذريعة لموقف ثابت لا يتغير فيقف البعض بعيداً مقتنعاً بأنه ينفذ السياسة العامة للحركة بينما هو في الحقيقة يتخلى عن واجبه الشرعي ودوره التنظيمي.

وخلال ذلك اللقاء -الذي تم في بيت أبي النور- حسم الأمر مباشرة وكان القرار:(نحن لها)، وإذا لم نكن نحن فمن يكون؟، ولم يتم إعلام أحد من القيادة السياسية والتنظيمية في المنطقة بهذا التطور وبقي هذان الأخوان يحضران كل الاجتماعات التنظيمية ويشاركان في القرار ثم يقومان باستخلاص خط السير الواجب إتباعه في المرحلة القادمة، ثم تم إعداد رسالة جوابية للإخوة في الميدان تشد من أزرهم وتبارك همتهم وتؤكد لهم أنهم سيجدون كل الرعاية والدعم اللازمين وبشكل فوري، هذا على الرغم من أنه حتى تلك اللحظة لم يكن بين أيديهم مال أو سلاح أو خطوط اتصال.

ومن أجل أن تتم الأمور بطريقة منهجية سليمة وآمنة منذ البداية تم الاتفاق على الاتصال من خلال نقطة ميتة وباستخدام الألقاب الحركية.

وكانت تلك نواة المقاومة العائدة من جديد والتي تستمد قوتها وأسباب استمرارها من عزم أصحابها وإيمان رجالها وتضحية جنودها، وقلوب مخلصة تدعو لهم بظهر الغيب.

وفي تلك المرحلة كانت ثلة من المجاهدين منتشرة في مناطق عدة بقدر من الله قد بادروا وحملوا السلاح، اشتراه بعضهم من قوت أولاده وآخرون استبدلوه بحلي نسائهم وحاربوا قدر جهدهم، منهم من لم نعرف ومنهم من عرفنا حتى إذا سويت الأمور ورتبت الصفوف التحقوا بإخوانهم وصار الركب واحداً كصف في صلاة يقودهم إمامهم.

ولأن صلاح الدين دروزة (أبو النور) كان شخصية جماهيرية عامة يسهل رصد خطواته ومتابعة تحركاته فقد رأى صاحبه أن يعفيه من هذه المسؤولية، وما هي إلا أسابيع قليلة حتى تولى الأمر وحده لأسباب أمنية وموضوعية.

ومن طرائف التطورات أن هؤلاء المجاهدين الذين يتواصلون من خلال النقطة الميتة كانوا على يقين أنهم عملياً يتعاملون مع أبي النور ، خاصة أنهم توجهوا إليه في بداية الأمر وظنوا أنه حاول التمويه عليهم بإخبارهم أن أخاً غيره سيتابع الأمر من خلال الاتصال غير المباشر معهم، وحدثتهم نفوسهم أنه هو ذلك الأخ ولكنه رغب في إيجاد فاصل أمني بينه وبينهم، وكأنهم قبلوا ذلك فلم يراجعوه ولم يحاولوا التأكد إذ كان يعنيهم استمرار العمل وحسن متابعة الأمور ليس إلاّ.

حتى إذا استشهد أبو النور بتاريخ ٢٠٠١/٧/٢٥ م بعد أن تعرضت سيارته للقصف توقعوا أن تنقطع معهم الخطوط، لكن المفاجأة الكبرى لهم كانت حين توجهوا إلى النقطة الميتة حسب الموعد المقرر ليجدوا الرسالة كالعادة، وفيها عزاء لهم باستشهاد صلاح الدين ودعوة لهم إلى مواصلة الطريق التي كان لصلاح فضل كبير بانطلاقته ونجاحه.

وتواصل المشوار وتطورت الأحداث وازداد البناء قوة وثباتاً واتسع نطاقه وكثر العاملون فيه وسارت قافلة المقاومة ترعاها عناية اللّه وتوفيقه، ويزيدها الدم خفقاناً وعطاءً وفي جراحها تضميد لجراح الأمة.

الفصل الثاني

الهيكل التنظيمي...

صولات في الميدان

الهيكل التنظيمي... صولات في الميدان

هي صولات ترصد بعض الجوانب التنظيمية التي رافقت هذه المرحلة، مع شيء من التحليل يوضح مكامن النقص يتبعها طموحات وآمال مستقبلية تستدرك ما فات، وتستخرج عبراً ودروساً صيغت بدماء طاهرة.

حضن دافئ ومظلة تقي المصارع:

يعتمد نجاح العمل العسكري على عوامل متنوعة ومتعددة، وبمقدار التكامل والثبات في هذه العوامل تكون الإنجازات على الأرض، وتتحقق المكاسب في الميدان، ويم ذلك مع شعور المجاهدين العاملين بالكثير من الراحة النفسية والطمأنينة القلبية تخفف بعضاً من ثقل العمل وهم التثبت من صحة الطريق وصوابية النهج .

وأول هذه العوامل يتمثل في توفر البيئة الداعمة والجماهير المؤيدة لخط الجهاد، فلا يرى المقاومون أنفسهم جسماً غريباً يعيشون في محيط يرفضهم، بل إن الناس يضعونهم في مقام القدوة والبطولة ويتعاملون معهم بعين الرضا، يظهر ذلك في نظرات عيونهم وفي هتافات وشعارات يتغنون بها ودعوات صادقة في جوف الليل ثم في ابتسامات تعلو الوجوه عند كل إنجاز وليس آخر ذلك دموع حزينة تسيل عند كل فراق.

ويرتقي هذا الاحتضان من قبل الناس للمقاومة مروراً بإيواء المجاهدين والتستر عليهم، ثم ببذل المال من أجلهم وانتهاء بتقديم أبنائهم جنوداً يرغمون أنف العدو .

وتعلق شعبنا بمقاومة العدو أمر فطري صنعه رفض طبيعي للظلم ودين يربي أصحابه على فضل الجهاد في سبيل الله، وجاء إجرام المحتلين وبطشهم عاملاً إضافياً في التفاف الناس حول خيار الممانعة والتصدي.

غير أن سلوك المجاهدين وأخلاقهم لعب دوراً حاسماً في جلب محبة الناس وتأييدهم، فلم يستخدم أحد سلاحه في صراعات شخصية أو عائلية، ولم يتذرع أخ لكونه مطارداً ليعتدي على الآخرين ولم يجبروا الناس على خدمتهم أو التبرع لأجلهم بحجة دعم المقاومة، ولم يتعالوا على أحد أو يتدخلوا في أمور الناس الشخصية، وصانوا أموالهم وأعراضهم .

وحق على المجاهد أن يرعى هذا الود وأن يصحب معه دائماً حرصه على الناس إذ إن همه هو همهم وسلامته من سلامتهم.

المظلة السياسية:

وعامل آخر لا يقل أهمية يحتاج إليه العاملون في العمل العسكري وهو المظلة السياسية والتنظيمية التي توفرها الحركة، وهذا الأمر يتعلق بالموقف العام للحركة ككل بنفس القدر الذي يرتبط بتوجهات القيادة السياسية والتنظيمية لكل منطقة جزئية يتواجد فيها العمل الجهادي وتتشكل فيها مجموعات القسام.

وأول مفردات هذه المظلة وضوح القرار السياسي الداعم لمشروع المقاومة بحيث تصل الرسالة واضحة جلية للمقاومين في الميدان، أن لا خلاف على ضرورة العمل ولا على توقيته ولا على الأساسيات العامة الضابطة والمسيرة له، وأن يتصدر القادة السياسيون للدعوة إلى المقاومة في خطبهم وتصريحاتهم وبياناتهم المكتوبة.

وحين تكون المعارك محتدمة تبقى أصوات الصمود والثبات مرتفعة، وينتصب القادة محرضين يشحذون الهمم ويباركون الجهود ويتواجدون عند المحن ويرعون عائلات المجاهدين ويخلفون الشهداء والأسرى والمطاردين في أهلهم خيراً، وأن يستعد القادة لدفع ضريبة موقفهم هذا ولو أدى ذلك إلى الاعتقال أو الإبعاد أو الاغتيال أو التضييق في الرزق والحصار دون أن يصدهم ذلك عن المواصلة والاستمرار.

وعلى الرغم من أهمية الفصل بين القيادة السياسية والعسكرية في فلسطين إلا أنه من تمام هذه المظلة أن يبادر السياسيون إلى إكمال كل نقص في القدرات القيادية لدى العسكريين وأن يتقدموا لملئ أي فراغ قد ينشأ بسبب الضربات التي يوجهها الاحتلال للجناح العسكري فيطمئن المجاهدون إلى أن نهجهم سيستمر من بعدهم.

ومن حق القادة العسكريين أن يكون لهم دور في السياسات العامة للحركة وفي القرارات الحساسة المتعلقة بإدارة الصراع مع المحتل، وإدلاء القادة العسكريين بآرائهم تصويباً للعمل وإثراءً له.

فإذا اطمئن المجاهدون إلى حضن شعبهم الدافئ وأنسوا إلى مظلة قيادة الحركة التي تحمي ظهورهم فيركنوا إليها؛ يكون العطاء مضاعفاً والانجازات متتالية بوجود عوامل ذاتية أخرى ولطف من الله عز وجل يتجاوز عالم الأسباب.

ألوان الطيف:

امتازت هذه المرحلة من العمل بتنوع المشاركين فيها وتباينهم في المنشأ والمواصفات والقدرات، وأبدت المقاومة قدرة في استيعاب هذا التلون ودمج الجميع في بوتقة واحدة تخدم مشروع المقاومة، فكان منهم الساسة والمتحدثون والقادة التنظيميون المشهورون والمغمورون، شارك فيها أبناء الحركة الأوفياء الذين تخرجوا من محاضنها التربوية وتتلمذوا لسنوات في الأُسر التنظيمية إلى جانب أنصار ومؤيدين حثوا الخطى وتقدموا الصفوف، وآخرون لم يكونوا منا في يوم من الأيام ولم تشملهم

سجلاتنا وحساباتنا، كانت في نفوسهم عزة وشهامة، ورأوا فينا همة وصدقا فانضموا إلى الركب وسابقوا فأبدعوا وجاهدوا فأحسنوا فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وتكاملت قافلة المقاومة ببعدها الزماني يتقدمها رجال تجاوزوا الأربعين تتلوهم أجيال وأجيال لم يبلغ آخرهم سن العشرين.

وامتدت زمرة الخير جغرافياً، فتوزعت في كل المناطق فأمدها أهل المدن وأخيار الريف والمظلومون في المخيمات بالرجال والأبناء.

واتسعت مساحاتها أفقياً فكان منها المثقفون أطباء ومهندسون، طلاب ومدرسون، إلى جانب أصحاب المهن وأهل الحرف والعمال وآخرون مزارعون.

وانضم إلى العمل أصحاب خبرة قدامى ممن لم تقعدهم التضحيات السابقة ولم تفت في عضدهم سنوات سجن طويلة أكلت فيها القضبان أعمارهم، ومعهم إخوة كرام لم يعرفوا السجون ولم يحملوا السلاح من قبل.

واستقطبت المقاومة رجالاً تركوا خلفهم نساءهم وأطفالهم، وآخرين لم تؤخرهم وظائفهم وتجارتهم وشباباً لم تغرهم الدنيا بزخرفها وبهجتها، وعمالقة لم يردعهم هدم بيوتهم ولا خلّفهم عن القتال استشهاد شقيق أو أسرِه.

ومنهم طلاب أنهوا دراستهم أو كادوا ولكن آمال المستقبل وطموح الشباب لم تمنع لحوقهم بركب المجاهدين .

فازدان الطيف بألوانه البراقة وامتلأت حقول المقاومة وروداً وأزهاراً، ورفرفت رايات الجهاد تحملها الأيدي المتوضئة، وارتفعت هتافات الشهادة تعلو نجو السماء فلم يبق ثمة مكان لقاعد، ولا عذر للمتثاقلين إلى الأرض، وتم وعد اللهّ (إن اللهّ يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) . الصف ٤

تنظيم متعدد الأشكال:

تعتبر الهيكلية التنظيمية التي يتشكل منها أي إطار حزبي من العوامل الأساسية لتحقيق النجاح، لكن هذا الأمر يزداد أهمية عندما يتعلق الحديث عن تنظيم عسكري يعمل بطريقة سرية، وتصبح المسألة أكثر تعقيداً حين تكون ساحة العمل تحت سيطرة المحتل بكل ما يملكه من قدرات وخبرات وإمكانات عالية وتقنية متقدمة، إضافة إلى عدم أخلاقيته وتحلله من كل المواثيق والعهود التي تعارف عليها البشر والتزموا بمراعاتها في حالات الصراع، زد على ذلك عيون ومخبرون يتحركون ليل نهار لهم أسماء كأسمائنا ويعيشون بيننا لكن قلوبهم بأيدي عدونا وعقولهم يتحكم بها ويحركها كيف يشاء، والأدهى من ذلك أنهم أوتوا سلطة وشرعية ونفوذاً !! ويزداد الوضع صعوبة حين لا تمتلك المقاومة أرضاً حرة تشكل منطلقاً لها أو دولة حامية تؤمن ظهرها وتكون ملجأ لرجالها عند الحاجة.

ولا شك أن هذا هو واقع المقاومة الفلسطينية في الضفة الغربية على وجه الخصوص منذ كان الاحتلال وحتى هذه المرحلة على الأقل.

ولهذا جربت المقاومة طرقاً عدة في تشكيل هياكلها التنظيمية في محاولة لتخفيف الضربات الموجهة إليها ولضمان استمرار العمل في الأوقات الحرجة والحساسة.

فاستخدم التنظيم الهرمي والذي يقسم فيه العاملون إلى خلايا ومجموعات تعلوها فئة تقود هذه التشكيلات، وترتقي الأمور في تسلسل متصاعد حتى يصل رأس الهرم الذي يشرف على العمل كله، وميزة هذا الشكل تكمن في سهولة التواصل ويسر المتابعة وتحصيل معرفة جيدة بتفاصيل العمل وأداء العناصر، ويساعد على استكمال النقص وملئ الفراغ في فترة قصيرة ويوفر معلومات كافية من الميدان، وهنا تتمكن القيادة من توزيع المهام ومعالجة الخلل واختصار الوقت، لكن أكبر سلبيات هذه الطريقة تتمثل في انكشاف كثير من العاملين على بعضهم البعض.

وهذه أهم نقاط الضعف من الناحية الأمنية حيث أنه في حال تمكن العدو من الإمساك بطرف خيط لهذه الهيكلية فإن ذلك يزيد من احتمالية انكشاف أجزاء واسعة من العاملين والمجاهدين، وإذا وقع أحد العناصر في يد العدو -وهذه إمكانية واردة في كل حين- فإنه سيخضع في أغلب الأحيان لأساليب التحقيق المتنوعة والتي يصمد فيها من يصمد ويسقط فيها من يسقط، وفي الحالة الثانية فإن هذا التساقط يتتابع ويتواصل حتى تقع المجموعات كما يحدث مع أحجار الدومينو التي يسقط بعضها بعضاً، وحتى لو صمد بعض المجاهدين في هذه الحالة فإن ذلك لن يمنع الانهيار من جهات أخرى، ومكمن الخطر في هذه الهيكلية أن "التنظيم يمكن أن يتضرر بسبب ضعف يبديه بعض الأفراد سواءً كانوا في أعلى الهرم أم في أدناه".

وفي حالات أخرى لجأت المقاومة إلى شكل هيكلي مختلف يتفادى خطر الضربات الأمنية المؤلمة من خلال اعتماد التنظيم العنقودي، الذي يقوم على اتصال كل عنصر مع الشخص الذي فوقه في سلسلة عمودية، بحيث لا يتعرف المجاهد إلاّ على شخص واحد يرتبط به ويتلقى منه التعليمات والأدوات اللازمة لأداء المهام الجهادية، وهذه الطريقة تجعل من الصعب على العدو تفكيك الخلايا أو توجيه ضربات قاصمة للمقاومة، وفي حالات الاعتقال والتحقيق فإن صمود أخ واحد أو تمكنه من الاختباء والهروب سيوقف أي ضربة أمنية ويحول دون كشف مزيد من المعلومات والأشخاص، وهذه الآلية قد تكون صالحة في الأوقات الأكثر هدوءاً، وعندما يكون عدد المقاومين محدوداً وانتقائياً، وتكون المهام المطلوبة مبنية على تنفيذ هجمات متباعدة شديدة التخطيط، وهو بعكس الحال الذي كانت تتطلبه المقاومة في المرحلة الأولى من انتفاضة الأقصى، حيث عدد المنخرطين في المقاومة في تزايد مستمر، والحاجة إلى تنفيذ العمليات تكاد تكون يومية، والمطلوب هو تكثيف العمل كمّاً ونوعاً للرد على جرائم الاحتلال المتكررة ضد أبناء الشعب ومؤسساته وممتلكاته ومقدساته.

وبناءً على هذه المعطيات والتعقيدات المتشابكة في الحالة الفلسطينية، حيث توجد على بعض الأرض سلطة فلسطينية تقوم أجهزتها الأمنية غالباً بملاحقة المقاومين والتضييق عليهم واعتقالهم خاصة أبناء كتائب القسام، ولأنها المرة الأولى التي يحتدم فيها الصراع مع المحتل داخل فلسطين بهذه القوة والضراوة والاستمرارية، كان لا بد من البحث عن آليات جديدة في الهيكلية التنظيمية تجمع بين السلامة الأمنية من جهة والقدرة على العمل المتواصل والأداء القوي من جهة ثانية، إضافة إلى قدرة عالية على استيعاب عناصر جديدة تبدي استعدادها اليومي للتضحية والانخراط في صفوف المقاومة.

وهكذا تم اعتماد آلية مختلفة في تركيبة الهيكلية التنظيمية لكتيبة الشمال، أساسها الدمج بين الشكلين السابقين "الهرمي والعنقودي" ومحوره يقوم على الغموض والضبابية ظاهرياً مع وضوح في الصلاحيات وخطوط الاتصال داخلياً، بحيث يعجز العدو عن معرفة المكانة التنظيمية التي يحتلها المجاهدون بما في ذلك القادة المطاردون المعروفون لدى الاحتلال، مع الاحتفاظ بقادة آخرين يتحركون بعيدا عن الضوء، وبالإجمال يمكن وصف التنظيم بأنه متشعب، متعدد الرؤوس، متنوع في الاتصال وطرق التنسيق، تعتمد نواته الصلبة على مجموعة من القادة الميدانيين المطاردين من قبل قوات الاحتلال، وهم موزعون في عدة مناطق ويتنقلون حسب الحاجة والضرورة في محافظات الشمال بين نابلس وجنين وطولكرم وسلفيت وطوباس، وكانت نابلس بؤرة العمل الأساسية التي تربط بين الجميع إضافة إلى علاقات وارتباطات متعددة مع رام الله والقدس وحتى الخليل وبيت لحم، والكل يعمل كخلية نحل لا تتوقف، لا تنازع بينها على الصلاحيات، يتسابقون نحو العمل ركضا إلى الله تعالى وسعياً نحو مرضاته.

ويرتبط هؤلاء القادة بعلاقات مباشرة ترتب أمورهم، في حين يتبع عدد قليل منهم لطرف آخر عبر اتصال غير مباشر لكل منهم، وإذا غاب أحدهم يخلفه غيره من إخوانه في حلقات تراتبية تحددها ظروف الميدان وطبيعة التطورات، ومن الجدير بالذكر أن هذا الطرف الذي كان يتابع كل هذا العمل كان يتواصل مع القادة الميدانيين المطاردين عبر نقاط ميتة ، كان هو يعرفهم بالتفاصيل في حين أن أحداً منهم لا يعرف عنه شيئاً لا اسمه ولا مكانه، ولم يطلع أحداً منهم على خط يده أو يسمع صوته، ورغم ذلك تمكن من كسب ثقتهم به، وكانت العلاقة مبنية على الاحترام والتقدير والأخوة الصادقة، وهي حالة يندر أن تجدها عند الآخرين بهذا القدر من الانضباط والالتزام بقيادة غير مرئية.

من جهة أخرى فإن هذا الطرف الذي يتابع العمل كان يتم من خلاله الاتصال مع الجهات المعنية في الحركة خارج فلسطين، ويتم التنسيق والتشاور عبر طرق ووسائل متعددة، رغم أن الحركة في الخارج لم تكن تعرف لهذا الأخ سوى لقباً حركياً فقط وآثاراً واقعية على أرض الميدان.

ولا ننسى أعداداً أخرى كبيرة من المجاهدين والعاملين والمساعدين والمنفذين ترتبط بالقادة الميدانيين المطاردين، أو عبر قنوات أخرى خاصة بهم ، لكنها في النهاية حلقات مترابطة ومتكاملة ومتداخلة وصلات لا تسير باتجاه واحد ولا تتبع نسقاً محدداً، فكانت النتيجة فعالية في الأداء، وإرباكاً لدى العدو، وإضعافاً لقدرته على تفكيك أسرار هذه الكتائب.

أمن الاتصال:

إن قوة الهيكلية التنظيمية ومتانة تشكيلات المقاومة تصبح قليلة الأثر وضعيفة في الصمود والثبات إذا لم يرافق ذلك وسائل اتصال آمنة وطرق ترابط فعالة تجمع بين أجزاء التنظيم، وهذه الوسائل يلزمها عنصران أساسيان: أولهما أن تكون عملية وموضوعية وقابلة للتطبيق بحسب الظرف والمكان والزمان، والثاني أن تكون مبنية على أسس أمنية تحفظ أسرار العمل قبل التنفيذ وأثناءه وبعد الانتهاء منه.

ومن هنا نستطيع القول: إن التنظيم العسكري مبني على ركنين لا بقاء له إذا فقد أحدهما: قوة الهيكلية التنظيمية وقوة وسائل الاتصال، وهما بمثابة الجناحين للطائر لا يمكنه أن يحلق إذا فقد أحدهما.

وفيما يلي نستعرض آليات الاتصال التي كانت متبعة عملياً وذلك في إطار العلاقة مع الحركة خارج فلسطين، ثم وسائل الاتصال بين أجزاء التنظيم وفروعه في الداخل، مع ذكر المعوقات والسلبيات والمحاذير في هذا الصدد.

ويجب التنويه ابتداء إلى أن الحديث هنا لا يدور حول شركة تجارية ولا جمعية خيرية ولا روابط شخصية وإنما الأمر متعلق بعمل جهادي تتطلع إليه أنظار الأمة كلها، وهو موضوع غاية في الجدية والالتزام، وهو متعلق بحياة المجاهدين وأرواحهم ولذلك فإن استخدام وسائل الاتصال يجب أن يكون في

أضيق الحالات وعند الضرورة العملية مهما كانت هذه الوسائل آمنة، مع مراعاة استخدام أدق العبارات والألفاظ وأقصرها بعيداً عن الثرثرة التي لا طائل منها، وينبغي تربية النفس على كبت حب التطفل والبحث عن ما لا يلزم لها عملياً، وهذا الانضباط النفسي الذاتي إذا لم يكن متيناً فإنه قد يعرض وسائل الاتصال إلى الخلل مهما كانت آمنة وسليمة.

الاتصال مع الخارج :

تبقى علاقة الكتائب التي تباشر المقاومة ضرورية مع الأطراف المعنية للحركة خارج فلسطين، وهي رابطة يصعب جداً الاستغناء عنها، والأصل أن تكون على قدر الحاجة، كما يجب حصر هذا الاتصال بيد طرف واحد مركزي ولا يجوز تعميمه على المجموعات الميدانية العاملة خشية حدوث تضارب وإرباك في المواقف والقرارات والتوجهات، ولمنع أي تداخل في الصلاحيات ولكي يتم معرفة نقاط الضعف في حالة حدوث أي خلل أمني أو خطأ تقني.

غير أن هذا لا يمنع من الاتفاق على آلية تواصل بديلة متفق عليها مسبقاً في حالة غياب ضابط الاتصال المركزي بسبب اعتقال أو اغتيال أو أي أمر طارئ.

وهنا يجب التأكيد على قضية هامة جداً يجدر الانتباه إليها وإلى ضرورة اختيار ضابط الاتصال مع الخارج من بين الإخوة غير المطاردين المكشوفين من قبل العدو، لأن هذه المهمة تتطلب نوعاً من التفريغ والاستقرار وسهولة الحركة، وهي شروط لا تتوفر للمجاهد المطارد الذي يبذل جهودا كبيرة للحفاظ على حياته وقدرته على العمل.

ويفضل أن يتولى مهمة الاتصال بالخارج الأخ المسئول عن العمل كله أو واحداً من المقربين منه، وهذا ما كان عليه الأمر في تجربة كتيبة الشمال.

أما طرق الاتصال فقد كانت متعددة ومتنوعة، منها استخدام الرسائل المكتوبة "الكبسولة" والتي ينقلها شخص موثوق به ليسلمها باليد مباشرة إلى الطرف الآخر، ويجب أن يكون هذا المراسل شخصية غير معروفة بانتمائها التنظيمي ولا يوجد لدى الإحتلال أي شكوك مسبقة حول علاقته بالحركة وأن يكون سفره خارج البلاد مبرراً ومقبولاً، ولمزيد من الاحتياط تكتب الرسالة مشفرة بطريقة متفق عليها ابتداء، ويفضل استخدام الآلة الكاتبة أو ما شابه بدلاً من خط اليد، وهذه الطريقة إذا أحسن استخدامها فإنها من أكثر الوسائل أماناً لعدم وجود تقنية علمية فيها، وقد تم بالفعل تجربتها أكثر من مرة وأثبتت فعاليتها بشكل جيد رغم أنها لا تصلح للحالات السريعة والطارئة.

اتصال باستخدام الهاتف والفاكس:

وهي من أكثر الطرق شيوعاً وانتشاراً وأكثرها سهولة ويسراً، ولكنها في المقابل أشدها خطورة وأضعفها أمناً، ولهذا يحظر اللجوء إليها إلا عند الضرورة القصوى وفي حالة تقطع كل السبل الأخرى، وفي هذا الوضع يمكن اتخاذ بعض التدابير والإجراءات الأمنية التي تخفف من سلبيات هذه الوسيلة.

من ذلك عدم استخدام الهواتف الشخصية الخاصة للأخ سواء تلك الموجودة في المنزل أو مكان العمل أو التي تتبع لأشخاص مقربين جداً من الأخ، ويفضل اللجوء إلى الهواتف العمومية على أن تكون بعيدة عن مكان سكن الأخ، أو من خلال استخدام هاتف نقال يستخدم خصيصاً لهذه المهمة، ولا يتم استخدامه من داخل المنزل لأن وسائل المراقبة يمكنها تحديد مكان المتحدث المستخدم لهذه الأجهزة.

والأفضل أن يتم التعامل من خلال خدمة الرسائل القصيرة، وسواء كانت المحادثة مكتوبة أو صوتية فانه يجب تجنب استخدام الألفاظ الفاقعة التي تدل على أعمال المقاومة بشكل مطلق، واستبدالها بكلمات من وحي العلاقات الاجتماعية أو المهنية، مثل أن تقول مرض فلان بدلاً من كلمة اعتقل، وأدخل المستشفى لإجراء جراحة بدلاً من أنه يخضع للتحقيق، وكلمة صندوق البريد بدلاً من حساب البنك، أو أرسل لنا مندوب المبيعات بدلاً من مراسل تنظيمي، أو اترك خبراً لدى السكرتيرة وتعنى إرسال معلومة عبر البريد الإلكتروني، وهكذا يمكن اختراع عشرات الأمثلة والبدائل وتغييرها حسب الحاجة كل فترة، على أن تتناسب مع ميدان المهنة أو الوضع الاجتماعي للأخ المتصل، ويراعي عدم الإكثار من استخدام الألفاظ الدينية التي تدل على التزام إسلامي يتجاوز الصفة الغالبة لعموم الناس، كما يجب الاستغناء تماما عن ألفاظ ''شهيد، مطارد، سلاح، عمليات، العدو'' وما شابه ذلك، كما يمنع استخدام ألفاظ صريحة ومباشرة في جميع الأحوال حتى لو كان أصحابها شهداء، ولا تظن أن العدو لا يتمكن من مراقبة ملايين المكالمات التي تجري في كل يوم، إذ ثبت من الناحية العلمية أن العدو باستطاعته ومن خلال وسائل تقنية متطورة أن يحصر مجال البحث والمراقبة، كأن يحدد ذلك في إطار المكالمات الصادرة إلى بلد معين- الأردن أو سوريا مثلا- مما يضيق دائرة البحث بشكل كبير، أو من خلال الإيعاز إلى أجهزة الحاسوب التي تتولى عملية المراقبة والتنصت بأن تسجل كل المكالمات التي ترد فيها ألفاظ محددة تدل على فعل المقاومة مثل تلك التي ذكرنا ضرورة تجنبها، كما ننوه أنه عند استخدام بطاقة اتصال للهاتف العمومي فإنه يمنع استخدامها لأغراض شخصية معروفة في حالة بقي مبلغ من المال في رصيدها بعد استخدامها التنظيمي، بل يفضل رميها بعد استعمالها مباشرة من قبيل الاحتياط، وفي حالة استخدام الهاتف النقال فان الفكرة السائدة التي تفيد بتغيير عدة شرائح على ذات الجهاز لا قيمة لها فعلياً لأن لكل جهاز إشارته الخاصة التي تدل عليه مهما اختلفت الشرائح المستخدمة بداخله تماماً كرقم "شاصي السيارة" فانه رقم سيارة سجل في الشركات.

أما موضوع الفاكس فإنه ينطبق عليه ما ينطبق على الهاتف تماماً. من سهولة مراقبته، وإن كونها ورقة مكتوبة فان مراقبتها صعبة كونك لا تستخدم صوتك خلالها ولذلك إذا كانت هناك ضرورة ما للجوء إلى هذا الخيار فليكن عبر استخدام شركات عامة تقدم هذه الخدمة للجمهور.

أما الموضوع الأخطر في كل ما يتعلق بالاتصالات الهاتفية الخارجية والداخلية على حد سواء فهو ما يعرف اليوم باسم "بصمة الصوت '' وهي مسألة أصبحت حقيقة علمية مثبتة ومعروفة ومغزاها أن لكل إنسان بصمته الصوتية الخاصة به والتي لا تشبه أي إنسان آخر، تماماً مثل بصمات الأصابع، ويمكن عبر تقنيات يمتلكها العدو أن يحدد صاحب هذا الصوت مهما حاول هذا الشخص تغيير صوته أو خفضه أو وضع يده على فمه عند الكلام أو أي إجراء شبيه، فإن ذلك لن يغير شيئاً لأن الأمر يتعلق بأوتار الصوت وذبذباته التي لا يمكن للإنسان أن يتحكم فيها.

وقد يقول أحد المجاهدين أنه مطلوب ومطارد من قبل الاحتلال ولا يعنيه معرفة صوته، ففي هذه الحالة إن الخطورة لا تكمن في معرفة الشخص فقط بل في طبيعة المعلومات التي يتحدث بها أثناء المكالمة، إضافة إلى إمكانية الضرر الذي يقع على الأخ الموجود على الطرف الآخر من المكالمة والذي في كثير من الأحيان لا يكون مطلوباً، كما أن حديث المطارد من ذات الهاتف الثابت أو النقال من مكان اختبائه قد يدل في كثير من الأحيان عليه ويكشف أمره، وهذه الملاحظات كثيراً ما يغفل عنها الأخ المجاهد سواء كان مطارداً أم لا، وذلك بسبب جهله بها أو استخفافه بأهميتها وعدم قناعته بما جاء فيها، أو لقلة همة وبطء حركة، وعمليا فقد تم التعامل مع الهاتف في مرات قليلة لكن أضرارها عموما أكثر من فوائدها فيجب الانتباه .

الإنترنت والبريد الإلكتروني :

وهذه الوسيلة أكثر أماناً وسلامة من غيرها، ولا تحتاج إلى جهد كبير، ولكن حذار أن تظن انه لا يمكن اختراقها أبدا، حيث أن كل برامج الكمبيوتر وتعقيداته لها ما يوازيها من الحلول سواء كان هذا معلنا لدى المختصين أم لا، إذ يكفيك أن تعلم أن خدمة الانترنت اخترعت في السبعينات من القرن الماضي ضمن دائرة اتصالات خاصة بالجيش الأمريكي في حين لم تصبح متداولة بين أيدي الناس إلا بعد سنوات طويلة.

ومع ذلك يمكن اللجوء إلى بعض الاحتياطات الإجرائية التي تزيد من سلامة هذه الوسيلة في الاتصال، وقد تم ذلك من خلال تجنب الدخول إلى الإنترنت عبر الهاتف الشخصي لأنه يسهل على العدو تحديد الخط الهاتفي الذي تم وصل الكمبيوتر به إذا ما أراد الاحتلال متابعة البريد الإلكتروني بعد رصده، ولهذا يمكن ارتياد مقاهي الإنترنت العامة البعيدة عن مكان سكنك أيضاً. مع مراعاة عدم إثارة

الشبهات عند دخول هذه الأماكن، كأن يدخل أخ يبدو عليه التدين على مكان ما معروف برعونة من يرتاده، كما يجب الانتباه إلى أنه يمكن لشخص خبير أن يستخرج الكثير من الخطوات التي تم استخدامها عبر الجهاز سابقاً، وفي وقت لاحق تم استخدام جهاز كمبيوتر نقال مرتبط بجهاز خلوي لإرسال البريد الإلكتروني، ومرة أخرى من مكان بعيد عن منطقة السكن، ومن ثم الاحتفاظ بالجهاز في مكان آمن دون استخدامه في قضايا شخصية معروفة تدل على صاحبها.

أما الآن فقد أصبح من الممكن الدخول إلى الانترنت عبر الجهاز الخلوي مباشرة دون الحاجة إلى استخدام جهاز كمبيوتر وهذا الأمر يسهل العملية جداً وهو ما لم يكن موجوداً سابقاً.

ولمزيد من الاحتياط فقد كان يتم استبدال العنوان البريدي في كل اتصال حتى تصعب ملاحقته، وكذلك الاستعانة بالشيفرة خاصة في موضوع ذكر الأسماء أو الأماكن أو التواريخ، وكذلك يجب أن نتذكر دوما أنه مهما بلغت خبراتنا ومعرفتنا بالكمبيوتر والإنترنت والأجهزة التقنية الأخرى فإن ما لدى العدو هو أكبر من ذلك مما نعرف أو لا نعرف، ولذلك فإن الاعتماد على شيفرة يدوية مثلا هي أضمن من عشرات الشيفرات المعقدة جداً الموجودة في الكمبيوتر والتي يسهل حلها على من برمجها ابتداء، كما أن كل ما يكتب على القرص الصلب للكمبيوتر يمكن إعادة استخراجه حتى لو تم إجراء عملية مسح له وهذا الأمر ينطبق أيضاً على الأقراص المرنة -ديسكات أو CD- حتى لو تم كسرها وثنيها أكثر من مرة، لذا فإن الأولى عند الانتهاء منها مسحها ثم حرقها بشكل تام ورميها في القمامة حتى لا تضع صيداً ثميناً وسهلاً بين يدي عدوك.

وهكذا نجد أن استعمال العقل والحكمة والابتعاد عن التقنية قدر الإمكان سوف يربك العدو ويفشل مخططاته في كشف الاتصالات والتحركات عبر وسائل المراقبة المتطورة التي بحوزته، ونضرب لك مثلا في القائد الصومالي "محمد عيديد" الذي بحثت عنه الولايات المتحدة الأمريكية عند دخول قواتها إلى الصومال في أواسط التسعينيات من القرن الماضي حيث فشلت في العثور عليه رغم استخدامها لكل وسائل المراقبة بما في ذلك الأقمار الصناعية، واستمرت حملة المطاردة فترة طويلة دون جدوى حتى توفي الرجل بعد سنوات بشكل طبيعي ليتبين حينها أن سر نجاحه في الإفلات منهم كان في عدم استخدامه لأية أجهزة إلكترونية حديثة، وهذا الأمر يرجحه المراقبون في قضية بقاء "أسامة بن لادن" حراً طليقاً رغم سنوات متلاحقة في البحث عنه، فهل من معتبر!!.

استقبال مبعوثين قادمين من الخارج:

وهذا ما حدث أكثر من مرة بغرض التواصل حيناً ونقل خبرات تقنية وفنية في أحيان أخرى، والأصل أن يتم الاتفاق مسبقاً عبر وسائل اتصال أخرى على تفاصيل اللقاء وظروفه، فعلى مستوى المكان يتم اختيار موقع عام يرتاده الناس بشكل طبيعي مثل الأسواق والشوارع والمتنزهات في حين يفضل تجنب المساجد أو المقرات المحسوبة على الحركة، كما يتفق مسبقا على مكان آخر بديل بعيداً عن المكان الأول في حالات الطوارئ، وعلى مستوى الزمان فإن أفضل الأوقات حين تكون حركة الناس طبيعية ومبررة فيبتعد عن أوقات الليل المتأخرة أو ساعات الفجر الأولى كون المبعوث في الغالب من خارج المنطقة، ويتم اختيار ثلاثة أوقات بفارق زمني مدته ساعة مثلا كبدائل في حالات الطوارئ والتأخر لأسباب قاهرة، ثم يكون اليوم التالي بديلاً نهائياً للقاء فإذا لم يتم يفضل إلغاء الموعد كله والعودة للبحث عن ترتيب جديد عبر وسائل الاتصال الأخرى.

ويتم اختيار هيئة معينة وملابس محددة تتناسب مع المكان وحالة الطقس، وتستخدم كلمات سر تتضمن ألفاظ شبه معتادة، ويفضل أن تكون أكثر من كلمة والرد عليها، وينصح بأن يستقبل المبعوث مندوب مثله وليس الأخ المسئول، ثم يقوده إلى مكان اللقاء الرسمي المناسب، وإذا كان غرفة فيجب الحرص على عدم إبقاء أي متعلقات تدل على صاحب المكان سواء الصور واللافتات على الجدران أو أغراض مميزة في الأثاث، وتلتقي المبعوث وأنت ملثماً، وتحاول عدم إظهار أي لهجة محلية أو إشارة أو كلمات أو أسماء تدل عليك حتى لو كان خاتم الزواج في يدك، حتى لو قدر لذلك المبعوث أن يخضع للتحقيق لدى العدو فإنه لن يتمكن من كشف من استقبله حتى لو انهار أثناء الاستجواب.

الاتصال الداخلي مع القادة في الميدان:

كان الاتصال مع القادة المطاردين المسئولين المباشرين عن تنفيذ العمل والتجهيز له، وكان التواصل يتم مع ٤-٥ من هؤلاء القادة في نفس المرحلة ولكل واحد منهم نقطة اتصال خاصة به، وهو بدوره يشرف على جزء من العمل، وكان من بين هؤلاء الكرام على سبيل المثال أيمن حلاوة ومهند الطاهر ونسيم أبو الروس وطاهر جرارعة ونصر عصيدة إضافة إلى القائد محمود أبو هنود ومشاورات مع الشيخ القائد يوسف السركجي وأخوة آخرون في مناطق متعددة، وكان كلما استشهد أحد هؤلاء القادة خلفه آخر في مكانه مباشرة.

وكان لكل قائد " نقطة ميتة " خاصة به للاتصال مع الجهة المسئولة، ويراعى في آلية الاتصال هذه أمور عدة منها اختيار مكان مناسب يسهل الوصول إليه وله أكثر من مدخل واحد ولا يكون السير بجانبه مشبوها أو مثيرا للشكوك، ويفضل تجنب المساجد بصورة عامة لأنها أماكن معروفه ومتوقعة ومجربة لدى الإسلاميين، ويمكن أن تكون بجانب طريق فرعي أو على حافة سور عام أو

على درج عمومي أو تحت شجرة في الطريق، ويمكنك اختيار عشرات المواقع إذا أحسنت البحث وبذلت بعض الجهد، وكان لكل نقطة ميتة مكان بديل متفق عليه مسبقاً كما يتم تغيير كلا المكانين بين الحين والآخر.

وتوضع الرسالة مغلقة داخل أي غرض يكون وجوده ملقى على الأرض أمراً طبيعياً لا يلفت انتباه أحد مثل علبة سجائر فارغة أو زجاجة عصير أو كرتونة حلويات أو أي شيء من هذا القبيل بحيث لا يكون شفافاً ولا يثير شكوك أحد، وفي حين كان الأخوة المطاردون يكتبون الرسائل بخط اليد بسبب ظروفهم الصعبة كان الأخ المعني بمراسلتهم يكتب رسائله مطبوعة زيادة في الحرص ومزيداً في الاحتياط حتى لا يتعرف أحد عليه من خلال خط يده، كما كان يتبع إجراءً أمنياً إضافياً له أهمية كبرى وذلك باستخدام شيفرة سهلة عند ذكر الأسماء والأماكن على وجه الخصوص بحيث لو وقعت الرسالة في يد شخص عادي مصادفة لا يتمكن من معرفة أية معلومات ذات قيمة، وبما أن الاتصال كان مع مجموعة من القادة في آن واحد في مواقع مختلفة فقد كان لكل حالة شيفرة خاصة مختلفة عن الأخرى وبطبيعة الحال تختلف عن الشيفرة المتعامل بها مع الاتصال الخارجي.

أما التوقيت فقد كان بإمكان كل أخ أن يتصل بالجهة المسئولة في كل يوم، وقد كان هذا الأمر ضروريا بسبب كثرة الأحداث وتتابع التطورات في انتفاضة الأقصى، وإذا أراد هذا الأخ استخدام النقطة الميتة الخاصة به فما عليه سوى إرسال رسالة عادية على رقم خلوي متفق عليه، وحين يستقبل الرد المماثل الذي يؤكد على قبول الاتصال فإن النقطة تكون جاهزة لوضع الرسائل في وقت متفق عليه مسبقاً وغالباً ما يكون بعد غروب الشمس وحتى الساعات الأولى من الليل.

وبما أن لكل" نقطة ميتة " مكانها الخاص وزمانها الخاص فقد كان بإمكان الجهة المسئولة التعامل مع كل الأطراف في نفس اليوم، وهذا يحتاج إلى دقة في المواعيد والتزام بالتعليمات المرافقة لهذه الاتصالات، والوقت المتفق عليه بين شحن النقطة الميتة وإفراغها لا يتجاوز ربع ساعة فقط بحيث يرجع بعدها واضع الرسالة لأخذها وتؤجل العملية لليوم التالي إن لم يتم استلامها، ومن أكبر الأخطاء في التعامل مع النقطة الميتة هو" حب الفضول" الذي قد يدفع ببعض الإخوة لمحاولة التعرف على الطرف الآخر الذي يتعاملون معه، وذلك من خلال مراقبة الموقع ومعرفة من يحضر الرسائل ويأخذها، وهذا الأمر قد وقع في تجارب سابقة للعمل أدت في النهاية إلى كشف أسرار ومعرفة أشخاص ثم سقوط في أقبية التحقيق لاحقاً سبب أضراراً بالغة في العمل، ومرجع ذلك كله حب الفضول والاستطلاع!! ولكن الله سلم من هذا العيب في تجربة كتيبة الشمال "فأحسِن الإتباع تَسلم" ولا تكن كمن استهان فتندم، ومن الجدير ذكره أن هذه الطريقة قد استخدمت في نقل الرسائل وفي أحيان كثيرة في نقل الأموال مع مراعاة حسن اختيار الغرض الذي يوضع فيه هذا المال، وقد نجحت هذه التجربة بصورة مطلقة تقريباً، أما في حالة نقل السلاح أو المواد أو ما شابه فيتم اختيار موقع مغاير يراعى فيه الابتعاد عن طرق الناس وممتلكاتهم الخاصة.

الألقاب الحركية وكيفية التعامل معها:

وهذه مسألة مهمة جداً إذا أحسن استخدامها؛ فإنها تضيف واقعا أمنياً يحفظ سلامة العمل وأمن العاملين، ولهذا لا ينبغي التساهل معها أو التقليل من أهميتها، والأمر لا يتطلب جهداً ولا مالاً وإنما يقظة وفطنة وحرصاً وحكمة.

واستخدام الألقاب الحركية يجب أن يشمل كل العاملين في إطار المقاومة قادة وعناصر ومساعدين ومؤازرين كباراً وصغاراً دائمين ومؤقتين، كما ينبغي وضع ألقاب خاصة للأماكن مثل الشوارع والأحياء والبيوت وأسماء القرى التي يكثر التعامل معها، ويفضل أيضاً التعامل بنفس الطريقة مع الأسلحة والمواد والأدوات التي تستخدم في المقاومة، وعلى كل أخ أن يعود نفسه على استخدام هذه الألقاب والحرص عليها أثناء الحديث أو الاتصال أو الكتابة، ولا يتم كشف هذه الألقاب أمام من لا يعنيه الأمر من باب الثرثرة وكثرة الكلام، كما يراعى تغيير هذه الألقاب بين فترة وأخرى حتى لو لم تكتشف فإن الأمر لا يكلف شيئا.

وفي حال كان للأخ أكثر من جهة يتصل بها فيفضل أن يستخدم لقباً خاصاً مختلفاً من جهة لأخرى، ويجب الابتعاد عن اختيار ألقاب إسلامية مثل" صهيب ومصعب والشيخ والإمام" وما شابه، ويفضل اختيار اسم مفرد بدون الكنية، فنقول (سمير وخالد ومحمد) بدلاً من (أبو فلان)، لأن الكنية أمر معتاد في الألقاب الحركية ينبغي تغييره، ويمكن أحياناً اختيار أسماء مؤنثة خاصة للأماكن والأدوات، ولا تختار من الأسماء ما كان اسماً حقيقياً لمطارد معروف أو قائد مشهور حتى لا يقع الخلل من حيث لا تحتسب، وفي أسماء الناس المعتادة المعروفة متسعٌ فلا تضيق على نفسك.

وعموما فان آليات الاتصال واستخدام الشيفرات والألقاب هو مجال واسع للاجتهاد والابتكار.

وإنما سجلنا لك تجربتنا في "كتيبة الشمال" - والتي ثبت نجاحها بصورة كبيرة- حتى اعترفت مخابرات العدو بذلك، وأقرت بتعقيدات هذه الأمور مما زاد من صعوبة المراقبة والملاحقة، فعليك أن تقتدي لا أن تقلد فحسب، فإن أحسنت الاستفادة من التجارب وأعملت عقلك وفكرك واستعنت بالله فسيخرج من بين يديك ألوان من التجديد والإبداع بإذن الله.

الدرهم المقاتل:

المال عصب الدعوات، هكذا جاء في أدبياتنا من قبل و هو قول حق، لكن حاجة العمل المقاوم إلى المال كحاجة الإنسان إلى الماء والهواء، وعادة فإن النقص لا يكون في الرجال بل في (ولا أجد ما أحملكم عليه)التوبة ٩٢، وقد عرف العدو هذا الأمر فبذل جهوداً كبيرة من أجل تجفيف المنابع ومنع وصول الأموال إلى المقاومة، ولهذا ينبغي على القائمين بأمر المقاومة أن يضعوا سياسة مالية تتيح الاستفادة من كل درهم، بحيث يوضع في مكانه الصحيح حسب قاعدة الأولويات، والأصل أن تتعدد وسائل إدخال الأموال وأن تتغير باستمرار ومن يجتهد يجد في الأمر متسعاً، وقد كشف العدو وسائل التحويلات البنكية ومحلات الصرافة، لكنه أبداً لم ولن يتمكن من إطباق حصاره في هذا الأمر، وإذا تمكنت المقاومة من وضع هذا الملف بيد جهة مختصة فإن النتائج ستكون طيبة ومثمرة بإذن الله تعالى.

وفي هذه التجربة فإن المال كان متوفراً في معظم الأحيان، وكان يتم طلب المزيد منه قبل أن ينفد كل ما في اليد، وكان لحسن الأداء والنتائج المنظورة أثراً في زيادة الدعم من الخارج، كما كانت بعض الأموال تأتي من الداخل من خلال تبرعات تأتي من أشخاص بعضهم لا تربطه بالحركة أية صلة، كما وجدت أمثلة لأموال قليلة تدفعها امرأة عجوز تشترط على من يأخذها أن تصل إلى العمل الجهادي وييسر الله طريق وصولها إلى أيدي المقاومة ويبارك الله في القليل ويحفظ سر أولئك النسوة ويدخر لهنّ الأجر عنده، ويعجب بعض العاملين في الميدان من آثار كبيرة لأعمال محدودة نفذت بأدوات بسيطة، وما علموا أن الذي تبرع بالمال قد أخذه من قوت أولاده وغمسه بإخلاص لله تعالى ومحبة للمجاهدين، وهذه بعض أسرار هذا المال في أيدينا ، ورب درهم كان أنكى في العدو من ألف درهم.

وإذا كانت العناية بالواردات هامة فإن وسائل الصرف لا تقل أهمية، ومن المعلوم أن توابع الجهاد تستهلك أموالاً كثيرة لا تقل عن حاجة الجهاد نفسه، مثل هدم البيوت وإتلاف الممتلكات الخاصة بالمجاهدين أو العناية بالشهداء والأسرى وذويهم، وعلى هذا تنقل هذه المتابعات وأمثالها إلى جهات أخرى في الحركة ويصرف عليها من ميزانيات بعيدة عن تلك المخصصة للمقاومة ذاتها، وتظل قيادة المقاومة تتابع وتتأكد من عدم وجود تقصير في هذا المجال.

وفي الميدان كانت هذه القيادة تراقب كيفية صرف الأموال وتتلقى تقارير دورية من العاملين في الميدان ، ولا يدور الحديث هنا عن تشكيك وعدم ثقة، لكنه العمل المؤسساتي الإداري الناجح الذي يحافظ على كل درهم ويمنع التضارب أو التسيب الذي قد يصيب بعض العاملين ممن ليس لديه خبرة كافية في هذا المجال، وقد دلّت الوقائع وأثبتت الأحداث على أن القادة في الميدان كانوا أشد النفوس عفة وأكثر الأيادي طهارة، ويكتبون التقارير ويفصلون، حتى بالغ أحدهم ذات مرة فكتب ثمن ما يأكلون من الأمور

اليومية فأرسل إليه أميره يبارك هذه القلوب الغضة المؤمنة مؤكداً له أنه يكفيه الخطوط العامة في المصروفات، وأن الأمر لا يعدو كونه تعاون بين الجميع لضمان أفضل استغلال لأموال الحركة.

إن من واجب القيادة أن تتولى بنفسها توفير الأموال، ولا ينبغي بأي حال أن يلقى هذا العبء على كاهل المجاهدين في الميدان وبخاصة أن لا يكلف المطاردون بهذا الجهد إذ يكفيهم ما هم فيه.
وقد تحقق هذا الأمر معظم الوقت وكان هؤلاء القادة في الميدان يصلهم كل ما يحتاجون إليه وفي الوقت المناسب، بحيث يتفرغوا هم لأداء مهماتهم ونشاطاتهم.

ونحن وإن كنا نملك من المال أقل من غيرنا، إلا أن حسن الإدارة والنقاء ونظافة اليد أعطت نتائج أكثر وكانت الثمار مباركة طيبة.

المطاردون طليعة الأحرار:

المطاردون هم عماد العمل المقاوم وهم بمثابة المحور الذي يدور في فلكه كل العاملين المجاهدين، وكأني بهذه الثلة المباركة وقد خرج الواحد منهم في سبيل الله بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء، وهي طريقة في العيش صعبة وقاسية، متعبة ومتواصلة لا يقدر عليها إلا أهل البأس والثبات، وهي درب معروفة النهاية بين سجن أو شهادة إلا أن يشاء الله أمراً غير هذا.
وامتازت "كتيبة الشمال" بكثرة المطاردين فيها وبوجود أسماء لامعة يلاحقها المحتل بكل ضراوة، وكان هؤلاء يتنقلون بين مختلف المدن والقرى تبعا للحاجة أو الوضع الأمني، ويتعاونون على إيصال الخبرات المتنوعة من منطقة إلى أخرى.
ومن الجدير ذكره أن مطاردي القسام بخلاف نظرائهم من الفصائل الأخرى كانوا ملاحقين أيضاً من قبل الأجهزة الأمنية للسلطة الفلسطينية ، حيث كانت تقوم بمراقبتهم ومتابعتهم والتضييق عليهم، ولم يشفع لهؤلاء المطاردين جهادهم وتضحياتهم ولا بحث الاحتلال عنهم، فقد عمدت أجهزة أمن السلطة إلى اعتقال العديد منهم في أوج الصراع مع العدو خلال انتفاضة الأقصى، في حين لا تكاد تجد مطارداً واحداً للقسام لم تقم السلطة باعتقاله قبل مرحلة الانتفاضة مع تعرضه للتحقيق والتعذيب.

وحقيقة أن المقاومة اعتمدت بشكل كبير على ظاهرة المطاردين تشير إلى القضية من زاويتين:

الأولى: إيجابية، إذ أن المطارد يعطي كل جهده ويبذل كل وقته كأنما هو في سباق مع الزمن، ثم إن اندفاعه قوي متواصل لا يتثاقل إلى الأرض ولا تشده زخارفها، ويزداد تعلقه بالله وشوقه للقاء أحبة سبقوه فهو متقدم معطاء في كل الأحوال.

أما الزاوية الثانية: فهي تحمل بعض المعاني السلبية منها: أن المطارد مكشوف للعدو، وأن العيون تلاحقه في كل مكان، وأن تحركاته صعبة وغير آمنة، كما أن كثيراً من الجهد والوقت يضطر لبذله من أجل الحفاظ على حياته، كما أنه يحتاج إلى أماكن إيواء متعددة وإلى مساعدين يوفرون له احتياجاته الشخصية والجهادية، كما أن تعامله مع بعض المجاهدين غير المطاردين قد يكشف أمرهم ويفضح سرهم.

وتفيد التجارب بأن انتقال المجاهد من العمل السري إلى دائرة المطاردة والملاحقة المكشوفة هو قرار يفترض أن يدرس بعناية وأن يتم بحثه بين الأخ المجاهد والجهة المسئولة بناءاً على الواقع الميداني، ولا يترك تقييم الحال وتحديده إلى الأخ المعني وحده، لأن مثل هذا القرار سيغير مجرى حياته ويؤثر عليه وعلى أهله، فلا يقبل تحول البعض إلى مطاردين دون وجود مبرر حقيقي، كما يمكن للقيادة أن تدفع بعض المجاهدين إلى الاختفاء جزئياً أو إلى تغيير نمط حياتهم اليومي، وعندما تكون الضرورة ملحة والقرائن واضحة فعلى القيادة أن لا تتردد في تأكيد انتقال الأخ إلى دائرة المطاردة، وأن تبيّن له أنها ستقدم له كل احتياجاته وتوفر له الدعم المادي والمعنوي الذي يعينه على مواصلة الطريق.

إن أكبر الأخطار التي تصيب المجاهد المطارد شعوره بتخلي إخوانه عنه، أو إحساسه بتقصير القيادة تجاهه أو بما يتعلق بأهله، وإن مما يهدم الثقة وينزع بركة العمل أن يصيبنا ما حلّ بغيرنا من إحساس المطاردين في الميدان من أنهم يدفعون الثمن بينما غيرهم ينعم بين أهله وينال الحظوة والاهتمام، وهذا الأمر إن تحقق فإن القيادة تتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية، إذ أن عليها أن تقنع المجاهدين المطاردين فعلياً بأنها تقدم لهم كل الجهد المطلوب بحسب إمكاناتها، ومطلوب منها أن تديم السؤال عن أحوالهم وظروف حياتهم.

وفي تجربة "كتيبة الشمال" رفع عن المطاردين عبء توفير المال حيث كان يصلهم بحسب حاجة العمل، إضافة إلى التكفل بكل مصاريفهم الشخصية من خلال تخصيص مبلغ دوري للأخ يتصرف به

بما يراه مناسباً، إضافة إلى اهتمام عام بعائلاتهم وبيوتهم، كما أزيح عنهم هم الاتصال الخارجي وما يتبعه من قرارات وسياسات عامة، كما تم تقديم مساهمة هامة في مجال توفير المأوى والملاذ الآمن سواء عبر اختيار أخوة ثقات قدموا بيوتهم للمطاردين، أو من خلال قيام القيادة ببث روح عامة بين أبناء الحركة ومناصريها تحثهم فيها على رعاية المطاردين والعناية بهم وتقديم الخدمات لهم عند الحاجة.

غير أنه تجدر الإشارة هنا إلى أنه يفضل في حق كل مطارد أن يتولى بنفسه تدبير بعض الأماكن الخاصة به للإيواء من خلال من يثق بهم من معارفه الشخصية، فهذه الحالات تكون أكثر أمناً في كثير من الأحيان، ولا يعتمد على ما توفره الحركة فقط، كما يندب له أن يختار مكاناً مناسباً في الجبال أو المناطق البعيدة لا يعرف به غيره يلجأ إليه في الحالات الطارئة أو عند حدوث ضربات أمنية تكشف أماكن الإيواء المعهودة، ويكون قد جهزه مسبقاً بما يكفيه للبقاء عدة أيام متتالية يضطر فيها إلى اللبث في ذات الموقع كما لو أنه في اعتكاف، وفي هذه الحالة كما في مسألة معارف المطارد الشخصيين تتكفل الحركة بكل التكاليف المادية، بل تزيد وتكرم من استضاف أحد مجاهديها في منزله وهذا ما كان.

وفي هذا السياق يجدر تسليط الضوء على فئة من الناس لا يعرف فضلها ويهضم حقها في ذكر دورها في المقاومة وهي ما يمكن أن تسمى بـ "فئة الأنصار" (أولئك الذين آووا ونصروا)؛ وهم أشخاص من أهل الخير فتحوا بيوتهم أمام المطاردين واستضافوهم بين أهلهم وعائلاتهم وقدموا لهم كل ما يحتاجون إليه في أصعب الظروف، دفع بعضهم ثمناً باهظاً بالإعتقال حيناً أو بهدم البيت وتدميره في أحيان أخرى، وسقط آخرون شهداء دفاعاً عن مطارد أخفوه بين ظهرانيهم فكشف العدو مكانه، وحفظ الله سر قوم آخرين فرجعوا مأجورين لم يمسسهم سوء، وغالبية هؤلاء الأنصار كانوا من أبناء الحركة المغمورين ممن تربوا على أخلاق الأخوة الصادقة، وبعضهم من مؤيدي الحركة ومحبيها، وآخرون من أبناء هذا الشعب المعطاء الذين ليس لهم أي انتماء سياسي أو حزبي لكنه الإحساس الوطني الحر مدفوعاً بالعداء الفطري للمحتل والذي يؤدي بصاحبه إلى احتضان من يقاوم وإلى حماية من يجاهد.

وفي المقابل ظهرت بعض النماذج السلبية – على قلتها – والتي كان يرفض فيها أصحابها استقبال المطاردين متذرعين بحجج واهية غير حقيقية، ومتمسكين بأعذار يعلم الله وحده مدى جديتها!! وما أقساه من موقف يطرق فيه المطارد باب أحد إخوانه في ليلة ماطرة فيردّه، فينقلب حزيناً محتسباً وعاذراً أحياناً، وينقلب من رده وقد خسر فضلاً كبيراً. لكن مواقف التضحية والعطاء كانت هي الأعم والأغلب.

الاختفاء المكشوف:

إن صعوبة تحرك المجاهد المطارد هي العقبة الرئيسة التي تعيقه عن إنجاز نشاطاته، وكم تعطلت أعمال وألغيت مهام لهذا السبب.

وإذا كان المطارد مضطراً إلى الاختفاء والتحرك ليلاً، أو المكث فترات طويلة في الجبال والمناطق الوعرة بعيداً عن عيون العدو وأعوانه، فإن واجب الحركة أن تهيئ له أسباباً عملية تعينه في تحركاته خارج الأماكن الآمنة التي يستقر فيها.

وهناك ثلاث وسائل أساسية في هذا المجال وهي:

١. نقل المطارد إلى منطقة أخرى:

وهي طريقة اعتمدت مراراً لدى "كتيبة الشمال" بغرض نقل الخبرات بين المدن المختلفة من جهة، ومن أجل توفير حماية أكبر للمطارد من جهة ثانية، حيث أن وصوله إلى مدينة أخرى يكون فيها غير معروف لعامة الناس ثم لعيون العدو بشكل خاص فإن هذا الجو يتيح له قدراً أكبر من سهولة الحركة التي تخفف من الضغط النفسي المتواصل على المجاهد في مثل هذه الحالات، على أن لا يتم التساهل في الإجراءات الأمنية العامة الأساسية للتحرك، وأهمها ضمان أمن الطريق المؤدية إلى المكان المنشود، وضرورة تجهيز أشخاص ثقات لاستقبال المطارد وذلك بشكل مسبق قدر الإمكان، ومن الجدير ذكره أننا نعيش في مناطق جغرافية متقاربة نسبياً وتضم عدداً محدوداً من السكان بالمقارنة مع دول أخرى وثورات مغايرة، ويترتب على هذا أن لا يدخل في نفس المطارد أن له تمام الحرية والأمن لمجرد انتقاله مؤقتاً إلى مكان آخر بعيد عن سكناه، ويبقى من الممكن أن يتعرف عليه شخص ما فينكشف أمره، ومن التجربة العملية فقد وقعت بضع حالات كهذه كانت نتائجها سلبية بلغت حد استشهاد عدد من المطاردين أو اعتقالهم.

٢. تغيير معالم الشخصية:

والمقصود به القيام ببعض الإجراءات على الملامح الشخصية بحيث يصعب التعرف على صاحبها من النظرة الأولى، وكلما زاد الإتقان في التمويه قلت نسبة اكتشاف الشخص حتى مع التدقيق والفحص.

وهي خطوات عديدة بعضها سهل بسيط لكنه يحدث فوارق واضحة، ويكون التركيز على الوجه الذي به يُعرف الإنسان ويُميز عن غيره، فهناك تغيير قَصَّة الشعر وطوله، أو تغيير لونه أو حلاقة

جزء كبير منه بحيث يخالف ما اعتاد عليه الإنسان، كما يمكن الاستفادة من استخدام "الشعر المستعار" وهو موجود ومتوفر وتم التعامل به مرات عديدة، وهناك حلاقة الذقن والشارب، أو استخدام النظارات ووضع الطاقية أو الكوفية، ثم التغيير والتبديل في نوعية الملابس وأشكالها، مع مراعاة عدم المبالغة أو استخدام آليات وأدوات تخالف العرف والعادة في بلادنا، والانتباه إلى حالة الطقس والوقت بحيث لا يبدو الإنسان مناقضاً لما هو مألوف أو مخالفاً لما هو منطقي.

وفي بعض الحالات يمكن استخدام بعض مواد تفتيح وتبييض البشرة، وربما تستعمل بعض الملابس النسائية أحياناً، وهي جملة من الأفكار والإبداعات التي كانت أثناء العمل والتي يمكن الإضافة إليها والبناء عليها إذا تم الاهتمام بالمسألة، وهي قضية تستحق أن تبذل فيها جهود وتستثمر فيها أموال لما لها من أهمية عملية تفوق ما يظنه الكثيرون، وقد كانت هناك محاولة عملية لتخصيص شخص خبير في عمليات التجميل والتمويه لكن لم يكتب لها النجاح على أرض الواقع بسبب مجموعة من الظروف الميدانية.

٣. تزوير الوثائق:

وهي عملية غاية في الأهمية وهي ضرورية لاستكمال حلقات "الاختفاء المكشوف"، وهو أمر تم الاعتناء به فعلاً وتجهيز الآلات والأدوات اللازمة له، فكان الأداء مميزاً بصورة عامة، والحاجة هنا ماسة لتزوير بطاقات الهوية الشخصية ورخص القيادة أو بعض بطاقات الانتساب لجمعية ما أو نقابة أو جامعة، وقد تكون حاجة لإثبات انتماء إلى بعض أجهزة السلطة الفلسطينية.

والفكرة تحتاج إلى شخص صاحب خبرة يتمتع بقدر عال من الثقة وحسن التصرف والحفاظ على السرية، وأن يكون بعيداً عن العيون والمراقبة، ويجهز له مكان محدد ويزود بعدد من الأجهزة المتطورة اللازمة، من ذلك الحاسوب والطابعات الملونة المعروفة بـ "الليزر" ويمكن الحصول عليها رغم أنها تخضع لرقابة أمنية عادة ويمنع شراؤها من قبل العامة، والأمر يتطلب إنتاج مجموعة من الأختام وماكينة "الجلاتين"، وبعض برامج الكمبيوتر المتخصصة بهذا الشأن، ويضاف إلى ذلك كاميرا تصوير "فوتوغرافية"، ويجب الانتباه إلى أن السلطات الأمنية في كل دولة تعمد إلى تغيير في أشكال الوثائق الرسمية وتعديل على الأختام المستخدمة، وربط ذلك كله بتواريخ محدودة يعرفها أهل الاختصاص.

وخلاصة الأمر أن هذا الجانب يستحق التركيز عليه وتخصيص الأموال اللازمة له.

آليات التجنيد:

منذ نشوء حماس كانت بنيتها التنظيمية سرية ولم يكن لها مكاتب أو مقرات رسمية، على الرغم من وجود شخصيات دعوية وسياسية جماهيرية تعمل بصورة علنية، وكان انضمام عناصر جديدة للحركة يتم بسهولة ويسر في أغلب الأحيان، حيث الحركة موجودة ومنتشرة في كل المناطق، ولها رجال معروفون في مناطق سكناهم، وكل من يرغب بالانضمام إلى حماس يتوجه إلى

شخص يعرفه ويثق به فيلقى مراده لديه. كما أن كوادر حماس ونشطائها كانوا يقومون بدورهم في الدعوة وإلى إضافة عناصر جديدة للحركة وضمهم إلى صفوفها. وقد سجن عدد كبير من أبناء الحركة بتهمة قيامهم بتجنيد آخرين، ودفعوا جزءاً من أعمارهم في الأسر نتيجة لذلك.

لكن الوضع كان مختلفاً فيما يتعلق بالعمل الجهادي المباشر في الحركة، وكان الواقع أكثر تعقيداً وآليات التجنيد أشد صعوبة ونتائج ذلك أكبر خطراً.

وهذه المعضلة برزت منذ انطلاقة الكتائب في الضفة الغربية في أوائل التسعينيات وتواصلت بعد ذلك حتى الآن، في حين تغيرت الصورة بشكل كبير في قطاع غزة بسبب ظروفه المختلفة خاصة بعد الانسحاب (الإسرائيلي) الكامل من أراضيه وتحرك حماس بشكل علني مباشر هناك.

كما أن قيام الحركة بعملية فصل شبه تامة بين الجناحين السياسي والعسكري زاد من إشكالية التجنيد بحيث تحولت الكتائب في أحيان كثيرة إلى تنظيم سري داخل البنية التنظيمية السرية للحركة.

وصار القادة السياسيون والدعاة المشهورون وحتى المسئولون التنظيميون يقومون في كثير من الأحيان برد من يسألهم عن كيفية الانتساب للكتائب حتى لو عرفوا صدقه وأمانته، ومن باب أولى أن لا يقوموا هم بتجنيد عناصر جديدة للعمل الجهادي إلا في حالات خاصة محدودة جداً. ازدادت في مرحلة انتفاضة الأقصى. والسبب في ذلك يعود إلى دوافع أمنية أولاً، ثم لعدم معرفة بعض هؤلاء القادة كيفية إيصال الأخوة الراغبين في العمل الجهادي إلى الجهات المختصة فعلاً.

وحتى نكون صرحاء صادقين مع أنفسنا فقد كان بعض الأخوة ينطلقون في مواقفهم تلك من باب الحرص الشخصي والخوف من دفع ثمن باهظ إن هو وضع قدمه في هذا الطريق.

وهكذا يمكن القول من خلال التجربة العملية للحركة خلال السنوات الماضية أن معظم حالات التجنيد للكتائب كانت تتم عبر المعرفة الشخصية، بحيث أن المجاهد يقوم عادة بتنظيم أشخاص من بيئته المحيطة به، ويشمل ذلك بعض أهله وأصحابه أو من يسكن في حيه ومنطقته أو من جمعته به مقاعد الدراسة في الجامعة أو التقى به في فترات سجن سابقة لدى الاحتلال.

وهذه طريقة طبيعية لسير الأمور لكنها تحتوي على جانب سلبي من الناحية الأمنية، لأن الاحتلال صار عارفاً بها وسرعان ما يبدأ يحلل ويبحث ويربط الخطوط ويجمع النقاط من البيئة المحيطة بالمجاهد خاصة إذا كان مطارداً.

وفي حالات قليلة ونادرة كان بعض أبناء الحركة يصلون إلى الجهة المختصة بمتابعة العمل الجهادي عبر الخطوط التنظيمية الروتينية في الحركة ، وذلك إذا وصلت رسائلهم أو رغباتهم إلى شخص معني بالعمل الجهادي ممن له موقع تنظيمي داخل صفوف حماس، فيبادر إلى اقتناص الفرصة وترتيب

اتصال خاص لهؤلاء الأخوة لربطهم بالعمل الجهادي.

وهذا الأسلوب لا يخلو أيضاً من السلبيات إذ قد يزداد عدد الأخوة الذين يعرفون عن انتساب مجاهد ما للعمل حتى قبل أن ينفذ شيئاً على الأرض، وهذه ثغرة في العمل لها مخاطر.

وفي بعض الحالات كان المجاهد يصاب بمفاجأة كبيرة حين تواجهه استخبارات العدو في أقبية التحقيق باعتراف يأتيه من حيث لا يحتسب، حين يرى أخاً من خارج العمل الجهادي قد ذكره، لمجرد أنه كان أحد الوسطاء في إيصاله للمجاهدين بحكم موقع ذلك الأخ في صفوف الحركة.

كما وجدت آلية أخرى لدخول العمل الجهادي تمثلت في تجنيد بعض الإخوة خارج حدود الوطن أثناء تلقيهم دراستهم الجامعية في الخارج في أغلب الأحيان، وهذه طريقة أكثر أمناً من ناحية من يتولى عملية التجنيد لوجوده بعيداً نسبياً عن يد العدو وعينه، لكن سلبياتها تأتي في الخطوة التالية وهي ربط المجاهد الجديد بالجهة المختصة داخل الوطن، والحقيقة المؤسفة أنه تكرر في أكثر من مرة قيام الأخوة خارج الوطن بإرسال بعض من تم تجنيدهم هناك وتوجيههم للاتصال بشخصيات سياسية أو دعوية مشهورة في مناطقهم الأصلية وغالباً دون التنسيق مع هذه الشخصيات، مما يعيدنا إلى إشكاليات الآلية الأولى في التجنيد، حيث يتفاجأ بعض هؤلاء الأخوة في الداخل حين يأتيهم شخص من الخارج وقد تدرب وتهيأ للعمل الجهادي، فيقومون برده وعدم التجاوب معه، أو محاولة وصله بالجهة المسئولة عن العمل الجهادي في المنطقة فتحدث إرباكات وتداخلات يكون لها ما بعدها.

ومن هنا نرى أن الحركة لم تعتمد على آلية محددة في تجنيد العناصر للعمل الجهادي، وتركت الأمور للتقديرات والاجتهادات الشخصية في أغلب الأحيان، ونوضح هنا بأن عدم اعتماد آلية ثابتة ودائمة في التجنيد هو أمر ايجابي من الناحية الأمنية إذ يصعب على العدو عملية المراقبة والمقارنة والاستنتاج، لكن الوجه الآخر لذلك يسبب إعاقات في العمل ويحول دون ضم عناصر جديدة ترغب وتبحث عن من يجندها.

كما أنه من المهم معرفة وإدراك أنه ما من وسيلة تخلو من سلبيات، وأن العمل الجهادي برمته ترافقه نسبة معينة من المخاطر والتي يجب التعايش معها مع البحث عن كل طريقة تخفف وتقلل من هذه النسبة، لأن الذي يتوقع الوصول إلى طريقة كاملة ثابتة آمنة بشكل مطلق وفعالة في عملية التجنيد فإنه يبحث عن المستحيل عملياً، وستؤدي به المبالغة في حساباته الخيالية إلى الوقوف مكانه وعدم التحرك خطوة واحدة للأمام، والنتيجة ستكون سلبية وضارة أكثر من استخدام أي أسلوب في التجنيد والتنظيم.

ونحن هنا لسنا بصدد تحديد الآلية الأنسب في عملية تجنيد العناصر للمقاومة، لكن بعض الاقتراحات قد تفيد في منهجية التفكير في المسألة، من ذلك وجود أو إيجاد بعض المجاهدين الذين يمكن تسميتهم "شبه المطاردين"، بمعنى أنهم ليسوا من ضمن الأخطر حسب تقييم الاحتلال والذين هم ملاحقون ومستهدفون بشكل دائم ومكثف بحيث تصبح حركاتهم واتصالاتهم صعبة وخطرة في آن واحد.

كما أن "شبه المطاردين" هؤلاء لا يعيشون حياة طبيعية يسهل فيها اعتقالهم من قبل الاحتلال، إلا أن ذلك لا يمنعهم من التحرك والتجول في أكثر من منطقة وقيامهم بمهمة التجنيد والبحث عن عناصر جديدة وضمهم لصفوف المجاهدين وربط الخيوط وتسهيل التواصل وحتى المساهمة في الإعداد والتدريب، وبحسب التطورات وعند الحاجة يمكن أن ينتقل هؤلاء المجاهدين إلى حياة المطاردة الكاملة، فيأتي مكانهم أخوة جدد في سلسلة متكاملة تتيح استمرار العمل وتتابعه مع أكبر قدر من الجمع بين الفاعلية والعامل الأمني.

ويتاح لمسئول كبير في التنظيم أن يتولى المهمة فيضرب بقبضة يده على صدره معلناً استعداده وجاهزيته للتضحية، وهو بمعرفته لأعداد كبيرة من العناصر في كل المناطق وبحكم خبرته وعلمه بقنوات الاتصال الحركي يمكنه الوصول إلى الأشخاص المناسبين والتعامل معهم بالطرق المناسبة، كما أنه يستطيع تجاوز العديد من الدرجات التنظيمية التي تعيق في مثل هذه الحالات.

وبعد هذا الإيضاح والتعليل لهذه المعضلة في العمل المقاوم لا يُستغرب فشل بعض العناصر المخلصة من أبناء الحركة خاصة البعيدة عن المركز في الانضمام إلى العمل الجهادي رغم الحرص والبحث والاستفسار والسؤال الذي قد يصطدم بتردد أو جهل من أخ ما يحتل موقعاً جزئياً في الهيكلية التنظيمية للحركة، فتصاب هذه العناصر بالإحباط أحياناً فتقعد، أو يرتجل بعضهم فيجتهد بعمل فردي قد يبدع فيه وقد يفشل، ويختار آخرون العمل مع حركات وتنظيمات أخرى تعمل بانفتاح أكبر وإجراءات أمنية أقل سلامة، والأمر في حالة أنصار الحركة ومؤيديها غير الملتزمين معقد أكثر، وعند شخص عادي لا تربطنا به أي علاقة لكن حسّه الوطني الصادق يدفعه للعمل معنا فالأمر أبلغ صعوبة وأشد تعقيداً.

وكم خسرنا من جهود وطاقات بسبب هذه القضية، وكم فقدنا من استعدادات وإمكانات لدى بعض هذه العناصر كان بالإمكان إضافتها إلى مسيرة المقاومة والجهاد المنظم.

لذلك فإن مسألة آلية التجنيد تحتاج إلى دراسة معمقة وإعادة تقييم لوسائلها بصورة مستمرة، وهي تستحق بذل مزيد من الجهد لأنها تتعلق برفد المقاومة بالعناصر الجديدة التي تضمن استمرارها وتواصلها وتكاتف جهودها.

وهناك جانب آخر في هذا الباب يجدر الانتباه إليه وأخذه بعين الاعتبار، وهو واجب على القيادة مهما كان اندفاع الأفراد واستعدادهم للتضحية، وأساسه المراعاة عند القيام بالتجنيد للعمل الجهادي بأن لا نركز على عائلة محددة مما يؤدي إلى دفعها تضحيات كبيرة بحيث تفقد عدداً من أبنائها، والمقصود هنا هي العائلة الصغيرة، إذ لسنا معنيين باستشهاد اثنين أو أكثر من الأشقاء أو اعتقالهم والحكم عليهم بالسجن المؤبد وما يقاربه، ولا بأس من مراعاة العائلة التي لها ابن واحد فقط فنحرص على عدم فقدانهم له، وهذا أمر تتعامل به الكثير من الدول حتى تلك التي تعتمد التجنيد الإلزامي، وبما أن صراعنا مع الاحتلال ليس معركة مفتوحة بشكل مطلق وإنما هي جولات وصولات فقد صار هذا النهج مقبولاً وله وجاهة في القول.

ورغم أن التجارب أظهرت لنا العديد من العائلات المجاهدة التي قدمت أكثر من شخص من أبنائها بين شهيد وأسير، فإننا ملزمون بالانتباه إلى المسألة والتعامل على أساسها قدر الإمكان، وإذا كان إصرار من أبناء عائلة ما على المضي في درب الجهاد فلعل أحداً لن يتمكن من منعهم من المشاركة، وإذا أراد الله بقوم مزيد فضل وبركة فلا راد لقضائه.

وأخيراً فإنه حري بنا أن لا نترك مسألة التجنيد قبل أن نتطرق إلى تحذير بالغ الأهمية وهو ما يعرف بـ"التنظيم الوهمي" حيث تقوم مخابرات العدو بشكل مباشر أحياناً وعن طريق عملائها في معظم الحالات بالبحث والتحري عن عناصر الحركة الذين تبدو عليهم إشارات الرغبة في العمل الجهادي، ثم ترسل إليهم أشخاصاً من طرفها فيقومون بإيهام هذه العناصر بأنهم نشطاء في العمل الجهادي داخل حماس، فينخدع بعض الأخوة ويتبعونهم، وقد تقوم المخابرات بتزويدهم ببعض المال أو السلاح في أحيان محدودة ثم تطلب منهم تجنيد آخرين معهم، وتتابع تحركاتهم وتنسقها وتتحكم بها بصورة أو بأخرى، ثم تصبر عليهم وتمد لهم الحبل حتى يقعوا في شراكها ويتم اعتقالهم قبل تنفيذهم لأي عمل فعلي ضد الاحتلال، وقد حدثت هذه الخديعة أكثر من مرة وفي أكثر من موقع، حيث تستغل المخابرات شوق أبناء الحركة للجهاد وتعلقهم بالعمل المقاوم.

ولهذا يتحتم على أبناء الحركة إبداء مزيد من اليقظة والفطنة وأن لا تدفعهم عواطفهم الصادقة نحو الوقوع في مكر الاحتلال، فلا يقبلوا التعامل مع أشخاص مجهولين جاؤوا إليهم بطريقة مفاجئة وغامضة ومشبوهة، وينبغي الحذر من الاستجابة للدعوة إلى العمل الجهادي التي قد تأتي عبر الاتصال الهاتفي أو من خلال شبكة الإنترنت، وذلك عبر أشخاص يقدمون أنفسهم أنهم من خارج الوطن أومن قطاع غزة وهو الأسلوب والإدعاء الذي كثر التعامل به مؤخراً.

ومهمة الحركة أن تنشر الوعي في صفوفها وأن توضح لعناصرها هذه المخاطر.

وفي "كتيبة الشمال" التي عرفناها فشل الاحتلال في الدخول إلى الخطوط التنظيمية، ومما ساعد في صده وكشفه وجود عدد من القادة التنظيميين على رأس العمل الجهادي المقاوم في مرحلة انتفاضة الأقصى خاصة في السنوات الأولى، وقد سجلت بضع محاولات للاختراق بهذه الطريقة قامت بها مخابرات العدو، لكن عناية الله ثم اليقظة والخبرة وقوة التنظيم أدى إلى كشفها وإفشالها في مهدها.

الأرشيف خطأ قاتل:

العمل الجهادي ليس هيئة خيرية ولا جمعية ثقافية ولا مؤسسة تربوية، ولا ينبغي التعامل معه على أنه شي من ذلك خاصة فيما يتعلق بإدارة هذا العمل وترتيب العاملين فيه أو تسجيلهم في وثائق مكتوبة، وينبغي أن لا يدفعنا الحرص على منهجية العمل إلى الوقوع في أخطاء غير مقبولة، وأن لا نتذرع بالتخطيط لكي نبرر بعض التصرفات اللامسئولة والإجراءات المرفوضة، فنحن نتحدث عن ميدان قد يكلف الناس أرواحهم أو أعمارهم تأكلها السجون.

وحين يأتمنك إخوانك على أنفسهم ويسلموا لك قيادتهم في درب الجهاد فالمسؤولية عليك كبيرة، والواجب عليك أن تحفظ سرهم كما تحفظ دمائهم.

وينبغي أن نستحضر دوماً أن عمل حماس المقاوم في الضفة الغربية له ظروف خاصة تتطلب إجراءات استثنائية، وان تستمر هذه السياسة طالما الاحتلال يسيطر على كل المواقع وبإمكانه الوصول إلى كل المناطق، ولا توجد بقعة آمنة بشكل كامل، وكل مجاهد يعمل في هذه الساحة معرض للاعتقال مهما اتخذ من الإجراءات الأمنية، أو ظن أنه في مأمن وخارج إطار الاشتباه به من قبل سلطات الاحتلال، ولا يدعي أحد أنه قادر على التصرف بشكل سليم لدى حدوث أي طارئ.

وبعد هذا التوضيح فإنه لا حجة لأحد أن يحتفظ بأرشيف مكتوب يدون فيه أسماء المجاهدين وألقابهم أو أي تفاصيل عنهم، أو هيكلية العمل، كما إن الاحتفاظ بالأرشيف داخل جهاز الحاسوب لا يغير من الأمر شيئاً، واستخدام الشيفرات في ذلك أمر مشكوك في ضمان سلامته.

وقد ضغطت المخابرات الصهيونية بشدة على بعض قادة الحركة أثناء التحقيق معهم حول العمل المقاوم في انتفاضة الأقصى من أجل الوصول إلى أرشيف مكتوب، ولكن دون جدوى لأن الحركة لم تحتفظ بأي معلومات عن العاملين بطريقة مكتوبة ومسجلة.

ومن باب الاستفادة من التجربة وأخذ العبرة من الأخطاء نذكر بأن هذا الخطأ القاتل قد وقعت الحركة فيه سابقاً في الضفة، ففي إحدى الحالات تم ضبط الأرشيف في منطقة شمال الضفة مع أخ كان يظن أنه مغمور ولا يعرفه أحد مما أدى إلى كشف عدد من المجاهدين واعتقالهم قبل أن يقوم أكثرهم بأي عمل ميداني، ثم تكرر ذلك في منطقة وسط الضفة حيث ضبط الأرشيف مع أخ مطارد مكشوف كان يظن أن باستطاعته التصرف لدى كل طارئ، فكشفت أسرار واعتقل عدد من المجاهدين ممن دوّنت أسمائهم في الأرشيف، حتى أن بعضهم لا يعرف بالأمر كونه كان مجرد اسم مرشح للعمل لاحقاً ولم يراجعه أحد بشكل فعلي.

وإذا كان المنطق والتجربة يؤكدان عدم صوابية مثل هذا الإجراء، فهل تبقى لأحد حجة إذا وقع في هذا الخطأ القاتل!!.

مشاركة المرأة في المقاومة :

اشتراك النساء في الجهاد في سبيل الله وفي أعمال المقاومة المباشرة يتطلب بحثه وتوضيحه من ثلاث زوايا رئيسية: الجانب الشرعي وموقف الإسلام من الأمر مع الاستفادة من التجربة الإسلامية في العصور الأولى، ثم توجه حماس في هذا الشأن والسياسة العامة المتعلقة به، وبعد ذلك طبيعة الواقع وكيفية تطبيق الرؤية الشرعية والسياسة الحركية من خلال التجربة الميدانية في انتفاضة الأقصى.

١. أما النظرة الشرعية:

فتفيد بجواز مشاركة المرأة في القتال؛ إذ أن حقها في المساهمة في الجهاد مكفول في شرعنا، وهذا ما دأب عليه خيار المسلمين في عهد النبوة وما تلاه من أجيال السلف الصالح، فكانت سمية رضي الله عنها أول شهيدة في الإسلام، وشاركت السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فيما يرويه البخاري رحمه الله في نقل الماء وسقي المجاهدين في المعركة، وهذه أم عطية رضي الله عنها قد غزت مع الرسول صلى الله عليه وسلم سبع غزوات تصنع الطعام للمقاتلين وتخلفهم في رحالهم وتداوي جرحاهم وتقوم على المرضى، وكذلك فعلت أم أيمن رضوان الله عليها في أحد فأصيبت بسهم رماه المشركون.

ورغم أن المرأة غير مكلفة بالجهاد إلا في حالات الضرورة التي يدخل فيها العدو أرض المسلمين نجد عدداً من الصحابيات رضي الله عنهن يشاركن في القتال الفعلي في غير هذه الحالة مثل أم عمارة رضي الله عنها التي شاركت في غزوة أحد وكانت من القلائل الذين ثبتوا يدافعون عن الرسول صلى الله عليه وسلم حين ارتبك صف المسلمين وهي تحمل الترس وتضرب بالسيف حتى أصيبت بثلاثة عشر جرحاً بقيت تتداوى من آثارها مدة عام كامل، والرسول صلى الله عليه وسلم ينظر إليها ويمتدح فعلها ويبارك جهادها.

وهذه صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها تقتل رجلاً من يهود قريظة بيدها حين رأته يقترب من مكان النساء في غزوة الخندق. أضف إلى ذلك دور المرأة في التحريض على الجهاد وحث الزوج والأبناء عليه، ثم الصبر والاحتساب في حالة فقدان قريب لها في المعركة.

٢. **أما السياسة العامة للحركة:**

في مسألة اشتراك المرأة في القتال، كانت الحركة لا تمنع ذلك اعتمادا على الموقف الشرعي الواضح الذي يجيز لها أن تشارك، لكنها في الوقت نفسه لا تدفع باتجاه إدخال النساء في ميدان المعركة ولا تشجع الأخوات على الانخراط في العمل المقاوم المباشر.

ومرد ذلك هو مراعاة طبيعة صراعنا مع الاحتلال، إذ أننا لسنا في مرحلة الحرب المفتوحة بصورة مطلقة، ولسنا ملزمون باستدعاء كل عناصرنا للمشاركة في القتال، وهذا في حق الرجال وهو بالنسبة للنساء أكثر وضوحاً ومنطقاً، كما أن اشتراك المرأة في الجهاد فيه شيء من الحرج لدى بعض الأوساط الاجتماعية ورفض أكبر لدى قطاعات أخرى من المجتمع الفلسطيني.

وحين يؤدي عمل المرأة في المقاومة إلى نيلها الشهادة فإن ذلك يكون مقبولا رغم صعوبته، وهو مجال للفخر والاعتزاز في البيئة المحيطة بها، بينما تكون الأمور أكثر صعوبة وتعقيداً إذا كانت النتيجة وقوع المرأة في قبضة الاحتلال ودخولها إلى السجون خاصة إذا تلقت حكماً عالياً من قبل الاحتلال، فقد كانت قضية الأسيرات الفلسطينيات همّاً دائماً لدى ذويهم وعائلاتهم، وجرحاً نازفاً لدى عموم الشعب، ومعضلة تحتاج إلى حلّ من قبل المقاومة.

ثم إن في رجال الحركة وشبابها خير وبركة تغني عن استخدام النساء في المقاومة المباشرة، غير أن ذلك كله لا يوصل إلى حد المنع المطلق للمرأة، ويبقى التعامل مختلفاً مع حالات نادرة، قد تصر فيها امرأة على المشاركة في المقاومة وتعزم على ذلك وتخشى أمام تصميمها أن تتصرف بشكل فردي تنقصه الخبرة فيكون الضرر أكبر والمفسدة أشدّ، أو يدفعها حرصها على ترك بصماتها في المقاومة إلى التوجه إلى جهات تنشد ضالتها لديها، في الوقت الذي نعلم فيه أن تلك الجهات هي أقل التزاماً من الناحية الشرعية، أو أضعف أداءً من الناحية الأمنية، أو أقل شأناً من الناحية الفنية والعملية.

كما أن للمرأة أن تشارك في صور أخرى للجهاد هي أقرب إلى طبيعتها وقدراتها، مثل بعض أعمال الاتصال ونقل الرسائل، أو الاهتمام بعائلات الشهداء والأسرى، مع التأكيد على دور المرأة في حث أقاربها على الجهاد وصبرها على نتائجه التي قد تصيبهم، وقد تدعم بالمال أو تعين زوجاً أو أخاً على إيواء مجاهد ورعايته، وهي صور من الجهاد محمودة ومأجورة، وما قد يرافقها من الأذى والضرر محدود يمكن تحمله واستيعابه، ومن حيث الواقع فقد تم التعامل مع هذه القضية وفق الرؤية العامة التي أشرنا إليها، فلم يتم السعي لتجنيد النساء في العمل المقاوم بل كانت تَرُد كل من تطلب ذلك وتبذل جهوداً لإقناعها بالعدول عن الأمر وتوجيهها نحو مجالات أخرى من العمل الإسلامي.

وفي حالة نادرة نفذت إحدى الأخوات عملية جهادية تحت راية فصيل آخر بعد أن عرفت أن حماس لن تتعامل معها في ظروف معقدة في تلك الفترة. وفي حالات أخرى معدودة شاركت بعض النساء بصورة نسبية في عدد من الأعمال الجهادية في أوضاع خاصة. كان فيها توجه وطلب واستعداد من قبل أولئك النساء ابتداءً. وليس ضمن سعي الحركة بشكل منظم ومسبق للتجنيد أو التخطيط لذلك.

أفكار رائدة .. ولكن!!

كانت ظروف العمل المقاوم في انتفاضة الأقصى شائكة، وكانت الإمكانات محدودة لدى حماس خاصة مع بدايات العمل والتي كانت بمثابة إعادة إحياء لبناء تم تدمير معظم أركانه وتخريب جل موجوداته. وذلك بسبب الضغوط الأمنية التي مارسها الاحتلال من جهة وأجهزة أمن السلطة من جهة أخرى.

ومع ذلك تمكنت حماس من الترميم السريع، وتتابعت الخطوات على الأرض وكانت النتائج مميزة وملحوظة. إلى أن جاءت فترة التراجع عقب عملية السور الواقي التي نفذتها قوات الاحتلال عام ٢٠٠٢م. وكان من نتائجها الاحتلال الكامل لكافة المناطق التي كانت تخضع للسلطة الفلسطينية سابقاً. واستشهد عدد من القادة واعتقل آخرون إضافة إلى ضرر بالغ أصاب البنى التحتية للمقاومة.

وبطبيعة الحال توقفت مجموعة من المشاريع والأفكار التي كان يُعدّ لها سابقاً. وفيما يلي بعض تلك الأفكار التي لم يكتب لها النجاح لأسباب فنية أو موضوعية أو خارجة عن الإرادة أحياناً. وهي تمثل نماذج مما يمكن ذكره في هذا المجال:

❖ ملاجئ محصنة:

برزت الحاجة لهذه المسألة مع بداية وجود ظاهرة المطاردين من قبل قوات الاحتلال. وكانت عملية الإيواء تتطلب جهوداً كبيرة. ولذلك اتجه التفكير إلى بناء ملاجئ آمنة ومحصنة ومستورة داخل بعض المباني الجاهزة أو تلك التي سيتم إنشاؤها ابتداء. وهي أسهل من حيث إمكانية تجهيز أماكن خاصة بداخلها. وكان الهدف من هذه الملاجئ المتقنة أن تعطي للأخ المطارد فرصة أخيرة للنجاة في حالة تمكن قوات الاحتلال من الوصول إلى المكان الذي يتواجد فيه. سواء كان ذلك بإيجاد ملجأ آمن أو توفير طريق للخروج من المكان. وبما أن المشروع يتطلب قدراً من المهارة والخبرة فقد تم الاتصال بعدد من المهندسين. إضافة إلى محاولة الاستفادة من تجارب تمت في مناطق أخرى خارج فلسطين. وهذا كان بالتعاون مع الحركة في الخارج. وتم رصد الأموال اللازمة لهذا المشروع.

لكن الفكرة لم تخرج إلى حيز التنفيذ بسبب صعوبات فنية تبعتها إعاقات أمنية متلاحقة. ويبقى الأمر ضرورة في كل حين.

❖ توفير السلاح بكميات مناسبة:

يبقى السلاح ركنا أساسيا لكل حركة مقاومة إذ لا معنى للعمل دونه، كما يصبح التخطيط للمستقبل من غير طائل إذا لم تتوفر قنوات دائمة للإمداد بالسلاح، وقد كانت هذه إحدى العقبات الأساسية في عمل حماس في الضفة الغربية خاصة في بدايات انتفاضة الأقصى، إذ إن أي نقص في السلاح يعني بالضرورة عدم القدرة على تجنيد عناصر جديدة، والتراجع أحياناً عن تنفيذ بعض الأعمال بسبب هذا النقص.

وكان لأزمة السلاح عدة أبعاد أهمها: إيجاد مصدر آمن ودائم يزود الحركة بما يلزمها، والأمر لا يعدو أن يكون عبر جهات لها علاقات داخل فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م، وترافقها مخاطر حقيقية إذ إن معظم هذا النوع من المزودين لا يتعامل من منطلقات وطنية، وإنما من أجل مكاسب شخصية ومادية في الدرجة الأولى، وهذا يجعل التواصل مع هؤلاء محفوفاً بالإشكالات والتي أقلها الاستغلال المادي المبالغ فيه، وأشدها أن يكون لهذه المنابع علاقات مع استخبارات العدو التي تخترق هذه البيئة بشكل سهل وبسيط، ثم تبدأ هي تزود أو تراقب مصير كل قطعة سلاح وإلى أين تصل، وربما تضع في داخلها أجهزة للتنصت والتعقب، أو مواد متفجرة تدمر السلاح وتؤدي إلى إصابة من يحاول استعماله أو حتى قتله.

أما المصادر الأخرى للسلاح والتي تعاظمت بعد دخول السلطة إلى المدن الفلسطينية فهي جهات لها علاقات مع أجهزة السلطة الأمنية في معظم الحالات، وهي تتردد في التعامل مع أبناء حماس على وجه الخصوص بسبب المتابعات والملاحقات الأمنية التي تقوم بها السلطة ضد حماس، فتجد بعض هذه المصادر تقوم بالتبليغ عن أبناء حماس عند أجهزة السلطة الأمنية أو أنها تفضل أن تبيع فصائل أخرى لا تسبب لها أضراراً أو مضايقات، وهذا الواقع يضطرك إلى دفع أموال أكبر وأثمان أغلى مقابل كل قطعة سلاح، وذلك من أجل إغراء المصدر المزود وحثه على التعامل مع حماس، ورغم أن الحركة استطاعت توفير الكمية الأساسية لعناصرها وأفرادها إلا أنها كانت تفكر بأبعد من ذلك بحيث تنتهي كلياً من هذه المعضلة مستقبلاً.

وكانت الفكرة تتعلق بالسلاح الفردي الخفيف على وجه الخصوص، وكان التوجه على مسارين:

المسار الأول: محاولة تصنيع ما يلزم وكذلك إصلاح ما يتلف، وقد يبدو هذا الأمر بعيد المنال خاصة في تلك المرحلة غير أن كثيراً من الإنجازات الهامة تبدأ بفكرة وبكثير من الجهد تخرج إلى أرض الواقع.

وهذا المشروع ليس خيالياً، خاصة إذا علمنا أن الأفغان كانوا يصنعون كثيراً من سلاحهم وما يزالون رغم فقرهم وقلة إمكاناتهم، وتم البحث عن أشخاص فنيين ومهنيين الذين هم أساس مثل هذا الأمر، وجرت محاولات للاستفادة من القدرات خارج الوطن، وكانت بضع خطوات قليلة، لكن الأمر لم يصل إلى مرحلة التنفيذ وبقيت القضية مجرد فكرة لعل أحداً ما تتوفر له ظروف وإمكانات فترى النور على يديه.

المسار الثاني: فقد كان من خلال تهريب السلاح عبر الحدود مع الأردن، حيث تتواجد هناك كميات أكبر وأثمانها أقل بكثير مما هو موجود داخل فلسطين، غير أن الحدود الأردنية مغلقة عموماً والتشديد عليها كبير، وطبيعة الأرض والسكان في المنطقة الحدودية من الطرفين تختلف كثيراً عن مثيلاتها على الحدود بين غزة ومصر، ومع ذلك جرت بعض محاولات للاتصال والبحث عن إمكانية استخدام هذه الوسيلة، لكن الأمر لم ينفذ ولم ينجح لعدم وجود الأشخاص المناسبين لتطبيق ذلك.

- **خبير تمويه:**

ذكرنا أهمية توفير وسائل تغيير ملامح المطارد كي تساعده على التحرك بسهولة، ومما لا شك فيه أن هذا المجال متقدم جداً بحسب التطور الحضاري اليوم، وهذا جعل إمكانية نقل هذه الخبرات ضرورة بدلاً من الاعتماد على الوسائل البدائية البسيطة المتوفرة داخل فلسطين، ومن يراقب الأعمال الفنية في التمثيل وصناعة الأفلام يرى مدى تطور هذا المجال، ومن هنا برزت فكرة إحضار خبير من الخارج، لكن الفكرة لم تنجح، وتم الاتفاق على إرسال شخص يتدرب على هذا الفن في الخارج.

ولكن الأمر لم يطبق عملياً بسبب موجة من الاعتقالات المتلاحقة التي أعاقت المشروع، لكن الفكرة تستحق إعادة المحاولة بين الحين والآخر.

❖ صواريخ القسام:

منذ أن تمكنت طواقم الهندسة التابعة للكتائب من إنتاج صاروخ القسام في غزة، بدأ التفكير في نقل تلك التقنية إلى الضفة رغم الصعوبات والظروف المختلفة بين الحالتين، ولأن الأثر الذي يمكن أن تحدثه مثل هذه الصواريخ إذا استخدمت انطلاقاً من الضفة هو أكبر بكثير مما هو عليه الحال في قطاع غزة، وما يمكن أن يتبع ذلك من ردود فعل من قبل الاحتلال، إضافة إلى النتائج السياسية والآثار الاقتصادية المترتبة على استخدام مثل هذا النوع من السلاح، كان القرار منذ البداية أن يكون الأمر محصوراً ومحدوداً ومتروكاً للقيادة تقرر كل تفاصيل وأهداف وتوقيت الاستخدام، وكان الموقف يقضي بعدم السماح لكل من أراد أن يحصل على هذه التقنية حتى لو كان من أبناء حماس.

وقد جرت عدة محاولات تم فيها تصنيع نماذج أولية أجريت بواسطتها بعض التجارب التي لم تكن ناجحة بصورة خاصة، وكان اختيار الأهداف هو بعض المستوطنات الصهيونية المقامة على الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧.

وخلاصة الأمر أن شيئاً حقيقياً وفعلياً لم يتم حتى بداية الاجتياحات عام ٢٠٠٢م للمدن الفلسطينية الأمر الذي زاد من صعوبة إنتاج مثل هذا السلاح.

❖ مجموعات المرابطين:

هذه الفكرة - التي وجدت وترعرعت في قطاع غزة وكان لها حضور فاعل في الساحة الفلسطينية والتي عملت أساساً على التصدي لهجمات الاحتلال- لم تكن غائبة عن البال في الضفة المحتلة، وقد وضعت على طاولة النقاش من البدايات الأولى التي قامت فيها قوات الاحتلال بالدخول إلى أطراف المدن والمخيمات الفلسطينية التي كانت خاضعة للسيطرة الأمنية للسلطة الفلسطينية ، خاصة ما تم في مخيمي بلاطة وجنين، وذلك قبل الاجتياحات الواسعة التي جاءت لاحقاً في العام ٢٠٠٢م.

وبما أن معظم مطاردي حماس في تلك الفترة كانوا من أكثر المجاهدين خطورة على الاحتلال بحيث أنه كان يبذل جهوداً مضنية ومتلاحقة من أجل القضاء عليهم كونهم سببوا له خسائر كبيرة خلال فترة قصيرة، فقد كان الرأي هو عدم الزج بهؤلاء المطاردين في التصدي للاجتياحات الجزئية في مناطق محدودة مما يجعلهم صيداً سهلاً للعدو، لأن المس بهم يعتبر إنجازاً كبيراً للاحتلال، وعليه كان القرار هو إبعادهم عن هذه المناطق على الرغم من رفضهم وإصرارهم على الاشتراك في هذه المواجهات.

وفي المقابل تم البحث والتفكير في حل بديل يقوم على أساس إنشاء مجموعات من المسلحين من أبناء حماس من غير المطاردين وتكون مهمتهم المشاركة في التصدي للاجتياحات إلى جانب أبناء الفصائل الأخرى، وقد كانت الفكرة أن يتركز الأمر في المناطق المرشحة لمثل هذه الاجتياحات أكثر من غيرها.

وجرت بعض محاولات لترتيب الأمر بشكل منظم إلا أن إشكالات عملية مع التأخر في اختيار أشخاص يتولون مسؤولية هذا المشروع حال دون وجوده على الأرض فعلياً بالطريقة التي خطط لها.

وبقيت المشاركة في صدّ هذه الاجتياحات مرهونة بإجراءات محلية آنية دون وجود مجموعات مخصصة للقيام بهذا الدور كما كانت الفكرة وكما كان الوضع عليه في غزة.

❖ التنسيق مع الفصائل الأخرى

تعتبر انتفاضة الأقصى من أقوى جولات الصراع بين الفلسطينيين وعدوهم منذ الاحتلال الذي تم عام ١٩٦٧ م، خاصة أن ميدان هذه الجولة كان على أرض فلسطين.

وكان لهذه الانتفاضة ميزات عديدة منها المشاركة الواسعة لقطاعات مختلفة من الشعب الفلسطيني في مواجهة المحتل، بما في ذلك الأذرع العسكرية لمعظم القوى والفصائل الفلسطينية.

وقد عملت هذه الأجنحة في المنطقة الواحدة وفي أوقات متقاربة، وهي على الرغم من التفاوت في قدراتها وخبراتها وإمكاناتها إلا أنها كانت تتشابه في الآليات العامة والوسائل والأساليب، وقد يكون بعضها أقدر من غيره في إحدى جوانب المقاومة ويتفوق الآخر في تخصص ما، أو يمتاز بعضها بتقنية ما أو مهارة محددة.

فكيف كانت العلاقة بين الفصائل في الميدان؟ وما هو موقف حماس مبدئياً حول التعاون والتنسيق مع القوى الأخرى؟ وما هو الواقع الميداني لهذا الموقف على الأرض؟ وهل هناك محاذير يجب مراعاتها في مثل هذه الحالات؟

ولتوضيح هذه المسألة يجب التأكيد على أن قرار حماس من حيث المبدأ مبني على جعل أكبر عدد ممكن من الناس والفصائل تتبنى مشروع مقاومة المحتل، وأن تمارس كل الوسائل المطلوبة لذلك، وهذا يحتم على حماس أن يكون هدفها الأول هو ضرب العدو وإضعاف قوته وليس التنافس بشقه السلبي مع الفصائل الأخرى.

ولذلك فهي لم تمانع أبداً في التعاون والتنسيق مع كل جهة تتبنى المقاومة وتمارسها في الميدان، بل كان لديها الاستعداد المسبق لتقديم الدعم والمساندة لأي مجموعة تحتاج ذلك في عملها الجهادي والنضالي، وهي حين تتعاون مع غيرها في هذا المجال لا تجعل من الدعاية والإعلان عائقاً أمام تنفيذ المهام، ولا تقف المصلحة الحزبية الخاصة حائلاً دون المصلحة العامة القاضية باستمرار المقاومة وزيادة وتيرتها.

وهذا هو الموقف العام للحركة الذي لا تصمد أمامه اجتهادات فردية محلية هنا أو هناك تخالف ذلك نتيجة حسابات معينة أو بسبب علاقات متوترة وغير مستقرة في مرحلة معينة.

وعلى أرض الواقع في هذه التجربة التي نتحدث عنها فقد حدث التعاون مرات عديدة في العمل المقاوم، وقد نسقت حماس مع مجموعات مختلفة داخل فتح وضمن تشكيلات معينة في كتائب شهداء الأقصى، وهذا الأمر شمل التعاون في اقتناء السلاح أو توفير المواد الأولية اللازمة للعمل، وكذلك التعاون أثناء الاجتياحات الكبيرة لقوات الاحتلال، أو حتى تقديم بعض الدعم المالي في حالات نادرة وذلك حينما يتم التأكد من أن هذا المال سوف يستخدم في مصلحة المقاومة، كما حدثت حالات أخرى من التعاون مع فصائل أخرى أضعف انتشاراً مثل الجبهة الشعبية القيادة العامة أو غيرها من الفصائل الفلسطينية.

وهذا التنسيق كان يعتمد في كثير من الأحيان على علاقات شخصية سابقة ومعرفة الأشخاص بطبيعة الذين يتعاونون معهم، وعلى مدى الثقة والطمأنينة التي تتولد بين الطرفين، خاصة أن بعض هذه القوى لا تملك قيادة عليا تدير شؤونها، بعكس الوضع لدى حماس والتي أقرت مبدأ التعاون والتنسيق مع الجميع إذا اتخذت الإجراءات اللازمة لضمان العمل.

وعموماً عندما كان هذا التعاون يتم بين عناصر من المطاردين من حماس وفتح فقد كانت هناك حاجة لتجنب بعض المحاذير ومراعاة الاختلاف في ظروف كل حركة خاصة قبل الاجتياحات، حيث كان المطاردون من فتح يتحركون بسهولة نسبياً وبشكل علني في أغلب الأحيان، بينما كان المطاردون من حماس يضطرون للحركة بسرية كاملة حيث كانت أجهزة أمن السلطة تلاحقهم في معظم الأوقات، بل إنهم عمدوا في مرات عديدة إلى اعتقال عدد من المجاهدين حتى في أوج قوة انتفاضة الأقصى.

ولا شك أن مثل هذه الأجواء تعقد وتعيق مسألة التعاون والتنسيق بين فصائل المقاومة.

إعلام المقاومة:

والمقصود به أن تقوم المقاومة بذاتها وعبر أجهزتها وعناصرها بإتباع سياسة إعلامية تغطي أعمالها وتوثق نشاطاتها، وهذا يختلف عن الدور الذي قد تقوم به وسائل إعلام مستقلة أو محايدة أو مناصرة فذلك مجال آخر يشكل داعماً لإعلام المقاومة الخاص.

وإعلام المقاومة موجه إلى جهات متعددة، وغايته تحقيق أهداف متنوعة، فهو معني أولاً بالمجاهدين أنفسهم ويهدف إلى رفع معنوياتهم حين يضع أمامهم بعض إنجازاتهم، أو يصور نجاحات إخوان لهم في مناطق أخرى، فيكون حافزاً ودافعاً لهم لمزيد من العمل والعطاء والتضحية.

ثم هو موجّه لأنصار الحركة ومحبيها ومؤيديها، ليزدادوا تمسكاً بنهجها والتفافاً حول رايتها، وقناعة بحسن أدائها وصدق انتمائها، فيتشجع بذلك مؤمن بنا ويتثبت متردد بشأننا ويتعرف علينا جاهل بأمرنا، فنحافظ على بيئة داعمة للمقاومة ومحيط متضامن تعيش في ظلاله، ثم تخرج من هذه البيئة عناصر جديدة تنضم إلى صفوف المقاومة حتى تستمر المسيرة وتتواصل.

وإعلام المقاومة مهم لجماهير شعبنا الواسعة، ومهمته أن يكون مناقضاً وفاضحاً لإعلام العدو الذي يبذل جهوداً جبارة بهدف إحباط الشعب وإضعاف معنوياته وإقناعه بأن المقاومة لا تأتي له بالخير ولا تقربه من تحقيق أهدافه بل على العكس فإنها تدمر حياته وتسبب له المعاناة والآلام على حد دعايتهم الماكرة، فينتصب إعلام المقاومة ليكون الرافعة للشعب وليضع أمام الناس الصورة المشرقة للمقاومة مقابل الخسائر المادية والمعنوية التي تصيب المحتل.

كما أن هذا الإعلام ضروري لمواجهة وسائل إعلام مهزومة تنشر ثقافة اليأس والإحباط والاستسلام من خلال التركيز على بعض السلبيات التي ترافق أي عمل مقاوم، أو هذا الإعلام الذي يحاول بث روح الهزيمة والتقليل من انجازات المقاومة ونجاحاتها، وهذا ميدان على المقاومة أن تعتني به وتوظف جزءاً من طاقاتها وقدراتها من أجل الانتصار فيه.

والأمة أيضاً تحتاج إلى معرفة الحقائق وإلى سماع وجهة نظر المقاومة، والأمة بما تمثله من حضن واسع يحتوي مشروع الجهاد والممانعة في فلسطين هي هدف يسعى وراءه هذا الإعلام، والمسلمون عموماً في تعاطف وتأييد وتضامن معنا، ومثل هذا التواصل معهم يحفظ هذه العلاقة ويزيدها متانة وقوة.

وأخيراً فإن هذا الإعلام موجّه في بعض صوره وأوجهه إلى الكيان المحتل وقيادته، إذ هو يظهر كذبه وزيف ادعائه ومزاعمه بأنه قد أنهى المقاومة وأن الشعب الفلسطيني في طريقه للاستسلام، كما أن إعلام المقاومة يساهم في إضعاف معنويات جنود الاحتلال وزرع الرعب والخوف في قلوبهم، وهو جزء مهم من الحرب المعنوية المتبادلة بيننا بينهم.

وكان الحرص منذ بداية انتفاضة الأقصى المباركة على تفعيل الدور الإعلامي، والاستفادة من كل طاقة في هذا المجال وعدم استصغار أية وسيلة أو الاستخفاف بأي جهد مهما كان بسيطاً.

وكان الإدراك مبكراً لأهمية الصورة بشكل خاص، وأولها تلك الرسائل الإعلامية الهادفة التي تضمنتها الأشرطة المصورة للاستشهاديين العظماء، إذ تحوي في طياتها معاني العزة والإباء في إحدى أروع صور التضحية والفداء حماية لوطن سليب ودفاعاً عن شعب مضطهد، كما يوجد فيها إضافة إلى الوصية الشخصية للمجاهد بعض المعاني السياسية والمواقف الفكرية للحركة.

ويتم بث الشريط مباشرة بعد التنفيذ ويتم إرساله إلى عدد من وسائل الإعلام المحلية والعالمية، وكانت البدايات صعبة إذ العيون تراقب وأجهزة السلطة الفلسطينية تتابع، لكن الأمور كانت معدة سلفاً، لأن أهمية الأمر كانت مقرة ابتداءً.

ثم برزت الحاجة إلى توثيق بعض الأعمال التنفيذية لما في ذلك من شفاءٍ لصدور المؤمنين وإرهابٍ لعدوهم، فقامت الحركة بتصوير عدد من العمليات التي زرعت فيها عبوات جانبية انفجرت لدى مرور السيارات العسكرية للاحتلال، وذلك على الطرق الجانبية والالتفافية حول المدن خاصة قرب نابلس، وقد اشتهرت بعض هذه المشاهد حين تم إعادة نشرها مراراً في عدد من وسائل الإعلام والقنوات الفضائية المختلفة.

ثم جرت محاولة أكثر جرأة حين تقرر عمل تصوير حي أثناء تنفيذ عملية استشهادية جرت بواسطة سيارة مفخخة قادها سائقها لتصطدم بإحدى حافلات العدو قرب مستوطنة في غربي نابلس، وخرج المصور يحمل الكاميرا وأخذ مكانه المناسب، لكن خللاً فنياً حال دون نجاح الفكرة، لكنها كانت محاولة تستحق الذكر سبقت فيها المقاومة الفلسطينية كل ما رأيناه لاحقاً من أعمال مصورة للمقاومة الإسلامية في العراق، حيث إنّ هذه المحاولة كانت في الأشهر الأولى لانتفاضة الأقصى المباركة.

وفي مرحلة لاحقة طلبت القيادة من قيادات المطاردين في الكتائب أن يقوم كل منهم بتسجيل شريط مصور يحض فيه على الجهاد ويحث الناس على المقاومة، وهذا يمثل رسالة إعلامية هامة خاصة عندما تأتي على لسان مجاهد معروف تلاحقه قوات الاحتلال، لكن عدداً من هؤلاء الأخوة رفض الفكرة أو تردد في تنفيذها خشية أن يدخل الرياء وحب الشهرة إلى نفوسهم، خاصة أن الأرواح كانت على الكفوف، والقلوب تتطلع إلى الشهادة، ثم جرى تطبيق نسبي لهذه الفكرة حين وعدت القيادة هؤلاء المجاهدين بأن لا تنشر هذه الأشرطة ما داموا على قيد الحياة، ثم أقنعتهم بأهمية الأمر وفائدته الكبيرة في الترويج لمشروع المقاومة.

وتواصل الاهتمام بإصدار البيانات التي تتبنى كل الأعمال التي تقوم بها حماس باستخدام الاسم الصريح المباشر خاصة بعد أن لجأت بعض الأطراف إلى سرقة انجازات الحركة وتضحياتها .

وكان هناك رفض قاطع في تلك المرحلة للفكرة التي طرحها البعض في مناطق أخرى والتي تدعوا إلى عدم الإعلان باسم الحركة أو حتى الإعلان تحت أسماء أخرى، وذلك لأنه تولدت قناعات راسخة وإدراك أكيد بأن العمل الإعلامي الواضح يجب أن يلازم العمل الجهادي في الميدان حتى تكتمل الفائدة وتتحقق الأهداف المرجوة.

ويدخل في السياسة الإعلامية التبني الكامل للشهيد والاحتفاء به والتفاف الحركة بكل أذرعها ورجالاتها حوله، والإسراع في الاحتفال به والمداومة على تكريمه، وهي عملية هامة جداً تأتي ضمن الخطوات الإعلامية الموجهة إلى البيئة المحيطة على وجه الخصوص، ويظهر أثرها الواضح في زيادة التعاطف الشعبي في المنطقة الجغرافية التي ينتمي إليها الشهيد.

وقد جرت العادة لدينا أن يتم نعي الشهيد في اليوم التالي وذلك من خلال إعلانات باسم الحركة تنشر في الصحف اليومية الثلاثة في فلسطين، وعلى صفحاتها الرئيسية وذلك مباشرة حال ارتقاء الشهيد، كما يتم الأمر ذاته في كافة وسائل الإعلام المحلية في المنطقة من إذاعات ومحطات تلفزة، وتحرص الحركة على أن تنشر هذه الوسائل الإعلامية خبراً عن استشهاد المجاهد وبعض مزاياه وظروف استشهاده.

ثم تستخدم مكبرات الصوت والإعلانات في المساجد والمناطق العامة، ويترافق ذلك مع صور شخصية للشهيد توزع وتعلق في كل المناطق وبكميات كبيرة، وقد يتزامن ذلك مع نبذة عن حياته أو شيئا من وصيته وتضحياته، وبعد ذلك تحرص الحركة على إجراء جنازة مهيبة تليق بالشهيد يتقدمها قيادات الحركة ورموزها وتدعى إليها كل وسائل الإعلام ومندوبوها المحليين والدوليين وتهيأ لهم كل ما يلزم لتغطية الحدث، وأثناء الجنازة يحمل الشبان صورة كبيرة للشهيد يكون أحد الفنانين قد رسمها بيده خلال ساعات فتظهر واضحة للإعلام.

ومن ثم تقام له مراسم العزاء في مناطق عامة يتحدث فيها رموز الحركة من الداخل والخارج وتنظم المسيرات وأفواج المعزين الذين يأتون من كل المساجد والمناطق، وفي اليوم الثالث يقام "عرس الشهادة" وهو حفل تأبيني كبير يتم إعداده بدقة وإتقان ويتم تغطيته إعلاميا بالصورة اللائقة له.

وهذه الإجراءات وغيرها أثبتت التجارب أنها فعالة وداعمة للمقاومة، وتميزت بها حماس عن غيرها فعرفت بها، ولاحقاً صيغت أناشيد وأغنيات تدعم المقاومة وتخلد ذكرى الشهداء، كما استخدم الانترنت لنشر الأخبار المتعلقة بالجهاد.

هذه جملة من النشاطات الإعلامية التي كانت في بدايات انتفاضة الأقصى المباركة، ثم تطورت إمكانات الحركة بعد ذلك حتى وصل أداؤها الفضاء الرحيب وصار خطابها يصل إلى كل الناس.

وبقيت بركة البدايات تثبت أن خطوات قليلة توضع في المسار الصحيح تؤسس لعمل كبير ومتكامل لاحقاً، إذا صحت النوايا واشتدت الهمم وكانت القناعات راسخة بأهمية تلك الخطوات.

ولا شك أن الإعلام كان وسيبقى أحد الأركان الرئيسة في مشروع المقاومة.

وعالم اليوم يصرخ في أذنيك يقول لك: رب عمل جهادي صغير تعظمه الصورة والكلمات، ورب عمل جهادي كبير يمحو آثاره التعتيم في لحظات، فهل بعد هذا الكلام من عذر لمتقاعس أو حجة لعاجز؟!!

المقاومة المبصرة:

لا يصح للمقاومة أن تنفذ مهامها وان تسيل دماؤها دون أن تراقب ما حولها وتستشرف المستقبل أمامها، إذ الجهاد لم يكن يوماً ما مسألة عبثية، فالقتال والسياسة وجهان لعملة واحدة ويكمل كل منهما الآخر، هكذا يقول المنطق وهذا ما تثبته التجارب وما تعاملت به كل الثورات، وما جهادنا في فلسطين ببعيد عن هذه القاعدة بل لعلنا أحوج إليها من غيرنا، إذ الساحة الفلسطينية شديدة التعقيد واللاعبون في ميدان صراعنا مع المحتل كثر، والتداخلات الإقليمية والدولية متشابكة، ووجود سلطة وفصائل متناقضة في الجانب الفلسطيني يجعل عمل المقاومة إشكالياً أكثر، وحاجتها أشد إلى زيادة الحسابات والحكمة في اتخاذ القرارات.

ويتحتم على المقاومة أن تتعامل بواقعية وليس من منطلق العواطف والمشاعر حتى وان استغلت بعض الأطراف الفلسطينية هذا المفهوم الصحيح لتبرير تنازلاتها عن الثوابت وتخليها عن الحقوق الفلسطينية، ثم وجهت اتهاماتها للمقاومة بأنها عبثية وأنها لا تحسن قراءة الخريطة السياسية في المنطقة.

غير أن الواقع يشير إلى أن مقاومة حماس كانت مقاومة حكيمة ومبصرة، وبرز نضجها السياسي منذ انطلاقها، وتمكنت أن تزاوج بين المقاومة بكل أشكالها والسياسة بكل فنونها دون تراجع عن المبادئ ولا تصلب أعمى يضيع استغلال الفرص، وهكذا كان الأمر منذ بداية عمل حماس العسكري في أوائل التسعينيات من القرن العشرين، فتطورت الأساليب وتنامت، وتنوعت الأشكال وتعددت، والتهبت وتيرة العمل وتقلصت، وكان عملاً منفرداً حيناً، ونشاطات مشتركة مع الآخرين في أحيان أخرى، في مجموعة من الخطوات التي قد تبدو متناقضة أمام قصير النظر، لكنها مبنية في كل مرة على دراسة للواقع وتمسك بالمبادئ وموازنة بين المصالح والمفاسد تدعمها الرؤية الشرعية التي تجيز ذلك كله.

ولم تنظر حماس إلى وسائل المقاومة على أنها مقدّسة، وإنما هي عبارة عن أدوات يتحكم في استخدامها طبيعة الواقع ومستلزمات الزمان والمكان، كما أن التغيير والتبديل في التعامل مع وسيلة ما قد يتم من خلال إعلان رسمي مباشر تحقيقاً لمصلحة متوقعة، سواء كان هذا القرار من جهة واحدة أو ضمن اتفاق عام، وقد تقتضي بعض الظروف أن يصدر هذا الموقف من قرار داخلي سري، بحيث يتم تطبيقه دون الإعلان عنه أمام الملأ ودون الالتزام بموعد معين أو تواريخ محددة مما يجعلك في حل من التراجع عنه في أي وقت تراه مناسباً.

وفي هذه التجربة التي نسرد جزءاً من جوانبها حدث هذا الأمر أكثر من مرة، فقد اتخذت الحركة في المنطقة قراراً داخلياً بوقف مؤقت للعمليات الاستشهادية وكافة النشاطات داخل الأراضي المحتلة

عام ١٩٤٨م، وذلك بناءً على معطيات الواقع، في فترة صعدت السلطة الفلسطينية من مواقفها الرافضة لمثل هذا النوع من العمل، وبدأت بالتحضير لإجراءات واسعة ضد المقاومة، وأعلنت حالة الطوارئ وكادت الأمور أن تقود إلى الصدام الداخلي العنيف الذي قد يشتت الجهود ويخفف من الضغط على العدو، وكان الاستقراء صحيحاً وسليماً، وكان التوقع أن الاحتلال سيواصل إجرامه رغم هذه المواقف العلنية من قيادة السلطة الفلسطينية بحيث تتهاوى دعاوى السلطة بالحنكة السياسية، وتنتفض الجماهير مطالبة المقاومة بالرد على اعتداءات الاحتلال، وكان من السهل على من يتابع التطورات ويرقب الأحداث ويرى التناقضات السياسية داخل الكيان الصهيوني، ومن لديه معرفة بطبيعة هذا المحتل المتعجرف وغير المسئول والذي لا يراعي اتفاقات موقعة ولا يحترم طرفاً ضعيفاً يراه أمامه متمثلاً فيمن ارتضى مفاوضته والاعتراف بشرعيته ،- كان من السهل على من أدرك هذه المعطيات أن يعتقد أن مثل هذا القرار لن يطول، وأن الحاجة إلى الالتزام لن تكون بعيدة المدى لأن الاحتلال سيقدم الذريعة للعودة إلى استئناف العمل ويفتح المجال أمام المقاومة لكي تتحرك بحرية وتأييد شعبي، وهذا ما حصل بالفعل.

كما أن هذا القرار الحكيم حال دون وقوع صراع دموي داخلي بين الفلسطينيين، وجدير أن نسجل للتاريخ أن القادة الميدانيين من الأخوة المطاردين كانوا يتحرقون لاستئناف العمل وتضيق نفوسهم بذلك القرار، لكن الالتزام من جانبهم كان شاملاً وتاماً.

ولعل من بركات هذا الالتزام وتداعياته أن بدأ البحث عن فرص أكبر للعمل داخل حدود الـ ٦٧، وهذا ما أدى إلى انجازات كبيرة في هذا الميدان في المرحلة اللاحقة.

وفي حالة أخرى كان أن اتخذ القرار بوقف مؤقت أيضاً للعمليات الاستشهادية داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧م وكذلك وقف إطلاق الصواريخ والهاون من قطاع غزة والتي كانت في بداياتها في تلك المرحلة.

وهذا القرار جاء علنياً ومفاجئاً بعض الشيء، وكانت بعض التحفظات في المنطقة بسبب عدم التشاور المسبق بدرجة كافية، ومع ذلك تم الالتزام به، وكسابقه لم يستمر طويلاً، وكان الاحتلال أيضاً بمواقفه المتعنتة هو من أوجد الظروف الملائمة للعودة عن هذا القرار.

ثم في السنوات التي تلت استطاعت الحركة أن تدخل مصطلحات جديدة في الصراع مع المحتل، فكانت الهدنة ثم التهدئة ثم الحديث عن وقف مؤقت لإطلاق النار وخطوات مشروطة بالتزام مقابل، واستحضار فكرة التزامن والشمولية في سلسلة خطوات وضعت الحركة في صلب العمل السياسي الفلسطيني وصارت لاعباً أساسياً لا يمكن تجاوزه أو تجاهله بأي حال.

رؤية العدو لكتيبة الشمال :

قد لا يأبه الحر إلى تقييم عدوه له، وقد لا تعنيه آراء من يحتل أرضه في هذا المجال، وهو بالتأكيد لا يبني سياساته اعتماداً على موقف العدو منه، وهو بلا شك لا يرضيه أن يرضى عنه الاحتلال، لا بل أن شهادة حسن السلوك التي قد يعطيها الجلاد لضحاياه إنما هي مثار شك وشبهة ومدعاة للريبة.

وقد أبدى شعبنا وعياً سياسياً وفكرياً فطرياً حينما اعتمد نظرة العدو للقوى والمجموعات كأحد أهم الموازين في تحديد صدق هذا الطرف، وهو يلتف حول كل جهة فلسطينية يبرز الاحتلال عداءً مميزاً ضدها، وبالمقابل فهو ينفضّ عن كل مسئول يكثر الاحتلال من مدحه وتأييده وإظهار دعمه له، حتى شاع مصطلح "عناق الدب" بين الأوساط الفلسطينية، في إشارة إلى أن كل من يتلقى مباركة من الاحتلال فكأنه يعانق دباً مفترساً سيكسر أضلاعه إن لم يقتله.

ومنذ نشأت حماس والعدو يكيد لها في كل حين، ولا تملك القيادة السياسية والأمنية للاحتلال إلا أن تعلن عن عدائها لحماس بشكل مباشر، ويساهم المفكرون والإعلاميون لديهم بالتحريض والتخويف من تعاظم قوة حماس.

وبالحديث عن "كتيبة الشمال"على وجه الخصوص فقد برز حجم الغيظ في قلوب المحتلين من هذه التشكيلة منذ بداية انتفاضة الأقصى المباركة، وليس أدل على ذلك من الفلتات الكثيرة التي كانت تخرج من ألسنة كبار محققي المخابرات الصهيونية والتي سمعت جزءاً منها أثناء فترة التحقيق المتواصل معي والذي استمر لمدة أربعة شهور، فقد تحدث أحدهم عن مدى كراهيتهم للشيخ يوسف السركجي والذي أطلقوا عليه لقب "شيخ الإرهاب" وقال: إن هذا الشيخ هو الذي كان يزرع في عقول الشباب ثقافة القتال طوال سنوات عديدة أثناء عمله في صفوف حماس، وعلق نائب رئيس جهاز الأمن الداخلي لديهم "الشاباك" في حينها والذي أصبح رئيساً للجهاز فيما بعد على شخصية القائد جمال منصور والذي عرفه شخصياً أثناء عمله كضابط في منطقة نابلس في بداية الثمانينيات من القرن العشرين، فقال: "إنه شخصية فذة وقوية ولها تأثير كبير في نشر فكر المقاومة داخل حماس وفي أوساط الشعب بشكل عام" مؤكداً أنه "يستحق القتل" من وجهة نظرهم، وذلك بسبب "الخطورة البالغة" التي يمثلها" بالنسبة لهم، وفي بعض الجولات كانوا يشتمون الشهيد نسيم أبو الروس بسبب خبرته الفنية في العمل الجهادي، وكذلك الأمر بالنسبة للشهيد مهند الطاهر.

وأثناء التحقيق كانوا يصرّون على أن هذه الكتيبة التي عملت في شمال الضفة هي المسئولة عن معظم النشاطات في كل مناطق الضفة الغربية وأنها كانت مركز العمل كله، بل إنهم اعتبروا أن اعتقال بعض قياداتها هو الانجاز الأكبر والأهم الذي حققته عملية الاجتياح الواسعة التي عرفت باسم "السور الواقي" في العام ٢٠٠٢م، حيث اقتحمت قوات الاحتلال فيها كل المدن الفلسطينية في الضفة والتي كانت خاضعة للسيطرة الأمنية للسلطة الفلسطينية واستخدمت في الاجتياحات الطائرات الحربية المقاتلة والدبابات والآلاف من الجنود، وكان من نتائجها الميدانية استشهاد العشرات من الفلسطينيين واعتقال الآلاف منهم.

لتوضيح هذه المسألة أكثر أنقل فيما يلي ترجمة لبعض العبارات الواردة في كتاب اسمه "الحرب السابعة" والذي صدر في العام ٢٠٠٤م، وهو متخصص بالحديث عن انتفاضة الأقصى المباركة، وألفّه الصحافيان (الإسرائيليان) عاموس هرئيل وآفي سخاروف، وهما مراسلان للشؤون العربية والعسكرية في بعض وسائل الإعلام (الإسرائيلية) . والكتاب هو حصيلة عشرات اللقاءات التي أجرياها مع كبار قادة الكيان الصهيوني السياسيين والعسكريين والأمنيين إضافة إلى قادة ومسئولين في الجانب الفلسطيني وفي الأجنحة المقاومة للحركات والفصائل الفلسطينية، ومما جاء في الكتاب تحت عنوان: ((الحصار والملاحقة ضد شبكة حماس في شمال الضفة الغربية)) ما نصه: "جهود كبيرة بذلها الشاباك والجيش من أجل القضاء على شبكة الإرهاب الأكثر دموية والتي أقيمت في الضفة وعرفت باسم تنظيم حماس في الشمال، وقد تم خلال ثلاث سنوات اعتقال أو اغتيال العشرات من هذه الشبكة، والذين وضعوا في دائرة الاستهداف مباشرة بعد العملية الأولى في عام ٢٠٠٠م في مدينة الخضيرة حيث اغتيل بعدها إبراهيم بني عودة وبعد ذلك أصيب نصر جرار وأيمن حلاوة في حوادث عمل، وجرت محاولة لاغتيال محمود أبو هنود في سجن نابلس".

كما نقل الكتاب أقوالاً عن مسئول كبير في "الشاباك" قال فيها: "لم ننم لأسابيع بسبب هذه المجموعة، لقد كانوا تنظيماً وحشياً مثل الإخطبوط متعدد الأذرع، كان من الواجب علينا القضاء عليهم وإدارة حرب قاصمة ضدهم، حيث كان لديهم دمج نادر بين الايدولوجيا الدينية والقيادة العسكرية وضباط عمليات ومهندسون، كان منهم نسيم أبو الروس المهندس الرئيسي لهذه

الشبكة وهو عبقري حتى أن يحيى عياش لم يصل إلى مستواه. لقد بدأوا العمل من خلال عبوات مصنوعة من مادة الأسيتون ثم انتقلوا إلى العبوات الأكثر دماراً والمصنوعة من السماد النباتي".

وتابع: "نابلس كانت المركز ، والقيادة هناك كانت تتواصل مع خلايا أخرى في جنين وطولكرم وقلقيلية والذي عملوا بشيء من الاستقلالية. ثم في سنة ٢٠٠٢م تم إرسال علي علان من بيت لحم لكي يتدرب ويستفيد من خبرات نابلس من اجل تطوير الشبكات في الخليل وبيت لحم".

وأضاف الكتاب: "وخلال ثلاث سنوات تم اغتيال الجمالين منصور وسليم والمهندسين نسيم أبو الروس وجاسر سمارو ومخططي العمليات يوسف السركجي وقيس عدوان وصلاح دروزة ومهند الطاهر وطاهر ناصر ونصر عصيدة وكثيرون آخرون" .... "ثم أخيرا في خريف العام ٢٠٠٣م تم اغتيال المهندس الكيميائي الأخير محمد الحنبلي الذي ارتقى مركزه في الشبكة خلال عامين. وقصة مقتله دلّت على الصلابة التي أظهرها كل أعضاء الشبكة حيث أن قوة من الوحدات الخاصة جاءت لاعتقاله في بناية متعددة الطبقات في نابلس. لكن الحنبلي كمن لهم على سطح المصعد الذي أوقفه بين طابقين واستطاع قتل جندي وإصابة آخرين قبل مقتله. وحتى صيف العام ٢٠٠٤م استصعبت حماس أن تعيد بناء قدراتها في نابلس".

وبهذا نكون قد أوردنا نموذجا لما كتب عن هذه الكتيبة في وسائل الإعلام العبرية. والتي تستقي معلوماتها من مصادر سياسية وأمنية مطلعة داخل الكيان.

الفصل الثالث

قتلانا في الجنة
وقتلاهم في النار

شهداؤنا في الجنة.. وقتلاهم في النار

يقول تعالى: "إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من اللهّ ما لا يرجون". التوبة
وامتدح اللهّ عباده المؤمنين المجاهدين بقوله "فيقتلون ويقتلون" التوبة.

هو حديث عن العمليات مقابل الاغتيالات، وهو الدفاع المشروع ضد الاعتداء الآثم، والمقصود هنا ليس توثيقاً لانجازات كتيبة الشمال ولا سجلاً لتضحيات رجالها، ولا هو استقصاء لحيثيات الصراع وتفاصيل الجولات التي خاضها المجاهدون في تلك المرحلة، وإنما هي إشارات وملامح عامة، وطرق خجول ومتواضع لهذه المعاني.

ونبدأ أولاً بذكر نوعيات العمليات التي نفذتها كتيبة الشمال مع بعض النماذج عليها دون الخوض في جزئيات الأحداث وما سبقها من استعدادات وتحضيرات وهي على النحو التالي:

العمليات الاستشهادية:

وهي أطهر الأعمال وأزكاها وأكبرها تضحية وفداء، حيث يجود الإنسان بنفسه طائعاً مختاراً.

وهو أسلوب كانت حماس الرائدة فيه في هذا العصر، فكان ساهر التمام من مخيم بلاطة أول المنفذين في العام ١٩٩٣م وازداد استخدامه خلال انتفاضة الأقصى المباركة حتى مارسته مختلف القوى والفصائل الفلسطينية، لكن حماس تميزت في الأداء وتفوقت في الإتقان، وعرفت بالتطوير والإبداع، واتسمت بالنتائج المميزة، واتضحت قوة العبوات التي كان يحملها المجاهدون واستخدمت مواد أولية جديدة ذات فعالية أكبر، وأضيف إلى ذلك استخدام بعض الكرات الحديدية بدلاً من المسامير فكان أثرها أشد، ثم تم التعامل بطريقة مهنية وعلمية في آلية توجيه العبوة، وهي قضية غاية في الأهمية وأثبتت التجارب ضرورة أخذها بعين الاعتبار في مثل هذا النوع من العمليات، وهذه المعطيات مجتمعة جعلت خسائر العدو أكبر والأبعاد النفسية لديه أبلغ وأعمق، حتى صار المراقبون بل وعامة الناس ينسبون بعض العمليات إلى حماس قبل أي إعلان عنها إذا اتضح أن خسائر العدو فيها كبيرة.

وكانت الأهداف تختار بعناية وفيها تنوع، بين الحافلات والمحلات التجارية والأسواق التجارية والفنادق وغيرها، وتفاوتت أوقات التنفيذ وتعددت لتكون مفاجئة وفعالة.

أما السياسة العامة لمثل هذا النوع من العمليات فهي مبنية على أساس قوة الردع وتأتي للرد على جرائم العدو ضد شعبنا، وترتبط بمجازره بحيث يمكن زيادة تفهم الجمهور لها، ونعرف ذلك من العمليات التي تمت في بدايات التسعينيات من القرن العشرين والتي جاءت رداً منطقياً وطبيعياً على مجزرة الحرم الإبراهيمي في الخليل.

ولسنا هنا بصدد إحصاء هذه العمليات، ولكننا نذكر منها بعض النماذج على سبيل المثال، فهناك الفدائي هاشم النجار ابن مدينة خليل الرحمن والطالب في جامعة النجاح بنابلس الذي نفذ عملية في منطقة محولا في الأغوار، ثم محمود مرمش وأحمد عليان، وعبد الباسط عودة الذي نفذ عملية الفندق في نتانيا، وهي من أضخم العمليات وأكثرها خسائر لدى العدو، وهؤلاء الفدائيين من مدينة طولكرم.

وهناك شادي الطوباسي الذي نفذ عملية في حيفا وهو من مدينة جنين، ثم سعيد الحوتري ابن مدينة قلقيلية، وعماد الزبيدي وماهر حبيشة من مدينة نابلس، ومحمد الغول من مخيم الفارعة، ثم ضياء الطويل من مدينة البيرة الذي نفذ عملية في القدس.

ويلاحظ أن نوعيات هؤلاء الاستشهاديين الفدائيين لم تكن يائسة أو محبطة أو تعاني من أزمات شخصية أو عائلية كما حاول العدو أن يصور الأمور.

ولكنه حب الجهاد وعشق الوطن والبحث عن الجنة هو الذي دفع هؤلاء إلى تفجير أجسادهم في عدوهم، وهم الذين بحثوا عن هذا العمل وألحوا على المقاومة كي ترسلهم للتنفيذ، وكانوا يحزنون إذا تم تأجيلهم ويسعدون حين يقترب الموعد.

أسلوب السيارات الملغومة:

وأهم مثال عليها العملية التي نفذها جمال ناصر من مدينة نابلس، وأحد طلبة جامعة النجاح، والذي كان يعمل أيضاً سائقاً عمومياً، حيث أسرع بسيارته المفخخة على إحدى الطرق الخارجية غرب نابلس والتي تتواجد عليها سيارات الفلسطينيين إلى جانب آليات الاحتلال وحافلات مستوطنيه، وكان عليه أن يحرص على عدم إلحاق الأذى بالفلسطينيين المارين في المكان، وهذا ما زاد صعوبة العملية لما تتطلبه من قدرة وسرعة بديهة وذكاء في التصرف ودقة في اختيار التوقيت، وفي اللحظة التي ظنها مناسبة وبعد أن بذل جهده لتجنب إصابة سيارة فلسطينية كانت تمر بالقرب من المكان فجّر جمال سيارته قرب المحتلين، فكان النجاح محدوداً من حيث النتائج، لكنه كان مرعباً بالنسبة لهم.

الكمائن الاستشهادية:

وهي عمليات تحتاج إلى تخطيط دقيق وإعداد مسبق وجرأة في التنفيذ، وهي عمليات هجومية مباشرة، يشترك فيها مجاهد أو أكثر، وفكرتها تقوم على التحضير لضرب العدو من خلال انتظاره في مكان محدد يتم اختياره بعناية.

وهي تعتمد مبدأ المفاجئة والمباغتة، ثم المواجهة المباشرة بكل الوسائل الممكنة، ويواصل المجاهد المنفذ هجومه حتى النهاية.

وأهم آثارها ضرب الروح المعنوية للمحتلين وإظهار جبن جنودهم، وكشف ضعفهم وتدمير نظرية الأمن الشخصي للمستوطنين حين لا يتمكن حراسهم من حماية أنفسهم فضلا عن حمايتهم.

وأبرز النماذج في هذا النوع هو ما تم في مستوطنة "عمانوئيل" الواقعة جنوب غرب نابلس، حيث نفذت العملية الأولى بمشاركة نصر عصيدة ومحمد عزيز والفدائي عاصم ريحان، حيث قاموا بزرع ثلاث عبوات فجروها عن بعد لدى وصول حافلة للمستوطنين فأصابتها بشكل مباشر ثم انقض عليهم عاصم الذي بقي وحده في المكان وواصل هجومه بسلاحه الرشاش ثم أطلق النار على عدة سيارات صهيونية جاءت بعد ذلك، وكذلك الأمر مع قدوم قوات الاحتلال المعززة لإنقاذ المصابين، فكانت النتيجة مقتل عشرة منهم وإصابة خمسة وثلاثين بجراح مختلفة قبل أن يلقى عاصم ربه مطمئناً.

ثم تكررت التجربة بنجاح بعد عدة شهور من الأولى وبنفس الآلية والمكان تقريباً، ولما تم تفجير العبوة ارتطمت الحافلة بجانب الطريق دون أن تدمر لكونها مصفحة لكن المجاهدين تسلقوا النوافذ وأطلقوا الرصاص من مسافة قريبة على الركاب فقتلوا اثني عشر منهم وأصابوا أكثر من عشرين بعضهم في حالة الخطر، ثم قتلوا الحارس الذي جاء للاستطلاع ثم اشتبكوا مع وحدات عسكرية لاحقتهم بعد ذلك فقتلوا أحد الضباط وجرحوا عدداً من الجنود، وكان على رأس المجموعة نصر عصيدة وشارك فيها عاصم عصيدة وسامي زيدان وبلال الأقرع فاستشهد بعضهم وتبعهم الآخرون في مرحلة لاحقة.

إطلاق النار والعبوات الجانبية:

وقد كانت تنفذ في الطرق الخارجية والالتفافية البعيدة نسبياً عن مراكز المدن الفلسطينية، وقد كانت نسبة نجاحها عالية وإمكانية عودة المجاهدين بعد التنفيذ واردة جداً، حيث إن عنصر المفاجئة يلعب دوراً أساسياً في كسب الجولة، وغالباً فإن المحتلين يترددون في الملاحقة السريعة بعد هذه العمليات خوفاً من الكمائن خاصة إذا كانت العملية ليلاً، كما أن المجاهدين هم أبناء الأرض وهم أعلم بتفاصيلها وجغرافيتها مما يسهل عليهم عملية الانسحاب بعد التنفيذ.

وقد قامت حماس بعمليات كثيرة من هذا النوع، بينما وللأسف كانت بعض الفصائل الفلسطينية تسارع إلى إعلان مسؤوليتها عن مثل هذه العمليات خاصة عندما لا يستشهد المنفذون، ثم يتبين لاحقاً أن حماس هي التي كانت وراء الهجوم سواء من خلال بياناتها الرسمية أو اعتقال بعض المنفذين ولو بعد حين.

ونستذكر هنا الشهيد هاني رواجبة من قرية عصيرة الشمالية وهو أحد المجاهدين الذين تخصصوا في زرع العبوات وتحلّى بجرأة مميزة وحب للعمل وهمة عالية تدفعه لتجاوز كل العقبات، وقد ساهم في العديد من هذه العمليات حتى شاء الله تعالى له أن يستشهد أثناء زرعه لإحدى العبوات ليتحول جسده إلى أشلاء ودماء تأتي شاهدة على جهاده يوم القيامة بإذن الله.

ونشير هنا إلى بعض تلك العمليات، فقد تمكن محمد عزيز مع بعض إخوانه من قتل ضابط

صهيوني على إحدى الطرق الجانبية ثم غادروا الموقع بسلام، وعلى الطريق المسمى "عابر السامرة" نصب المجاهدون نصر عصيدة وإخوانه كميناً أدى إلى مقتل مستوطن وإصابة اثنين آخرين، وتركوا خلفهم عبوة مؤقتة انفجرت بعد دقائق لتعيق عملية ملاحقتهم.

اقتحام المستوطنات الصهيونية:

كانت المستوطنات وما زالت غصة في حلق الفلسطينيين، فقد أقيمت على أراضيهم المصادرة التي انتهبها الاحتلال أمام أعينهم، فاقتلعوا أشجارهم ودمروا محاصيلهم، واستولوا على المرتفعات الجميلة المطلة على أماكن سكنهم، كما استولى المستوطنون على مصادر المياه التابعة للفلسطينيين، وعرقلوا حركتهم عبر الطرقات، ثم تمادوا وخربوا ودمروا وتعاملوا مع الفلسطينيين باستعلاء وتكبر.

ولأجل هذا نظر الفلسطينيون إلى هؤلاء المستوطنين على أنهم خطر متواصل ويومي يهدد حياتهم ووجودهم، وتطلعوا إلى يوم يشفي صدورهم ويريح نفوسهم.

وهكذا وجهت حماس ضرباتها ضد هذه الأهداف، وبدأت عمليات الاقتحام إلى قلب هذه المستوطنات، وتبين أن الأمر أسهل مما كان يتوقعه الكثيرون، فلم تكن حراساتهم على مستوى عالٍ ولا تحصيناتهم كافية لحمايتهم، ولم يتطلب الأمر إلا شيئاً من التخطيط ونوعاً من الجرأة، وهذا ما ملكته حماس، فكان منها ما كان.

وهذه بعض حالات الاقتحام للمستوطنات التي نفذتها "كتيبة الشمال":

١. المجاهد محمد الخليلي يقتحم مستوطنة الحمرا:

هذا المجاهد من مدينة نابلس، كان قد خرج لتنفيذ عملية استشهادية مع بداية انتفاضة الأقصى المباركة، ولكن وصول بعض المعلومات إلى أجهزة أمن السلطة الفلسطينية جعلتهم يعتقلونه في مدينة جنين أثناء توجهه نحو هدفه، فلقي منهم صنوفاً من العذاب وبقي فترة من الوقت في سجونهم حتى خرج بسبب الضغط الشعبي الذي أدى إلى إطلاق سراح المعتقلين السياسيين لدى السلطة، وعاش حياته مطارداً منتظراً فرصة أخرى حتى جاءته.

كانت عيون حماس قد رصدت الموقع مسبقاً وتم التخطيط للأمر بصورة جيدة، ولما حان الموعد انتقل محمد من نابلس باتجاه الهدف الواقع في منطقة الأغوار وسار مسافة طويلة على الأقدام حاملاً معه سلاحه الرشاش وما يكفي من الذخيرة، ولما وصل المكان اخترق الأسلاك المحيطة بالمستوطنة والتي يتواجد فيها معسكر لجيش الاحتلال، وانتظر قليلاً حتى يتمكن المجاهد الذي أوصله من العودة، ثم هاجم المكان وحده يطلق النار في كل اتجاه، واشتبك مع جنود الموقع لعدة ساعات، وكانت النتيجة قتل ثلاثة من الصهاينة وجرح آخرين.

ولما استشهد محمد بدأت عمليات التمشيط بواسطة الطائرات بحثاً عن المجاهد الذي قاده إلى المكان ولكن دون جدوى.

وقد تركت العملية صدىً واسعاً في صفوف العدو واعتبرها تصعيداً مميزاً من قبل المقاومة.

٢. المجاهد أحمد عبد الجواد يقتحم مستوطنة " ألون موريه":

شاب في مقتبل العمر من مخيم عسكر القديم يدرس في جامعة النجاح بنابلس، من عائلة ملتزمة بدينها، شديد الهدوء طويل الصمت، لكنه فاجأ الجميع بعنفوانه وشدة بأسه، فكان كالريح العاصف وصوت رصاصه يملأ الآفاق.

كان قد ودّع أمه طالباً رضاها ودعاءها، وصلى المغرب والعشاء جمعاً في المسجد مع الناس ثم انطلق إلى هدفه، مستوطنة تطل على المخيم والمنطقة المحيطة به، تقع على رأس أحد الجبال العالية شرق نابلس، اقتحم السياج المحيط بها بعد أن أوصله بعض المجاهدين إلى هناك، واقتحم بسلاحه يتنقل من مكان إلى آخر ويذيق من فيها ألوان العذاب، واستمر القتال ساعات طويلة حتى خرج أهل المخيم كلهم يراقبون ويسمعون أصوات النيران من فوق بيوتهم، وكانت أمه تدعو لمن يقاتل هناك قبل أن تعلم أنه ولدها، حتى كتب الله له الشهادة بعد أن قتل منهم عدداً وأصاب آخرين.

٣. المجاهد أمجد القطب يقتحم معسكر"بقعوت":

وهو من مدينة نابلس أيضاً أوصله المجاهدون إلى هذا المعسكر الواقع في الأغوار، وهي عملية أصعب من اقتحام المستوطنات مع الشبه بينهما، وكان قد تم رصد الموقع وتحديد أماكن الثغرات التي يمكن الدخول منها، ووصل أمجد المكان واقتحمه حتى وصل قرب خيام الجنود فهاجم برج المراقبة المطل عليها ثم اشتبك مع الجنود لمدة ساعة ولم يتمكنوا من قتله إلا بعد استدعاء الطائرات المروحية التي ساهمت في عملية التمشيط والمتابعة.

وتمكن المجاهدون الذين أوصلوه إلى المكان من العودة بسلام رغم المسافة البعيدة التي يقع عندها هذا المعسكر.

٤. اقتحام مستوطنة "أرئيل"

وهي من أكبر المستوطنات الموجودة في شمال الضفة الغربية، وهي أشبه بالمدينة التي تحتوي كل المرافق الرئيسة، لذلك فإن تحصيناتها وحراساتها كبيرة نسبياً، ولكن حماس صممت على ضربها رغم ذلك، وقد نفذت فيها عمليتان بطريقة الاستشهادي الذي يحمل المتفجرات، الأولى نفذها الفدائي محمد البسطامي من مدينة نابلس حيث فجّر نفسه على المدخل الرئيس للمستوطنة، وبعد ذلك بفترة قام الفدائي إسلام قطيشات بتنفيذ عملية مشابهة رداً على خروقات الاحتلال باغتيال بعض المطاردين أثناء ما عرف بعملية التهدئة المتبادلة بين الفلسطينيين والإحتلال، وقد أوقعت هاتان العمليتان العديد من الإصابات في صفوف العدو، كما أنهما زرعتا الخوف والرعب في قلوبهم وصاروا على يقين أنه ما من مكان آمن لهم على أرض فلسطين مهما كانت التحصينات والحراسات.

الاغتيالات وتتابع الشهداء:

صدق الشاعر حين وصف تضحيات حماس بقوله :

إنا نقدم قبل الجند قادتنا ** نحو المنون سباقاً نحو مولانا

وهذه إحدى ميزات هذه الحركة المجاهدة، وهي سمة أصيلة رافقت مسيرتها، وهي علامة خير وصدق لديها.

وهذا الأمر يشكل معلماً من معالم حماس وفارقاً جوهرياً يميزها عن سواها من الحركات، إذ إن تضحية رجالها لا تقتصر على العناصر والأفراد وصغار السن، بل إن القادة والمفكرين ورجال الصفوف الأولى هم السبّاقون لدفع ضريبة الدم للحفاظ على نقاء المسيرة وسلامة التوجّه، ومن أجل أن تبقى راية المقاومة عالية خفاقة حتى تحقق غاياتها وأهدافها.

في حين أن بعض الفصائل يقتل عدد من عناصرها وبعض كوادرها، بينما يقف قادتهم وزعماؤهم يتفرجون ويراقبون من بعد دون أن يدفعوا قطرة دم أو حبة عرق، وأحياناً دون دمعة عين تحزن على شباب قدموا أرواحهم، ثم هم بعد ذلك لا يدعمون المقاومة حتى لو بكلمة، بل إن البعض ارتضى أن يحارب المقاومة ويبخس من شأنها ويستهزئ من نجاحاتها ويسخر من إنجازاتها ويتباكى على تضحياتها ويستغل ثمراتها ويتسلق على ربواتها، ثم يتجرأ فيتملق لأعدائها، ثم يصل حد الإجرام فيتآمر عليها ويحرض على عناصرها وينسق مع الاحتلال لاستئصالها والقضاء عليها.

أما من زاوية المحتل فقد كانت الاغتيالات تعبيراً عن جبنه وخسّته، ودلالة على إجرامه وبطشه، ومؤشراً على عجزه في المواجهة المباشرة، واستخفافاً منه بكل الأعراف والمواثيق الدولية، وتأكيداً على خلوه من المشاعر الإنسانية، واستمراراً منه لاعتداءاته وأساليبه القديمة.

وقد جاءت هذه الاغتيالات لتؤكد على نفسية المحتل المجبولة بالعنصرية والاستعلاء، والمملوءة تمرداً وحقداً وثأراً، والمغلفة زوراً وافتراءً بالمهنية والدقة.

وأثبتت هذه الاغتيالات زيف ادّعاء العدو، وكشفت كذبه بأنه يستهدف المقاومين فقط، حيث الوقائع توضح حجم الدمار وكمية الخراب وكثرة الشهداء الذين سقطوا من النساء والأطفال والشيوخ، فتبين صدق قولنا الذي أعلناه من قبل بأن الاحتلال الغاصب يتعامل مع الفلسطينيين على أنهم مجرد أرقام مهما اختلفت أسماؤهم وتوجهاتهم وانتماءاتهم الفكرية والسياسية، إذ الكل في نظره أعداء شعاره في ذلك الذي رفعه زعماؤهم وقادتهم "العربي الجيد هو العربي الميت".

ومن الجدير ذكره أن سياسة الاغتيالات هي منهج ثابت ودائم في مسلكيات الكيان الصهيوني، وقد طبقوا ذلك منذ إنشائهم لدولتهم عام ١٩٤٨م وقبل ذلك أيضاً.

لكن ما يميز انتفاضة الأقصى المباركة في هذا المجال أمران:

الأول: الاستخدام المبالغ فيه والمفرط لسياسة الاغتيالات التي اتبعتها قوات الاحتلال في هذه المرحلة وأعداد الشهداء الكبيرة هي الدليل الواضح على ذلك .

والثاني: تنوع أساليب الاغتيال وشدة عنفها وإجرامها، وتجاوزها لكل الخطوط الحمراء التي يمكن أن يتعارف عليها البشر في حالات الصراع.

ويلاحظ أن الاحتلال قد تدرج في طرق الاغتيال مع تصاعد الانتفاضة وتواصل المقاومة، ثم عجزه عن إيجاد حلول لإنهائها والسيطرة عليها، كما لم يفرق بين العاملين في الجناح السياسي والعسكري خاصة عندما يكون الأمر متعلقاً بحماس، حيث تم استهداف معظم قادتها وكان على رأسهم شيخ الشهداء أحمد ياسين مؤسس الحركة ورمزها الأول.

وبالحديث عن "كتيبة الشمال" فقد كان واضحاً مدى التركيز عليها من قبل قوات الاحتلال، فكانت الاغتيالات متلاحقة ومتصاعدة ومكثفة في فترة قصيرة، ومنتشرة في كل مناطق تواجد العاملين في هذه الكتيبة، لدرجة أن بعض المحبين والغيورين صار يتساءل عن هذه الظاهرة، ودفعه حبه وتأييده للحركة إلى البحث عن تفسير منطقي لما كان يحدث، ويتمنى أن يرتاح قلبه وتطمئن نفسه إلى عدم وجود خلل ما في العمل، ويقابلهم بعض الحاقدين والمتربصين الذين ينظرون إلى الأمر من زاوية التشكيك والتخذيل والاتهام.

وإلى هؤلاء وأولئك نقول: إن حجم الاستهداف الذي مارسه الاحتلال ضد "كتيبة الشمال" كان متوقعاً ومعللاً من الناحية المنطقية؛ فقد كانت هذه الكتيبة هي الأكثر فعالية والأكبر خطراً والأشد تأثيراً في العمل المقاوم خاصة في سنوات الانتفاضة الأولى، وكانت الخسائر المتلاحقة للعدو على يد هذه الكتيبة سبباً مباشراً جعله ينتقم ويثأر ويتمادى في إجرامه.

كما نسجل في هذه الصدد أن قيادة العمل المقاوم في المنطقة كانت تقوم بإجراء تحقيق بعد كل عملية اغتيال بحيث يتم جمع سريع لكافة المعلومات المتوفرة وتتبع لآخر التحركات واللقاءات، ودراسة كل الظروف والملابسات المحيطة بالحادث ثم تحليل ذلك كله والخروج بالنتائج والاستنتاجات مع الأخذ بعين الاعتبار كل الاحتمالات الممكنة.

وقد تمكنّا من تتبع كل حوادث الاغتيال والوصول إلى أسباب ونتائج معقولة في معظم الحالات، وفيما يلي استعراض للأساليب والوسائل الإجرامية التي اتبعها الاحتلال في اغتيال القيادات والكوادر المنتمين إلى "كتيبة الشمال" مع ذكر لنماذج محدودة على كل أسلوب دون استقصاء جميع الأسماء، **يضاف إلى ذلك بعض التحليل حولها تحقيقاً للفائدة:**

▪ أسلوب السيارات المفخخة:

وفكرته تقوم على زرع كمية من المواد المتفجرة في مكان ما داخل سيارة، وعادة فإن المخابرات الصهيونية هي التي تجهز هذه المواد وتحضرها بما لديها من خبرات فنية وقدرات تقنية وتجارب متراكمة، ثم ترسم خطة أمنية من أجل إيصال هذه السيارة إلى الشخص المستهدف، ويتم التحكم بهذه العبوة عن طريق التفجير عن بعد في اللحظة التي تتأكد فيها المخابرات من وجود الشخص المستهدف داخل السيارة، وتفعيل العبوة قد تقوم به قوات الاحتلال بنفسها من خلال طائرة تحلق في المكان أو عبر تواجدهم في منطقة قريبة من الموقع، وفي حالات أخرى تكلف أحد عملائها بهذه المهمة، ولذا فهو يعتبر أسلوب أمني تلعب فيه المخابرات الدور المركزي والذي يصعب أن يكتمل دون اشتراك العملاء معها.

وقد استخدمت هذه الطريقة أكثر من مرة، وكان العدو يعترف بمسؤوليته عن الحادث في أحيان قليلة، أو يدّعي بأنه نتيجة خطأ داخلي فني لدى المقاومة، وربما نفى مسؤوليته بشكل مطلق، أو يختار الصمت وعدم التعليق، وذلك بحسب سياساته وخططه الإعلامية، أو محاولة منه لتضليل المقاومة وإرباكها في السعي لمعرفة حقيقة ما حدث.

١. اغتيال إبراهيم بني عودة:

كان ذلك حينما أقدم الاحتلال على اغتياله من خلال تفجير السيارة التي كان يقودها وسط مدينة نابلس وفي وضح النهار، وكانت المادة المتفجرة قد تم إخفاؤها بكمية محدودة وذلك في المنطقة العليا من مقعد السائق، حيث علمت المخابرات أن إبراهيم سيقود السيارة وذلك بحسب الخطة التي أعدتها مسبقاً، وكانت السيارة تتبع لأحد أقرباء إبراهيم والذي تبين لاحقاً أنه عميل للاحتلال وهو الذي أعطى السيارة لإبراهيم قبل التنفيذ بوقت قصير، وكان قبلها في لقاء مع ضابط المخابرات الصهيونية، ولما كُشف أمر هذا "القريب" وأمسكت به أجهزة أمن السلطة الفلسطينية كان الغضب الجماهيري كبيراً والضغط الشعبي هائلاً فتمت محاكمته وإعدامه بعد ذلك.

ومن خلال متابعة الحركة للقضية كلها تأكد عدم وجود اختراق أمني داخل صفوف المقاومة، والأمر كان بسبب سوء تقدير لشخصية هذا العميل، ونتيجة للثقة التي أولاها إياه إبراهيم كونه أحد أقاربه، علماً بأن هذا العميل ليس من أبناء حماس ولا علاقة له بعمل المقاومة الذي كان يشارك فيه إبراهيم، حيث أنه كان يطلب منه السيارة للاستخدامات الشخصية فقط.

٢. اغتيال أيمن حلاوة :

وفي هذه الحالة تم استهداف القائد أيمن حلاوة بأسلوب تفجير السيارة التي كان يركبها وهي متوقفة في الشارع المؤدي إلى جامعة النجاح بنابلس وذلك في ساعات المساء الأولى، فاستشهد أيمن على الفور فيما أصيب المجاهد علي علان الذي كان برفقته، وكانت السيارة تتبع لشخص ثالث من منطقة القدس والذي نزل منها قبل انفجارها بقليل، وهذا العميل كان قد تعرف على أيمن في أثناء تواجده في سجون الاحتلال دون أن يكشف أمره، ولم يكن لهذا العميل أي دور في عمل الكتائب، وقد اتضحت الصورة لدى القيادة منذ الساعات الأولى وذلك بعد تجميع المعلومات الأولية، وخلال وقت قصير كانت القيادة قد حصلت على صورة شخصية لهذا العميل وجرت محاولات للبحث عنه دون جدوى.

٣. اغتيال أحمد مرشود:

وفي هذه الحالة استشهد المجاهد أحمد مرشود من مخيم بلاطة أحد نشطاء حماس المعروفين، والذي سجن لعدة سنوات على خلفية مشاركته في العمل العسكري، وهذه المرة كان هناك شيء من التغيير في الوسيلة، حيث تم تفجير سيارة خالية كانت متوقفة على رصيف الشارع وذلك عند مرور أحمد بجانبها مشياً على الأقدام أثناء توجهه إلى عمله في الصباح قرب مبنى وزارة الأسرى التي كان موظفاً رسمياً فيها، بمعنى أن له وقتاً محدداً وثابتاً في كل يوم، ويمر من نفس الطريق بشكل روتيني، مما يسهل عملية رصده خاصة أنه لم يكن مطارداً بل كان يعيش حياته الطبيعية، وهذه الطريقة لا تحتاج إلى زرع عميل داخل التنظيم لتنفيذ هذه المهمة، ولدى البحث في ملكية السيارة التي انفجرت تبين أنها مسروقة وذات لوحات ترخيص مزورة.

وقد تكرر هذا الأسلوب أكثر من مرة مثل اغتيال الشهيد حامد الصدر في نابلس، ونزيه أبو السباع في جنين، وفواز بدران في طولكرم.

وهكذا اتضح عدم وجود أي اختراق أمني في صلب الكتائب في هذه النماذج، لكن هذا لا يمنعنا من ذكر بعض الإجراءات السهلة التي يمكن أن تشكل حماية ضد هذه الأساليب، أو تصعّب مهمة الاحتلال على الأقل، وأهمّها وجود آلات وأجهزة قادرة على كشف المواد المتفجرة يمكن استخدامها لفحص السيارة بشكل مستمر، لكن هذه الآلات لم تكن في حوزتنا حينها، ولعله ليس من السهل الحصول عليها حتى الآن في مناطق الضفة عموماً.

وينبغي للأخ المطارد على وجه الخصوص إبداء مزيد من الحذر والتيقن من نقاء علاقاته الشخصية مع بعض الأصدقاء أو الأقارب الذين هم خارج العمل التنظيمي، ويفيد أيضاً عدم استخدام السيارة ذاتها لمرات متعددة ومتكررة، وأن يحافظ قدر الإمكان على سرية تنقّلاته وتوقيت تحركاته حتى على شخص مقرب يستعير منه سيارته وقت الحاجة.

أما في حالة كون الأخ المجاهد غير مطارد فإنه يتحرك بشكل علني ويضطر أن يذهب إلى مكان عمله أو التجول في السوق أو الذهاب إلى المسجد أو الدخول والخروج من منزله، ومع ذلك فإن الأخ الذي يعلم دوره الجهادي وأنه يمكن أن يكون مستهدفا فإنه مطالب بالتحرك بصورة ذكية يكسر فيها كل أنواع الروتين اليومي، فلا يسلك طريقاً ثابتاً ومحدداً للذهاب والإياب أو عند الانتقال من مكان الى آخر، وكذلك يغير أوقات ومواعيد تحركاته حتى لو كان موظفاً ملتزماً بوقت ثابت في كل يوم، فإنه يستطيع أن يذهب مبكراً بفترة أطول مما يعيق عملية رصده ويصعب مسألة استهدافه بواسطة السيارات المفخخة، وقد استخدم بعض الأخوة هذه الطرق وحافظوا عليها فنجوا بعد حفظ الله تعالى، حتى أقرت المخابرات لاحقاً بصعوبة استهدافهم بسبب التغيير المستمر في تحركاتهم رغم كونهم من غير المطاردين.

▪ أسلوب القصف بالصواريخ:

وهو أكثر الأساليب إجراماً وتدميراً، كما أنه الأوسع انتشاراً واستخداماً، وهذه المهمة كانت تستند إلى سلاح الجو الصهيوني الذي كان يطلق هذه الصواريخ الفتاكة بواسطة الطائرات الحربية من طراز F١٦ أحياناً، أو الطائرات المروحية في معظم الأحيان، أو من خلال طائرات صغيرة تحلق بدون طيار.

وفي جميع هذه الحالات كانت الأهداف التي تتعرض للقصف مدنية وخالية من أي تحصينات أو حمايات خاصة؛ فهي إما سيارات خاصة أو منازل عائلية أو مكاتب ومقار ومراكز شعبية أو حزبية، وفي بعض الأحيان كانت هذه الصواريخ توجه مباشرة إلى أشخاص في مكان مكشوف، هذا على الرغم من أن هذه الصواريخ صممت أصلاً عند اختراعها لكي تهاجم الدبابات والمدرعات والمصفّحات العسكرية في الحروب التي تشارك فيها الجيوش النظامية، وبما أن هذه الأهداف كانت مدنية دائماً فكثيراً ما كانت هذه الهجمات تصيب المارة أو السكان إضافة إلى المجاهد المستهدف ابتداء بالاغتيال، فتسقط ضحايا وإصابات وتدمر بيوت ومنازل، ولكن ذلك لا يغير شيئاً في سياسة الاحتلال القائمة على التصفيات الجسدية والمبنية على إرهاب الدولة المنظم، وهذه الضربات نزعت صفة الإنسانية عن الطيارين وقياداتهم العسكرية ومن قبلهم القيادة السياسية بكل أركانها، ويكفي أن نضرب مثلاً على ذلك ما صرح به الجنرال "دان حلوتس" قائد سلاح الجو في جيش الاحتلال والذي تولى رئاسة الأركان لاحقاً واضطر إلى الاستقالة بعد الأداء الفاشل لجيشه في الحرب على لبنان عام ٢٠٠٦م، حيث سُئِل عن شعوره بعد أن قام طيّاروه بقصف الشهيد صلاح شحادة بقنبلة تزن طن من المتفجرات فقتل وقتل وأصيب معه العشرات من الأطفال والنساء، فردّ ببرودة أعصاب ولامبالاة: "إن الطيار سيشعر حين يسقط القنبلة باهتزاز بسيط في جناح الطائرة".

ولا شك أنّ مثل هذه الأعمال تندرج في إطار جرائم الحرب التي يعاقب عليها القانون الدولي وترفضها كل الشرائع وتأباها نفوس المقاتلين الأحرار حتى في حروب العصور الوسطى، كما أن هذه الهجمات لا تحتاج إلى مهارة مميزة ولا يلزمها أي قدر من الجرأة والبطولة لدى منفذيها، وهذا فارق كبير بين اعتداءات المحتلين وردود المقاتلين عليهم.

وفيما يلي ذكر لبعض النماذج من عمليات الاغتيال بهذه الطريقة:

١. اغتيال القائد صلاح دروزة:

وهو من أوائل من تم استهدافهم، وهو من القادة السياسيين الذين كان لهم دور في العمل المقاوم المباشر، لكنه لم يكن مختفياً بل كانت تحركاته مكشوفة وعلنية ومعروفة، وعلاقته مفتوحة مع الجميع بحكم موقعه في الحركة، ولذلك تم قصفه بصاروخ أصاب سيارته الشخصية التي كان يقودها في وقت الظهيرة، وذلك أثناء توجهه من منزله غرب نابلس إلى وسط المدينة حيث كان يمر في شارع رئيسي مكشوف، كما يمكن بسهولة ويسر المراقبة الدائمة له عن بعد عندما ينطلق من منزله المتواجد في أطراف المدينة وحتى وصوله إلى وسط المدينة، ويمكن القيام بهذه المهمة بواسطة الطائرات أو عن طريق رؤوس الجبال التي تحيط بنابلس وتخضع لسيطرة الاحتلال الدائمة، حيث يضع نقاط مراقبة تطل على المدينة وتراقب التحركات في شوارعها وطرقها وممراتها، ولهذا فإن الطريقة التي تم فيها اغتيال القائد صلاح لم تكن بحاجة إلى عملية أمنية معقدة، ولا يلزمها مساهمة كبيرة من عملاء الاحتلال، وعليه لم يثبت بعد الدراسة والتحري وجود أي نوع من الاختراق الأمني لصفوف الحركة بخصوص هذه الحالة، أما عن سبب استهداف صلاح رغم كونه مسؤولاً سياسياً، فنحن نعلم كيف كانت له علاقات مع المطاردين، وهو الذي رافق محمود أبو هنود بعد تسلمه من الأجهزة الأمنية للسلطة، بعد المحاولة الفاشلة لاغتياله أثناء وجوده في سجن نابلس الذي تشرف عليه الشرطة الفلسطينية.

وقد تبين لاحقاً أن أهم أسباب استهداف صلاح دروزة ومن بعده من السياسيين في المنطقة كان بمثابة انتقام جاء بعد عجز قوات الاحتلال عن تصفية القادة العسكريين في تلك المرحلة والذين كانوا يشرفون على توجيه الضربات المباشرة للعدو ثم ينجحون في الاختفاء عن الأنظار، مما دفع الاحتلال إلى توجيه ضرباته إلى الأهداف العلنية المكشوفة للحركة.

٢. اغتيال القائدين جمال منصور وجمال سليم:

وهي من أكبر الضربات التي وجهت لحماس في حينها، وجاءت بعد أسبوع واحد من اغتيال صلاح دروزة.

وهنا كان الهدف هو مكتب إعلامي سياسي يديره الشهيدان في وسط مدينة نابلس في منطقة مكشوفة عن بعد وفي جهته الأمامية لا تقف أية بنايات عالية تحجب عنه الرؤية عبر الأفق، وتسهل مراقبته والهجوم عليه من فوق رؤوس الجبال الجنوبية المقابلة لهذا المكان.

وبصورة عامة فقد وفّرت الحركة للشيخين إجراءات أمنية معقولة تتناسب وإمكانيات ومتطلبات تلك المرحلة، مثل الحراس المرافقين والمسلحين، وتأمين سلامة المكتب باستمرار وضمان أمن السيارات وما شابه، لكن فكرة تعرض مكتبهم للقصف الصاروخي لم تكن في دائرة الاحتمال القوي، على الرغم من أنهم كانوا يخلون المكتب في حالات الطوارئ أو عند حدوث ضربات قوية للمقاومة وذلك كنوع من الاحتياط والتحسب لضربات العدو الانتقامية.

ومن الجدير ذكره أن استهداف هذا المكتب الإعلامي كان السابقة الأولى التي تقدم فيها قوات الاحتلال على استهداف القادة السياسيين لحركة حماس، وكما سبق القول فإن الاحتلال كان يتدرج تصاعدياً في عنفه وإجرامه، وبدأ تجاوز كل الخطوط في الصراع حتى وصل إلى مرحلة صار من المنطقي بالنسبة لنا أن نتوقع منه كل شيء وأن لا نستثني أية خطوات شاذة وقاسية قد يلجأ إليها.

ففي ظهر يوم ٢٠٠١/٧/٣١م ومن مسافة بعيدة تتجاوز جبال نابلس، أطلقت طائرات مروحية صواريخها مباشرة على المركز الإعلامي الذي يقع في بناية سكنية فاخترقت نوافذ المكان وانفجرت بداخله محدثة دماراً وخراباً كبيرين، مما أدى إلى استشهاد الإخوة جمال منصور وجمال سليم، والمدير الإداري للمكتب فهيم دوابشة، والمرافق الشخصي عمر منصور، والصحافيان عثمان قطناني ومحمد بيشاوي، كما استشهد طفلان صغيران تصادف وجودهما بالقرب من المكان، وأصيب أخوة آخرون كانوا داخل المكتب.

وبعد إجراء تحليل ودراسة للحادث تبين أن هذه العملية لا تحتاج إلى جهود استخبارية كبيرة ومعقدة، كما لم يثبت اختراق عبر عميل داخل الحركة في هذه الحالة، وجلّ ما تحتاجه المخابرات الصهيونية هنا هو القيام بمراقبة المكان عن بعد بواسطة تقنياتها المتطورة، إضافة إلى التنصت على المكالمات الهاتفية للتأكد من وجود الأشخاص المعنيين داخل المركز ساعة التنفيذ، وربما يقوم عميل عادي بمتابعة من يدخل ومن يخرج من المكان، ويمكنه القيام بذلك دون الحاجة إلى الاقتراب من المركز أو الوقوف قرب مدخله.

ومن المناسب أن نؤكد هنا أن الدور الذي كان يلعبه القائدان جمال منصور وجمال سليم مرتبط بالنشاط السياسي والإعلامي للحركة، ولم تكن لهما أية علاقة مباشرة مع العمل العسكري، باستثناء التأييد والتحريض والمباركة لكل جهد تقوم به المقاومة، وكذلك فإن المركز الذي تم قصفه بالصواريخ لم يكن سوى مقر إعلامي وسياسي تدار من خلاله مجموعة من الفعاليات والنشاطات الفكرية والإعلامية والسياسية.

٣. اغتيال القائد محمود أبو هنود:

وهو أحد أبرز قادة القسام في الضفة الغربية، وأحد الشخصيات التي أرهقت المحتل وأتعبت أعصابه، مما جعله يبذل جهوداً مضاعفة للوصول إليه ويستخدم شتى الوسائل بهدف تصفيته والقضاء عليه، وقد اتبع الاحتلال طريقة القصف مرتين مع أبو هنود، الأولى عندما حاول اغتياله عبر قصف سجن نابلس المركزي أثناء احتجازه بداخله على يد السلطة الفلسطينية، حيث قامت طائرة حربية مقاتلة بإلقاء صاروخ على مكان تواجده في غرفة السجن، لكنّ اللّه سلمه من القتل رغم تدمير جزء كبير من السجن، وهذه الحالة لا علاقة لها بالحركة ولا تتحمل أية مسؤولية عنها، كما أن أبو هنود نفسه لم يكن يملك من أمره شيئاً، إذ هو سجين لدى السلطة الفلسطينية في مكان محدد ومعروف لدى الاحتلال، فكان الاستهداف سهلاً ومتاحاً، أما المرة الثانية فكانت عندما قامت الطائرات المروحية بقصف السيارة التي كان يستقلها مع اثنين من مرافقيه، وذلك أثناء سيرها ليلاً بالقرب من قرية عصيرة الشمالية مما أدى إلى استشهادهم جميعاً.

وبعد الدراسة والتحليل يمكن الوصول إلى بعض الإشارات التي تفسر كيفية نجاح العدو في اغتيال أبو هنود هذه المرّة. من ذلك أنه عند اغتياله كان يتحرك في منطقة سكناه وما جاورها وهي قرية عصيرة الشمالية وياصيد وطلوزة، وهي منطقة ينشر فيها العدو الكثير من عيونه وعملائه لرصد أي تواجد للمطاردين فيها. وقد كانت هناك شكوك حول بعض المشبوهين من خارج الحركة ممن ثبت تواجدهم في المنطقة قبل وقت قليل من تنفيذ القصف. كما أن السيارة التي تم قصفها مسجلة باسم أحد الشهداء الذين كانوا برفقة أبو هنود. وهذا الشخص كان قد اعتقل سابقاً بتهمة تقديم المساعدة لأبو هنود مما يجعله مثار شك لدى الاحتلال حيث أنه من الوارد أن يقوموا بمراقبة تحركاته ورصدها وتوقع أن يواصل مهامه بمساعدة المطاردين.

وبنفس الطريقة تم اغتيال عامر الحضيري في وسط طولكرم.

وكما هو معلوم فإن هذا الأسلوب الجبان قد ازداد وتوسع لاحقاً حتى صار حالة شبه يومية في الضفة وغزة، مما أدى إلى اغتيال عدد كبير من القادة السياسيين والعسكريين في حركة حماس على رأسهم الشيخ أحمد ياسين والدكتور الرنتيسي وإسماعيل أبو شنب وصلاح شحادة وإبراهيم المقادمة وغيرهم الكثير، إضافة إلى أعداد كبيرة من كوادر الفصائل الفلسطينية الأخرى.

- **أسلوب الحصار والهجوم:**

يواصل الاحتلال ملاحقة المجاهدين المطاردين ويشدد من طرق المراقبة والمتابعة للكشف عن مناطق اختبائهم والأماكن التي تؤويهم، وعندما يتمكن من تحديد مبنى معيّن يتواجد فيه المجاهد المطارد فإن الاحتلال يعمد إلى محاصرة المجاهد وتضييق الخناق عليه ويستخدم في هذه العملية قوات كبيرة مزودة بأفتك الأسلحة وترافقها الدبابات الحربية والمصفحات إلى جانب الجرافات الضخمة التي تدمر كل ما يقف في طريقها، وفي بعض الحالات تستخدم الطائرات المروحية للقصف والمراقبة. وحينما يتم إحكام الحصار على المجاهد تبدأ القوات بقصف مكثف على المكان يشمل الصواريخ المضادة للدروع، وتستخدم الرشاشات الثقيلة والمتوسطة من كافة الأنواع، وتبدأ الجرافات الضخمة بهدم المكان تدريجياً وسط تغطية كثيفة بالنيران، كما تستخدم الكلاب المدربة على البحث والتقصي وكذلك الهجوم على الخصم، وعادة تثبت عليها أنواع من الكاميرات الخفيفة التي تنقل ما يجري أمامها إلى مراكز الاتصال، وذلك كله قبل أن يبدأ الجنود بتمشيط المكان المحاصر.

وفي المقابل كان المطارد المحاصر لا يملك سوى سلاحاً خفيفاً مع كمية محدودة من الذخيرة، وهو قلق على الناس من حوله ومهتم بممتلكات من قدم له المأوى.

وتكون الصورة جيش مقابل شخص واحد أو اثنين، فالمعركة غير متكافئة والمعادلة غير منطقية والموازين مختلفة كلّياً، والنتائج تبدو محسومة سلفاً.

ومع ذلك تمكن المجاهد المحاصر في حالات عديدة من قتل بعض الجنود المهاجمين وإصابتهم قبل استشهاده. وفي حالات أقل تمكن بعض المجاهدين من الإفلات من بين المصيدة القاتلة. خاصة إذا كانوا مجموعة من المطاردين حيث كان أحدهم يفدي إخوانه ويواجه المحتلين وحده ويغطي على البقية حتى يتمكنوا من الإفلات في صورة رائعة من الفداء والتضحية.

وقد عرف العدو أن أبناء حماس على وجه الخصوص لا يسلّمون أنفسهم له. بل يقاتلون حتى النهاية ويتربصون له ويحاولون خداعه. مستغلين كل فرصة يغفل فيها أو يطمئن ليعاودوا الهجوم والمفاجأة. الأمر الذي أدى إلى إصابات عديدة في صفوف الجنود المهاجمين. وكثيراً ما كانت تُسمع صرخاتهم وبكاؤهم في مثل هذه المواجهات.

ولأن هذا الأسلوب تكرر كثيراً ولأن لكل حالة قصة وحكاية، وفي كل مرة خصائص ومزايا مختلفة سنذكر عددا من الحوادث بقليل من التفصيل:

1. **اغتيال الشيخ يوسف السركجي وإخوانه:**

وهي إحدى الحالات الصعبة التي تكبدت فيها المقاومة ضربة قوية وتسببت لها بخسائر فادحة.

حيث استشهد فيها القائد يوسف السركجي أحد أكبر القادة السياسيين لحركة حماس ثم أحد المسؤولين الرئيسيين عن الكتائب. ومعه نسيم أبو الروس أحد خبراء تصنيع المتفجرات ورفيقه جاسر سمارو. وكذلك المجاهد كريم مفارجة من قرية بيت لقيا قرب رام الله والطالب في جامعة النجاح بنابلس والذي كان له دور كبير في العمل والتصنيع أيضاً.

وميزة هذه الحالة أنها حصلت داخل حدود مدينة نابلس في المناطق الخاضعة للسيطرة الأمنية للسلطة الفلسطينية. وأنها تمت قبل بدء قوات الاحتلال للاجتياحات الواسعة للمدن الفلسطينية. ووقعت أثناء وجود المجاهدين في عمارة سكنية تقع في المنطقة الغربية الشمالية من نابلس. والمعروفة بهدوئها عموماً مع قربها نسبياً من المنطقة المصنفة "ب" التي تتبع للسيطرة الكاملة لقوات الاحتلال. وقبل يوم من الاقتحام كان الاحتلال قد أبلغ مسؤولي السلطة في المدينة عن نيته دخول الأطراف الشرقية للمدينة الأمر الذي كان قد تم سابقاً أكثر من مرة. وانتشر هذا الخبر بين عموم السكان. فكان الدخول مفاجئاً من المنطقة الغربية بواسطة قوات خاصة وصلت إلى المنزل الذي يؤوي المجاهدين في ساعات الليل المتأخرة. وأطلقوا عليهم الرصاص بقوة كبيرة أدت إلى استشهادهم خلال فترة قصيرة ودون أن تسنح لهم فرصة مناسبة للرد بشكل مناسب.

ولدى إجراء التحقيق في الحادثة تبينت مجموعة من الملاحظات والتقديرات منها:

- كان المكان آمناً من حيث أنه يقع في منطقة غير متوقعة كونه قريب من الحواجز العسكرية.

لكن نقطة ضعفه كانت في صعوبة الإفلات إذا تم كشفه وحصاره، حيث الكثافة السكانية محدودة والمنطقة مكشوفة وللسكان فيها طبيعة خاصة تختلف عن مناطق الكثافة السكانية التي يمكن أن تشكل غطاء في مثل هذه الحالات.

- نجح الاحتلال بصورة معينة في إيهام الناس أنه ينوي الاقتحام من الجهة الشرقية للمدينة.
- عرف لاحقاً أن أحد الحواجز الرئيسية التابعة للسلطة الفلسطينية كان قد رفع من المدخل القريب للموقع.
- كانت الشقة قد تم استئجارها مؤخراً، وسجّل العقد باسم شخص من حماس، ربما كان أحد المجاهدين أنفسهم، وهذا خطأ في الإجراءات الأمنية؛ لأن الأجهزة الأمنية للسلطة كانت تجبر كل أصحاب العقارات على إرسال نسخة من عقود الإيجار إليها خاصة في تلك المرحلة.
- لكن الخلل الأكبر كان أن الشخص الذي كان الواسطة الأساسية في عملية الاستئجار لم يكن مريحاً وهو من المحسوبين على حماس فعلاً، واعتقل فترة قليلة عند عملية الاغتيال، ولما ثارت شكوك لدى الحركة حوله اختفى عن الأنظار قبل أن يتم استجوابه أو التحقيق معه أو مراجعته في الأمر.

٢. اغتيال محمد ريحان:

وتلك الحالة أيضاً كانت قبل الاجتياحات الشاملة للمناطق الفلسطينية، ووقعت في قرية تل الخاضعة للسلطة الفلسطينية حسب الاتفاقات الهزيلة، لكنها كانت مستباحة بشكل دائم من قبل قوات الاحتلال.

وقد تم حصار منزل محمد عند أذان الفجر، ولما شعر هذا المجاهد بتواجد الجنود حمل سلاحه وخرج لمواجهتهم بكل قوة وبصورة مفاجئة أربكت خططهم، بحيث تمكن عدد من المجاهدين الذين كانوا في منزله من الاختباء فنجوا رغم قيام قوات الاحتلال بعمليات تفتيش واسعة في المنطقة، وكان أهم الناجين في ذلك اليوم القائد نصر عصيدة الذي ربما كان الهدف الأول من وراء العملية كلها.

٣. اغتيال علي الحضيري:

وهو أحد مجاهدي طولكرم الذي عاش فترة طويلة من مطاردته في نابلس، وفيها استشهد، وذلك بعد الاجتياحات الكبيرة التي قامت بها قوات الاحتلال فصار دخوله سهلاً إلى كل المدن وفي كل الأوقات.

وبينما كانت مجموعة من المطاردين تختبئ داخل موقع لخياطة الملابس وسط مدينة نابلس جاءت قوات الاحتلال لتفتيش المكان ليلاً بعد اعتقال صاحبه من منزله، وهي بحسب التحليل الأقرب للحقيقة لا تعرف بوجود هؤلاء المطاردين في المكان؛ بدليل أن الجنود تحركوا بطريقة مكشوفة لا يبدو عليها الاستعداد لمواجهة متوقّعة، خاصة أنّ المجاهدين هناك كانوا من أخطر المطاردين لقوات الاحتلال، الأمر الذي سهّل على المجاهدين أن يبادروا ويقوموا بالهجوم المسبق، مما أسفر عن مقتل أحد الجنود

المهاجمين وإصابة غيره، وهنا تدخّلت الدبابات العسكرية المتواجدة في الموقع والتي ترافق الجنود وبدأت بقصف المبنى بشدة وسط ذهول المحتلين، عندها تطوّع علي للتغطية على إخوانه وواصل المواجهة بصلابة وشراسة، حيث تمكن المجاهدان الآخران من الهروب عبر مخرج جانبي مستغلين الإرباك الذي حصل في صفوف العدو وساروا بعيداً حتى وصلوا إلى مكان آمن.

٤. اغتيال قيس عدوان وإخوانه:

وهو أحد قادة مطاردي القسام، والذي كان برفقة خمسة من إخوانه، وكان ممن شارك في المواجهات في جنين، ثم توجه لاحقاً إلى بلدة طوباس القريبة من الأغوار، وكان ذلك في فترة الاجتياح الكبير الذي أطلق عليه اسم "السور الواقي"، والذي شمل كل المناطق في الضفة، حيث تمت محاصرة المطاردين داخل أحد المنازل ودارت مواجهة عنيفة مع قوات الاحتلال المدججة بالسلاح مما أدى إلى استشهاد المجموعة كلها حيث رفض جميعهم الاستسلام للعدو.

وخلال مراجعة هذه الحالة تبين أن المجاهدين كانوا يخضعون للرصد والملاحقة لحظة خروجهم من جنين، كما أنّ بعضهم تحرك بشكل شبه مكشوف لدى تنقلهم في بعض المناطق، فيما يبدو أنه ضعف في تقدير الواقع الجديد الذي نشأ بعد الاجتياحات، حيث أنّ الاحتلال لم يتورع بعدها عن دخول أية منطقة ولم يمتنع عن مهاجمة أي هدف، ولم يتردد في التعرض للمنازل والمناطق السكنية من أجل الوصول إلى المجاهدين المطاردين المطلوبين له.

٥. اغتيال محمد الحنبلي:

حيث تمت محاصرته داخل بناية كبيرة متعددة الطوابق، وذلك بعد ملاحقة طويلة، وحين حاولوا اعتقاله من خلال دخول المبنى والبدء في عمليات البحث والتمشيط هاجمهم محمد بعد أن اتخذ لنفسه موقعاً مناسباً، مما أدى إلى مقتل أحد الجنود وإصابة آخرين، ثم قامت قوات الاحتلال بتدمير المبنى بالكامل بعد استشهاد محمد وذلك كحالة انتقامية رداً على صموده في وجههم وإيقاعه لعدد من الخسائر في صفوفهم.

٦. اغتيال فايز الصدر وخميس أبو سالم:

وهي شبيهة بالحالة السابقة، حيث تواجد المجاهدان في بناية من عدة طوابق في نفس منطقة سكنهم - وهذا يدل على صعوبة التحرك في تلك المرحلة وشدة الملاحقة المتواصلة التي يمارسها الاحتلال ضد رجال المقاومة -، واستمرت المواجهة غير المتكافئة عدة ساعات متواصلة انتهت باستشهاد المجاهدين ومقتل جندي وإصابة آخرين، وأثناء الحدث هدمت الجرافات العسكرية الضخمة المبنى بكامله.

٧. اغتيال نصر جرار:

وكان قد أصيب في بداية انتفاضة الأقصى المباركة أثناء عمله الجهادي، مما أدى إلى بتر بعض أطرافه، فصارت حركته صعبة وشاقة، ومع ذلك تمكن من مواصلة مشواره الجهادي في ظل ظروف أمنية معقدة تمكن خلالها من الإفلات من قبضة المحتلين، ثم تصاعدت عمليات ملاحقته والتضييق عليه إلى أن تم حصاره داخل منزل في بلدة طوباس القريبة من جنين، ورفض نصر الاستسلام وقاتل رغم عدم قدرته على الحركة، واستعملت قوات الاحتلال إجرامها المعهود وعنفها المعتاد حتى استشهد نصر بعزة وكرامة.

٨. اغتيال علي علان:

مجاهد من مدينة بيت لحم انتقل إلى نابلس، وهناك التحق بكتائب القسام وتعلم من خبرات المجاهدين فيها، وشارك في العديد من نشاطات المقاومة فيها، واعتقلته السلطة الفلسطينية خلال الانتفاضة المباركة ثم خرج ليعاود مهامه، وكانت الخطة العامة تقضي بعودته إلى مناطق الجنوب لتفعيل العمل في منطقته، وتمكن من الوصول بأمان رغم خطورة الطريق وكثرة الحواجز العسكرية المنتشرة فيها، وبينما كان علي يبيت في منزل أحد إخوانه في قرية "مراح رباح" القريبة من بيت لحم، جاءت قوات الاحتلال لاعتقال صاحب البيت المعروف بعلاقته مع حماس دون أن يكون لديهم علم مسبق بوجود المجاهد علي في ذلك المكان، وبدأت عمليات التمشيط المعهودة داخل المنزل، ولما رأى علي قربهم منه بادر بالهجوم عليهم وقاتلهم بكل بسالة فأوقع فيهم إصابات عديدة اضطروا بعدها إلى التراجع ومواصلة قصفه عن بعد حتى استشهد، ثم قاموا بهدم البناية كلها التي كان يتحصن فيها.

وهذه حاله أخرى نجح فيها العدو في عملية الاغتيال لكنه لم يخطط لذلك مسبقاً.

٩. اغتيال مهند الطاهر وعماد دروزة:

توالت الاجتياحات لمدينة نابلس، واشتد الطلب على مهند حتى صار المطارد الأول لجنود الاحتلال، وتمكن من التحرك والتملص في مرات عديدة، حتى تم حصاره داخل بناية في منطقة المساكن الشعبية شرقي نابلس، وبدأت قوات الاحتلال تطالبه بالاستسلام عبر مكبرات الصوت، لكنه آثر المواجهة والقتال واستخدم كل ما لديه، وكان برفقته المجاهد عماد الذي شاركه في التصدي للمهاجمين، وبعد مواجهات وقصف للمبنى استشهد المجاهدان وقام العدو بهدم البناية كلها بعد ذلك، وهو مشهد تكرر مرات كثيرة حتى بعد تأكد المحتل من قتل المجاهدين، وذلك تعبيراً عن مدى غيظهم من حجم المواجهة ومدى الجرأة التي يتمتع بها مجاهدو حماس.

▪ حالات اغتيال في المناطق المفتوحة:

اعتاد عدد من مطاردي حماس أن يعيشوا فترات طويلة في الجبال، وأن يلجئوا إلى المناطق المفتوحة البعيدة عن البيوت والمناطق المعمورة كلما ضاقت عليهم الأمور، دافعهم في ذلك معرفتهم بالأرض وتضاريسها مع جهل عدو طارئ على الوطن.

ويرافق ذلك قلوب مخلصة رقيقة تحاول قدر المستطاع أن تجنب الناس عواقب إيواء المطاردين واستقبالهم في بيوتهم، خاصة بعدما رأوا حجم الإجرام والانتقام الذي يمارسه العدو ضد المواطنين وممتلكاتهم في كل مرة يتواجد فيها المطاردون عندهم أو بالقرب منهم، ولذلك بدأ المحتلون في مراقبة هذه المناطق المفتوحة والقيام بعمليات تمشيط واسعة فيها بين الحين والآخر إضافة إلى قيام الطائرات بقصف عشوائي لمناطق واسعة يشتبه بوجود المجاهدين فيها خاصة في المغارات والمناطق الجبلية.

وقد جرت العديد من عمليات الاغتيال في هذه المناطق نذكر بعضها على سبيل المثال:

١. اغتيال نصر عصيدة:

وهو رجل الجبال الذي أرهق العدو، والذي اعتاد على مهاجمة جنود المحتل ومستوطنيه وأوقع بهم خسائر فادحة، فبذلوا في المقابل جهوداً جبارة للوصول إليه، ولكن ذكاءه وحسّه الأمني وخفة حركته وكثرة صمته ساعده على البقاء فترة طويلة، وكان يتنقل في مناطق شاسعة وحيداً في أحيان كثيرة، حتى وصل ذات يوم إلى أطراف قرية باقة الحطب قضاء قلقيلية واتخذ لنفسه مكاناً بين الأشجار حفر فيه موقعاً خاصاً يختبئ فيه، فقامت قوات كبيرة من المحتلين بعملية تمشيط واسعة في المنطقة فيما يبدو أنه بناءً على معلومات بوجود بعض المجاهدين في المكان، ولكنّهم فشلوا في الوصول إليه، فهو في هذه الحالات لا يكثر من التحرك والتنقل وله جلد وصبر مميز في الثبات في موقع واحد ضيق إذا لزم الأمر.

وكاد أن ينجوا لولا استعانة الجنود بالكلاب المدربة في البحث، حيث عثر عليه أحد هذه الكلاب الخاصة فانكشف مما اضطره إلى إطلاق النار عليه وقتله، ثم بدأ المواجهة المباشرة مع جنود الاحتلال حتى لقي اللّه شهيداً.

٢. اغتيال طاهر جرارعة وإياد حمادنة:

وهما من مجاهدي حماس من أبناء قرية عصيرة الشمالية، وكان لهما دور معروف في المقاومة، ومواقف مشهودة في الجهاد، وتعرضا للسجن ثم للمطاردة والملاحقة، ولما تواصل توغل جيش الاحتلال في مدينة نابلس وأطبق الحصار عليها اختار المجاهدان الانتقال إلى المناطق الجبلية القريبة من قريتهما رغم أنها منطقة تحظى بالكثير من تركيز العدو، وكانت طائراته تحلق فوقها بكثافة وتقصفها في بعض الأحيان.

وفي وقت لاحق تمكن العدو من كشف مكانهما وقام ببدء الهجوم عليهما مستخدماً أفتك

الأسلحة والمعدات الحربية، فقاوم المجاهدان بكل قوة وتواصلت الاشتباكات، ولم يغادر هذان المقاتلان الدنيا قبل أن يوقعا عدداً من الإصابات بين جنود الاحتلال.

٣. **اغتيال محمد عزيز الحاج علي:**

محمد عزيز مجاهد مميز ومقاتل من الطراز العنيد، تدرّب لدى المقاومة في لبنان، ورجع إلى قريته جماعين قرب نابلس بنية الجهاد، حيث بادر إلى تشكيل مجموعة من أبناء بلدته، وشارك في العديد من العمليات الجريئة ضد جنود الاحتلال والمستوطنين، وقتل بيده عدداً منهم وأصاب آخرين، فقد تميز بقدرته على القنص ودقة التصويب.

وقد تحول إلى حياة المطاردة بعد كشف أمره واعتقال بعض المجاهدين العاملين معه، فانتقل إلى نابلس حيث تم دمجه في كتائب القسام ليصبح أحد كوادرها وقادتها الميدانيين، وكان قد ترك خلفه زوجة وطفلتين، واختار كغيره من مجاهدي حماس حياة الجبال والوديان، فقد عرف بصلابته وشدة بأسه، وحين تواجد ذات مرة في منطقة قريبة من بلدته وكان برفقة عدد من المطاردين الكبار من أبناء القسام منهم نصر عصيدة ومهند الطاهر اضطر محمد إلى دخول قريته لإحضار بعض الطعام واللوازم له ولإخوانه وفضل الذهاب وحده لما في ذلك من مخاطرة، ويبدو أن بعض العيون قد رصدته حيث تمت مهاجمته من قبل قوات الاحتلال المنتشرة في كل المناطق في تلك المرحلة حين كانت اجتياحات المدن على أشدها وفي أوج قوتها، فاشتبك معهم وحده وقاتل حتى استشهد، في حين تمكن بقية المجاهدين من الابتعاد عن المكان والنجاة من كمين العدو، وهذا نموذج آخر للفداء يقدمه رجال القسام وقادتهم.

▪ أسلوب القنص عن بعد:

حيث تقوم وحدات متخصصة عالية التدريب في جيش الاحتلال بالتمركز في مناطق محددة بعيدة نسبياً عن الهدف وتقوم بإطلاق النار عن بعد وبطريقة مفاجئة ومباغتة.

وهو أسلوب يحتاج إلى رصد مسبق ومتابعة حثيثة للهدف وتتبع لخطواته وتحركاته، كما أن تنفيذ الاغتيال لا يحتاج إلا إلى وقت قصير جداً يصعب معه على الهدف الإفلات والابتعاد خاصة إذا كانت الإصابة دقيقة ومباشرة.

وإن أفضل طريقة قد يتبعها المجاهد في محاولته للتخلص من هذا الأسلوب هي الابتعاد الكلي عن الحياة الروتينية الرتيبة اليومية، بحيث يبدل عاداته وتحركاته وأوقات خروجه ودخوله المنزل ويغيّر الطرق التي يسلكها للوصول إلى المكان ذاته، وهذا الأمر مطلوب من المجاهد سواء كان مطارداً أم لا، وكونه جزء من العمل الجهادي يحتم عليه التعامل ضمن هذه القاعدة حتى لو تأكد أن الاحتلال لا يعرف شيئاً عن نشاطاته وفعالياته في المقاومة، والقاعدة الذهبية في هذا المجال هي: "خير عادة أن لا تكون أسير عادة".

وعندنا حالتان معروفتان تم فيهما الاغتيال بهذه الأسلوب:

1. **اغتيال الشهيد محمود المدني:**

مجاهد من مخيم بلاطة، كانت له صولات عديدة في المقاومة في مراحل متعددة، واعتقل أكثر من مرة، وتعرض إلى عملية تحقيق شديدة وقاسية في مراكز الأمن الصهيونية فصمد وصبر.

عرف بين الناس بأخلاقه العالية وابتسامته المعهودة وحبه لخدمة إخوانه، رجل روحاني قلبه معلّق بالمساجد، يلبي نداء دعوته كلما طلبته ولا يتردد ولا تردعه المحن عن مواصلة الطريق، حتى إذا جاءت انتفاضة الأقصى كان من أوائل من شارك في العمل الجهادي وترك بصماته عليه، ولمّا علم الاحتلال بدوره في بعض العمليات القتالية خطط لقتله، وأثناء مروره في أحد الشوارع في أطراف المخيم الواقع في مناطق السلطة الفلسطينية - وذلك قبل بدء الاجتياحات الصهيونية لها- أطلق الجنود النار عليه عن بعد من مكان يخضع للسيطرة الكاملة لقوات الاحتلال فأصيب إصابة مباشرة، واستشهد لاحقاً أثناء علاجه في المستشفى، وقد تم الأمر في وضح النهار بعد عملية مراقبة ومتابعة في أغلب التقديرات.

2. **اغتيال عبد الرحمن حماد:**

وهو من مدينة قلقيلية، وأحد كوادر حماس المعروفين فيها، وكان له دور كبير في نشر الحركة في المنطقة والدفاع عنها، سجن مرات عديدة وكان من ضمن المبعدين إلى مرج الزهور في جنوب لبنان، عرفه إخوانه بدعابته اللطيفة ومشاعره الأخوية الصادقة، مع محافظته على جدية في العمل وهمة واستعداد دائم لأداء دوره المنوط به، وهو من جهة أخرى رجل روحاني من أهل القرآن والذكر، شديد وصلب عندما يتعلق الأمر بالتعامل مع عملاء الاحتلال، وهو يرى فيهم سبباً رئيسياً لما يصيب الشعب من بلاء ودمار.

وما إن جاءت انتفاضة الأقصى حتى أخذ مكانه بين المجاهدين، فكان من أعمدة المقاومة في منطقته، وحوله يلتف المقاتلون يرون به قدوة لهم، ينظم صفوفهم وينسق تحركاتهم، ولما أدرك الاحتلال أثره على العمل الجهادي في المنطقة وعلاقاته مع المجاهدين في مدن أخرى صمم على اغتياله.

وتم ذلك من خلال عملية قنص استهدفته أثناء وجوده فوق منزله فأصابته الرصاصات المجرمة مما أدى إلى استشهاده.

❖ ملاحظات حول الاغتيالات

١. هناك وسائل وأساليب أخرى استخدمها الاحتلال في اغتيال رجال المقاومة، كما يمكن له أن يبتكر طرقا أخرى جديدة، خاصة مع فقدانه لأي رادع أخلاقي أو إنساني، لكننا هنا تطرقنا إلى ما حصل ضد "كتيبة الشمال" على وجه الخصوص، دون الحديث عن أحداث تمت ضد أبناء حماس في مناطق أخرى، أو تلك التي تمت ضد مقاتلي الفصائل الفلسطينية المختلفة، على الرغم من أن الأساليب التي ذكرناها هي ذاتها التي استخدمت في أغلب الحالات وفي جميع المناطق ضد رجال المقاومة على اختلاف انتماءاتهم.

٢. لم يتم استقصاء كل حالات الاغتيال ضد " كتبية الشمال"؛ وإنّما تم الاكتفاء بذكر بعض النماذج على كل أسلوب اتبعه الاحتلال.

٣. ثبت من خلال عمليات التحقيق والمتابعة والتحليل أن صف الكتائب كان نقياً من الناحية الأمنية، رغم كثرة حالات الاغتيال، وأن الأمر في معظم الأحيان متعلق ببعض الأخطاء أو التقصير في الاجراءات الأمنية، أو الاستخفاف أحياناً بقدرات العدو، أو عدم توقع حجم الاجرام لديه، كما ساعد في نجاح هذه الاغتيالات الامكانيات الهائلة والموازنات غير المحدودة التي يمتلكها العدو، سواء من خلال مراقبة الاتصالات السلكية واللاسلكية، أو استخدام الطائرات خاصة تلك التي بدون طيار والتي لم تكن تغادر سماء المدن وما حولها وهي تقدم صور مباشرة عن كل المنطقة، إضافة إلى الأقمار الصناعية التي تقوم بعمليات التجسس والتمشيط والتصوير أيضاً، ولاننسى عملاء العدو المنتشرين بشكل واسع وهم موجودون في شرائح اجتماعية مختلفة، والذين استطاع الاحتلال تجنيدهم لنقل المعلومات ومراقبة المجاهدين والمساهمة في عمليات اغتيالهم واعتقالهم في بعض الأحيان، وفي المقابل لا تملك المقاومة سوى إمكانيات محدودة وقدرات بسيطة في مجال حماية المجاهدين وتأمين تحركاتهم، وهي تعتمد في معظم الحالات على أخذ الحيطة والحذر والحرص على انتقاء العناصر النقية والأمينة.

٤. تميز مطاردو القسام بجرأة وصلابة عندما يتم حصارهم، فهم يرفضون الاستسلام أو الخنوع، وقد تمكنوا في حالات كثيرة من إيقاع خسائر واضحة في صفوف العدو بين قتلى وجرحى، واتضح صمودهم من خلال استمرار المواجهات والاشتباكات لساعات طويلة، وبرزت عندهم روح الفداء والتضحية حيث جرى في حالات عديدة أن تمكن عدد من المجاهدين من النجاة بينما يتطوع أحدهم للمواجهة المباشرة مع العدو للتغطية على عملية انسحاب إخوانه.

٥. كشفت عمليات الاغتيال عن مدى حقد الاحتلال على"كتيبة الشمال "؛ بسبب دورها المميز في المقاومة، وظهر ذلك من خلال عدد حالات الاغتيال خلال فترة زمنية محدودة نسبياً، إضافة إلى مقدار العنف والاجرام الذي استخدم في عمليات الاغتيال.

٦. عادة نحن نتذكر حالات الاغتيال التي نجح العدو في تنفيذها، بينما توجد حوادث كثيرة فشل فيها العدو في تحقيق هدفه، ويتمثل ذلك ابتداء في نجاح المطارد في البقاء فترة طويلة على رأس

عمله الجهادي قد تصل إلى عدة سنوات، يبذل خلالها الاحتلال كل إمكاناته للوصول إلى المجاهد دون جدوى، ومن جهة أخرى يخفق الاحتلال في عمليات اغتيال كثيرة حتى بعد تحديد موقع المطارد بشكل دقيق، حيث يتمكن المجاهدون من النجاة أو ينجح بعضهم على الاقل من الإفلات من قبضة المحتل، **والأمثلة هنا متعددة ومتنوعة:**

- منها القائد محمود أبو هنود الذي طاردته قوات الاحتلال لسنوات طويلة بعد أن صنفته المطلوب الأول لديها بينما تمكن هو من التنقل في مختلف مدن الضفة ومواصلة عمله الجهادي، وجرت عدة محاولات فاشلة لاغتياله قبل أن يستشهد في آخرها، وكان من أشهر الحوادث التي حصلت معه حصاره داخل عصيرة الشمالية بشكل مطلق وتمكنه من الفرار مصاباً بعد أن أوقع ثلاثة جنود قتلى في صفوف القوات المحاصرة له، وفي مرة ثانية خرج سليماً معافى بعد قصفه بالطائرات الحربية أثناء اعتقاله في سجن نابلس لدى أجهزة السلطة الفلسطينية.
- كما نجا المجاهد نصر عصيدة عدة مرات أيضاً بعد أن تمكنوا من حصاره والاقتراب منه، إحداها يوم كان في منزل آل ريحان واستشهد محمد يومها، ومرة بعد تنفيذ عملية "عمانوئيل الثانية" حيث استشهد مرافقوه بلال الأقرع ومأمون قادوس وعثمان قادوس بينما تمكن نصر من الابتعاد بسلام من المكان، ومرة ثالثة هاجمته قوات العدو حين كان مع بعض إخوانه قرب قرية عزموط شرقي نابلس وأطلقوا عليهم زخات كثيفة من الرصاص أثناء سيرهم ليلاً فأصيب القائد أمجد السايح واعتقل، بينما تمكن نصر من الهروب رغم إصابته.

خير فات .. وأمل آت:

هذه تجربة شخصية أكتبها اليوم بعد تردد طويل، سببه تربية إسلامية عشناها في ظل حماس عنوانها: "إنكار الذات".

لكني رأيت فيها بعض فائدة توضح صورة الإجرام الصهيوني وتعريه من كل معاني الإنسانية والأخلاق، كما يمكن للمرء من خلالها أن يتفهم مشاعر المجاهدين الذين يتعرضون لمثل هذه الحالات، فيتمكن حينها من استيعاب ردّات أفعالهم وإدراك أبعاد تصرفاتهم، وأن يعي أن الإنسان حين يكون في مرمى النار يختلف تماماً عن آخر يرى الأمور من بعيد أو قريب.

كما أن في هذه التجربة دليل واضح يضاف إلى أدلة أخرى واقعية وإثباتات شرعية وعقلية بأن الموت والحياة بيد الله وحده، وفيها يتجسد قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفّت الصحف)). وأن الاحتلال مهما بالغ في إجرامه وأسرف في قوته وتمادى في تهديداته فإنه أعجز من قتل إنسان واحد إذا أراد الله أمراً آخر.

كان ذلك أثناء الحملة العسكرية الواسعة التي أطلق عليها العدو اسم"السور الواقي في العام٢٠٠٢م والتي جاءت إثر تصاعد هجمات المقاومة وزيادة عدد خسائر الاحتلال، وتم إقفال مدينة نابلس من عدة مداخل ثم بدأت عملية تمشيط دقيقة امتدت في كل أنحائها حتى وصلت إلى مخيم عسكر القديم، فاخترت الصعود نحو الجبال برفقة بعض إخواني وسرنا ساعات طويلة، وبعد أن بتنا ليلة في الجبال وصلنا إلى بيارة حمضيات في منطقة النصارية القريبة من الأغوار، حيث دخلناها بطريقة سرّية وبتنا فيها ليلة أخرى دون علم أحد.

وبعد أن مكثنا فترة قصيرة تناولنا خلالها وجبة الغداء جلسنا تحت الأشجار في صف واحد، وكنّا خلال الوقت كله نراقب المكان ونتناوب على الحراسة نهاراً وليلاً. وفجأة صدر صوت رنين من جهاز الخلوي الخاص بي يشير إلى وصول رسالة قصيرة، وقبل أن أتناوله من يد أحد إخواني الذي مرره إليّ، أطلق باتجاهنا صاروخ من طائرة حربية مقاتلة من طراز F١٦، وبعد ثوان معدودة أطلقت الطائرة صاروخاً آخر ليقع على مسافة قريبة من مكاننا، وعلى الفور ظهرت في السماء اثنتان من الطائرات المروحية الحربية، وبعد أن قامت بعمليات إنزال للجنود حول المكان، بدأت بتمشيط المنطقة من خلال القصف واستخدام المدافع الرشاشة الثقيلة، وتركز على كل شيء يتحرك هنا أو هناك في عملية إجرامية استمرت ما يقارب نصف ساعة، ومن ارتفاع منخفض بحيث كان يمكن رؤية الطيارين بشكل واضح.

وبعد أن هدأت حدة النار وكثافتها حاولنا التسلل بعيداً عن المكان الذي اكتشفنا أنه كان محاصراً بالعديد من آليات الاحتلال وعشرات الجنود المنتشرين في كل مكان، فوقعنا في الأسر، وكانت النتيجة استشهاد اثنين من سكان المنطقة والذين ليس لهم أية علاقة بنا، بينما أصيب بالصواريخ وإطلاق النار ثلاثة من إخواني، وقدّر الله أن أخرج سالماً معافى.

وعلى الفور بدأ التحقيق الميداني من قبل ضباط المخابرات الذين شاركوا في العملية، كما تمت عمليات تمشيط بواسطة الجنود والكلاب المدربة بحثاً عن أخ آخر تمكن من الفرار من الموقع، وتبيّن لاحقاً أن الحملة تلك كانت بقيادة اثنين من كبار الضباط في جيش الاحتلال.

فانظر إلى حجم القوة والإجرام التي يستخدمها العدو للوصول إلى شخص واحد بعد حصاره، وإلى الكم الهائل من الإمكانيات والقدرات التي توظف في مثل هذه الأعمال.

ويقدّر الله عدم لحاقنا بالسبّاقين إلى الجنّة، الذين ذهبوا إلى ما يحبّون، وذهبنا إلى ما نكره، ويبقى الأمل بلقائهم يلازمنا، ونيل ما حققوه حلم يراودنا، وكلّ شيء مقدّر عند ربّنا.

الفصل الرابع

مراجعات

مراجعـــات

أحاول في هذه المراجعات الإشارة إلى بعض النقاط في عمل المقاومة في انتفاضة الأقصى المباركة على وجه الخصوص، وذلك من خلال التجربة الشخصية مع ذكر بعض الملاحظات منطلقاً من الحرص على نقاء المقاومة وتقدّمها، مع الأمل بأن تحقق أهدافها التي انطلقت من أجلها.

الانتفاضة كانت خطوة صائبة:

يثور بين العديد من الأوساط الفكرية والشعبية تساؤل حول مدى صوابية انتفاضة الأقصى المباركة، وهل كان مسارها وتطوّرها في صالح الشعب الفلسطيني؟ وهل الخسائر والأضرار البشرية والمادية التي قدمت خلالها توازي إيجابياتها وإنجازاتها على الصعيد الوطني والسياسي؟

وحين تأتي هذه التساؤلات من محب حريص فهي معقولة، ولعل من واجب المقاومة أن تجري مراجعات دائمة، وأن تعيد تقييم المواقف والخطوات باستمرار، لكن هذه التساؤلات المشروعة تصبح مرفوضة تماماً إذا قدمت بطريقة تشكيكية إحباطية انهزامية على لسان أشخاص معروفين مسبقاً برفضهم المطلق لمبدأ المقاومة إضافة إلى تقاعسهم الدائم عن المشاركة فيها في أي مرحلة من مراحل الصراع مع العدو، والقاعدة في ذلك أنه لا يحق لقاعد أن يشير على مجاهد في أمور الجهاد والمقاومة.

ولسنا هنا في معرض المقارنة بين سلبيات الانتفاضة وإيجابياتها، إذ إن هذا باب واسع ليس هنا مكانه.

وحسب الانتفاضة فضلاً أنها كشفت مهزلة اتفاقية أوسلو، وأظهرت خداع السراب الذي روّجه أصحاب مشروع التسوية، كما أنها تمكنت من إعادة بناء الحواجز النفسية بين شعبنا والاحتلال، لتعيد العلاقة إلى وضعها الطبيعي المبني على التناقض التام والرفض المطلق، وتحديد السياسة المنطقية في التعامل مع الاحتلال على قاعدة المقاومة والممانعة، ورفض التطبيع.

كما أن الانتفاضة ساهمت على الصعيد الداخلي في إعادة صياغة موازين القوى، بحيث تصاعدت وتنامت شعبية فصائل المقاومة، وازداد أثرها في الساحة الفلسطينية، وأخذت دورها اللائق بها في اتخاذ القرار السياسي الفلسطيني، في مقابل تراجع أصحاب مشروع التسوية وتناقص ثقة الشعب الفلسطيني بهم وبنهجهم.

أما على مستوى الأرض فقد أجبرت انتفاضة الأقصى والمقاومة دولة الاحتلال على سحب جنودها من قطاع غزة، مع تفكيك جميع المستوطنات وإخلاء من فيها إلى خارج حدود القطاع في سابقة تحدث للمرة الأولى منذ الاحتلال عام ١٩٦٧م.

ثم إن صمود الشعب الفلسطيني أمام إجرام المحتل وبطشه أوصل جميع الأطراف المعنية بالصراع إلى قناعة مفادها أن هذا الشعب لا يمكن تركيعه بالقوة أو فرض خيارات خارجية عليه رغماً عنه، وهذا لا ينفي بطبيعة الحال الخسائر التي مني بها الشعب الفلسطيني ولا حجم المعاناة والضرر الذي وقع على الناس، لكن مقارنة واقعية عقلانية منطقية بين كافة الجوانب والمحاور ستؤكد أن خيار انتفاضة الأقصى كان صائباً وسليماً.

الانتفاضة بين الموقفين الشعبي والرسمي:

إحدى السلبيات الكبيرة التي رافقت الانتفاضة وما تضمنته من مقاومة تمثلت في التباين الواضح والدائم بين الموقف الشعبي الفلسطيني ومعه فصائل المقاومة من جهة وبين الموقف الرسمي الذي تتبناه قيادة السلطة الفلسطينية وقيادة منظمة التحرير من جهة أخرى.

ففي حين رأت قوى المقاومة أن الجهاد والصمود هو الوسيلة المؤدية لاسترجاع الحقوق الفلسطينية، تعاملت القيادة الرسمية مع كل الأحداث من منطلق تحسين وضعها التفاوضي مع الاحتلال، وهذا ما دفعها إلى الموافقة التامة والسريعة على كل خطة أو مشروع سياسي يطرح لحل الصراع في مقابل تحفظات ورفض من قبل دولة الاحتلال.

وهذا يفسر قلة الانجازات السياسية العملية التي حققتها الانتفاضة والمقاومة والصمود.

العمليات الاستشهادية:

العمل الاستشهادي من أنبل الظواهر وأكرمها، والإستشهاديون هم القمم، وقد أحسنت المقاومة في انتفاضة الأقصى إذ جعلت فكرة الاستشهاد والتضحية ثقافة شعبية عامة، كما يسجل لحماس وهي الرائدة في هذا النوع من العمل المقاوم تأثيرها على بقية الفصائل والقوى وجعلها تتبنى هذا العمل في مقارعة الاحتلال، غير أن هذه المسألة لها وجه آخر ينبغي الإشارة إليه.

من المعلوم أن أهل المقاومة يعتبرون العمل الاستشهادي بمثابة "سلاح استراتيجي"، فعدوّنا يمتلك الطائرات والصواريخ والدبابات وغيرها من الأسلحة الفتاكة الإستراتيجية، ونحن حاربناه بأجسادنا، إذ إن الاستشهادي هو عبوة ذكية متنقلة واعية مدركة يمكنها اختيار المكان والزمان بدقة بحيث تحقق نجاحاً مميزاً يربك العدو، كما أن الاحتلال لا يمتلك حلاً جذرياً لقضية الاستشهاديين، وهذا ما صرّح به زعماؤهم حين قالوا ماذا نفعل مع إنسان يريد أن يموت، بأي شيءٍ يمكن أن نهدده ونردعه؟! فجرّبوا هدم البيوت ومعاقبة الأهل، ولكن دون جدوى.

وما دام هذا السلاح بهذه الأهمية من وجهة نظر المقاومة، وبهذا الأثر على العدو، فهذا يؤكد على أن استخدام هذا السلاح يجب أن يكون بحكمة وذكاء، وأن يخضع إلى معايير وضوابط تحافظ على تميزه وقدسيته وبريقه وأثره العملي وأبعاده النفسية على أطراف الصراع.

ولهذا فإن قرار استخدامه يجب أن يكون بيد قيادة المقاومة التي تعي كل هذه الأبعاد وتدرك كل هذه المستلزمات، وعليه فالأصل اختيار المكان المناسب وتحديد الوقت الملائم وانتقاء الظرف الأنسب حتى يحقق كل عمل استشهادي أكبر قدر ممكن من الأثر.

والذي حدث في بعض مراحل انتفاضة الأقصى أن بعض المجموعات والفصائل تعاملت مع هذا السلاح بعيداً عن الضوابط التي أشرنا إليها، ففي بعض الأحيان لم يتم اختيار الشخص المناسب للتنفيذ، فوقعت أخطاء وتكررت إشكالات أدت إلى فشل كثير من هذه العمليات، الأمر الذي أحدث نوعاً من الإحباط والتردد في الصف الفلسطيني، مقابل شعور بالنشوة والنصر لدى العدو، الذي صار يروّج لنجاحه في الحد من فعالية هذا السلاح في أيدي المقاومة.

إن مما يزيد قوة هذا العمل أن تكون له في كل مرة رسالة واضحة مباشرة يستوعبها الأعداء أنفسهم قبل غيرهم، فيتيقنوا أن هذا العمل جاء مبرراً كرد فعل على جريمة واضحة ارتكبتها حكومتهم، وقد أحدثت مثل هذه العمليات إرباكاً نفسيا وجدلاً داخلياً بين الجماهير في دولة الاحتلال كلما كانت رد فعل على مجزرة ما أو اغتيال قائد محدد من المقاومة.

وقد كانت هذه المسألة واضحة في عمليات الثأر التي قادها القائد يحيى عياش رداً على إجرام العدو في مجزرة الحرم الإبراهيمي في الخليل في العام ١٩٩٤م، بل إن بعض الأصوات لدى الصهاينة استوعبت على الأقل عمليات الرد الأولى على اغتيال عياش عام ١٩٩٦م، مستشعرين أن حكومتهم هي التي استفزت حماس بهذا العمل، خاصة مع وجود عياش في غزة الخاضعة للسلطة الفلسطينية حينها.

وما يؤكد صحة هذا القول أن الدعاية الرسمية لدولة الاحتلال دأبت خلال انتفاضة الأقصى على ترديد مقولة أن المقاومة الفلسطينية تقوم بهذه العمليات الاستشهادية كلما سنحت لها الفرصة لذلك، وأن الأمر لا يتعلق برد على جرائم المحتل، ويبث هذه الفكرة في أوساط شعبه أولاً ثم لدى الرأي العام العالمي.

وخلاصة الأمر أن مثل هذا العمل لا يصح أن يكون مفتوحاً على مصراعيه، بل يخطط له ليحقق الأثر الأكبر على جميع الأصعدة.

تركيز المقاومة في الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧م:

مقاومة الاحتلال مشروعة ومقبولة ومبررة في كل أنحاء فلسطين، وحيثما تواجد المحتل جازت محاربته، وهذا حق لا جدال فيه، لكن المقاومة المبصرة تتطلع دوماً إلى أفضل النتائج وفق حساباتها الخاصة، واختيار الساحة التي نقارع فيها العدو لها أهمية خاصة في وضعنا الفلسطيني بسبب كثرة تعقيداته المحلية والإقليمية والدولية.

والمقاومة ابتداءً لا تعطي العدو هدايا مجانية، ولا تقدم له بوادر حسن نية، فهي لا تحظر على نفسها ممارسة العمل في أي شبر من أرضنا الكاملة، وهي لا تتنازل عن حقها في العمل في أي ميدان إلا في مراحل محدودة مؤقتة وفق شروط واضحة تحقق فيها مصالح عامة للقضية الفلسطينية، ومع ذلك فإن تركيز العمل "لا تحديده" في أراضي عام ٦٧ فيه الكثير من الفوائد لمشروع المقاومة، خاصة أن هذه الأراضي تعتبر محتلة من وجهة نظر كل الأطراف، وبالتالي فإن المقاومة فيها تعتبر شرعية بحسب القوانين والمواثيق الدولية، كما أن حركة المقاومين في هذه المناطق أسهل وأيسر وهم يعرفون الطرق والمسالك أفضل من عدوهم، وهذه الأمور كلها ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار، والقرار جماعي للقيادة في كل تحرك وعمل.

أهمية اختيار الأهداف:

من واجب المقاومة أن تحسن اختيار أهدافها في كل مرة، وأن ترصد ردات الفعل وترقب الأثر لأفعالها، ثم تصوب وتطور للوصول إلى أفضل النتائج، والمراقب الموضوعي كما المجرب الواعي يدرك أنه على الرغم من مشروعية كل الأهداف في جانب العدو إلا أن ضرب جنوده وآلياته الحربية ومراكزه العسكرية له أثر خاص، إذ إن هذا الأمر يفت في عضدهم ويحطم معنويات جنودهم كما يكسر جبروتهم وغطرستهم، ثم هو يكشف حقيقة جبنهم وضعفهم، ويبين مدى تمسكهم بالحياة بكل ثمن، كما يضعف ثقة شعب الإحتلال بالجهة المكلفة بحمايته.

وإن مثل هذه الأعمال تثير جدلاً واسعاً في صفوف المحتلين، فتتشكل لجان تحقيق بعد كل حادثة من هذا النوع، ويبدأ كل طرف لديهم بتوجيه اللوم للطرف الآخر، وتتناول وسائل إعلامهم الأمر بالتعليق والتحليل وتثير تساؤلات جوهرية عن أسباب فشل جنودهم في الدفاع عن أنفسهم، وفي بعض الأحيان يضطرون إلى الاعتراف والإقرار بقدرة المقاومة وجرأة عناصرها، وكفاءتها في التدريب والتخطيط والتنفيذ، وأبرز مثال يوضح هذه الأبعاد يتمثل في عملية "الوهم المتبدد" التي نفذتها المقاومة بقيادة حماس فقتلت بعض الجنود وخطفت أحدهم في العام ٢٠٠٦م وذلك قرب حدود غزة .

وهذه الأعمال التي تستهدف جنود الإحتلال تضعف موقف الرافضين لمبدأ المقاومة على المستوى الداخلي والدولي، وهم وإن أصرّوا على معارضة هذا النوع من العمل أيضاً فإن حجتهم في ذلك أضعف ومنطقهم أبعد عن الواقع، وهذا يساهم في كشف زيف هؤلاء أمام الناس. أما على مستوى الشعب الفلسطيني وأنصار المقاومة على وجه الخصوص فإن هذا الأمر يشفي صدورهم ويزيد ثقتهم بمشروع المقاومة، كما أن ذوي الشهداء والجرحى والمتضررين يجدون نوعاً من المواساة وشعوراً بالاستعلاء يعينهم على تحمل المعاناة والألم الذي سببه لهم الاحتلال.

مبدأ الردع وليس الثأر:

تخطئ المقاومة حين تصنف بعض أعمالها ضمن إطار الثأر فقط، فيما نرى أن المنطق والمصلحة تستلزم استدعاء فكرة الردع عند الرد على إجرام العدو، وهذا يتطلب اعتماد مبدأ التخطيط العقلاني الموزون بدل من الخطوات العاطفية السريعة، وكذلك التعامل مع قاعدة "التعامل بالمثل" وذلك من خلال إيصال رسائل واضحة للعدو تدفعه إلى إعادة حساباته، وإلى توقع خطوات محددة رداً على تجاوزه للخطوط الحمراء التي تنشأ بين أطراف الصراع دون اتّفاق رسمي عليها.

وعلينا أن نقرّ بأن المقاومة فشلت حتى الآن في التعامل مع مبدأ الردع في مسألة اغتيال القيادات السياسية الفلسطينية، الأمر الذي شجّع الاحتلال على تكرار الاغتيالات ومواصلتها لشعوره بأن ردة الفعل لن تتجاوز النشاطات العادية للمقاومة، وهو أمر يمكن احتماله، وثمن هو على استعداد لدفعه في هذه الحالة. وهكذا فإن المقاومة بحاجة إلى خطة مسبقة لتحقيق مبدأ الردع، وهو تقصير وخلل عجزت عن تجاوزه في معظم مراحل الصراع السابقة، ولعلها تجد له حلاً في المستقبل.

تضامن الأمة محدود نسبياً:

لا ينكر أحد دور الأمة الإسلامية وشعوبها في التضامن مع القضية الفلسطينية طيلة مراحل الصراع، فقد ساهمت في الدعم المادي والسياسي والمعنوي للشعب الفلسطيني، وأعربت عن تأييدها لمشروع المقاومة ووقوفها في وجه التطبيع مع العدو، لكننا سنطرق المسألة من جانبها الآخر.

وحيث انتشر بيننا القول بأن المقاومة الفلسطينية هي رأس الحربة بالنسبة للأمة في مواجهتها للمشروع الاستعماري الهادف لتركيعها ونهب خيراتها وإفساد ثقافتها وإبعادها عن جذورها وأصالتها، وأن هذا المشروع تقوده الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها في العالم، وهم لذلك يقدمون الدعم اللامحدود للكيان الصهيوني، مما يحتم على الأمة الإسلامية أن توفر كل إمكاناتها لدعم الطرف الذي يمثلها في هذا الصراع وهو المقاومة في فلسطين.

ومن الزاوية التي نعالجها هنا نرى أن الأمة وقواها وتنظيماتها المختلفة قد فشلت في الارتقاء

بمستوى تعاملها مع تطورات الصراع ضد الاحتلال الصهيوني.

ونستذكر جريمة إحراق المسجد الأقصى على أيدي اليهود عام ١٩٦٩م، حيث قالت رئيسة وزرائهم يومها "جولدا مئير" بأن ذلك اليوم هو أتعس أيام حياتها وذلك خشية من رد فعل الأمة الإسلامية، ولما تبيّن أن احتجاج المسلمين لم يكن بمستوى الفعل الإجرامي عادت واعتبرت أن ذلك اليوم هو من أسعد أيام حياتها. إذن.. فإن رد فعل الأمة على جرائم الإحتلال في فلسطين هو أحد عوامل الردع الأساسية إلى جانب مساهمة المقاومة الفلسطينية في هذه المسألة.

ويتبين من خلال تطور الأحداث في انتفاضة الأقصى المباركة أن الإحتلال قد تصاعد في عملياته الإجرامية وبالغ في مستوى القتل والتدمير والتخريب وشدد في حصار الشعب وتجويعه، بينما وقفت الأمة في ردات فعلها عند مستوى ثابت، فكانت مظاهر الاحتجاج لديها محدودة على عمليات قتل للأطفال أو مجازر جماعية أو تدمير واسع أو اغتيال قيادات ورموز الشعب الفلسطيني وعلى رأسها الشيخ أحمد ياسين، وتعاملت مع هذه الأحداث بعاطفة أكبر وأحزان أعمق، ولكن بفعل لا يرتقي إلى المستوى المطلوب الذي يجبر الإحتلال على التفكير الحذر قبل معاودة ارتكاب مثل هذه الأفعال المتنوعة من الإجرام، ولعل للأمة بعض العذر في ذلك لكثرة مشاكلها وهمومها الخاصة، وبسبب تسلط أنظمة قمعية ظالمة عليها، لكن الأمر المؤكد أن الأمة تمتلك من القدرات أكثر من هذا الذي ظهر حتى الآن، ولعل المقاومة الفلسطينية وحماس في مقدمتها تضاعف جهودها لحث الأمة واستنهاض طاقاتها في التضامن مع الشعب الفلسطيني، وحضها على بذل مزيد من الجهد لتحقيق مبدأ الردع.

خطابنا الإعلامي والحرب النفسية:

ونقصد به ذلك الجانب الموجه إلى العدو، والذي يتطلب بالضرورة استخدام لغته العبرية، والتعرف على طبيعة هذا الشعب ومكوناته وتناقضاته، والبحث عن مواطن ضعفه ومشاكله، وكذلك اهتماماته وحاجاته الأساسية، مع أهمية فهم تطلعاته وأولوياته الفردية والجماعية، ولا يجوز للمقاومة أن تتذرع بالمقولة الداعية الى اعتبار كل شرائح الشعب اليهودي كنموذج واحد، فهذا الأمر إن صحّ في بعض الجوانب المتعلقة بحقدهم وعنصريتهم فإنه لا ينفي تعدد توجهاتهم واختلاف نظرتهم إلى الأحداث والصراع الدائر بيننا وبينهم، كما أن بعضهم يرهبه التهديد والوعيد، بينما ينجح الخطاب الهادف المدروس في تشكيك آخرين بشرعية مشروعهم الاستعماري، وقد يتأثر البعض من دعاية موجهة تحذره من تدمير وضعه المعيشي ومستقبله الاقتصادي، وقد تتمكن الحكمة والمعرفة من توسيع الهوة بين صفوفهم وتعميق الاختلافات السياسية والعرقية والطبقية.

وهذه كلها صور للحرب النفسية التي قد تمارسها المقاومة فتعينها على كسب جولات في الصراع، كما أن هذا النوع من الخطاب الموجّه إلى شعب الاحتلال لا يهدف إلى فتح خطوط اتصال مع بعض الفئات بهدف البحث عن أفكار للتسوية كما فعلت بعض الفصائل الفلسطينية، ولكن الأمر لا يعدو كونه جزءاً من مشروع المقاومة الشامل المتكامل.

إن تطوّر وسائل الإعلام والتكنولوجيا اليوم لا يترك عذراً للمقاومة في هذه المسألة، خاصة بعد أن امتلكت البث الفضائي والإذاعي وعندها القدرة على استخدام شبكة الإنترنت وغير ذلك من الآليات التي تتيح للمقاومة أن تخاطب العدو وتتحدث مع جماهيره، في محاولة لرسم صورة أخرى للصراع مناقضة لتلك التي تبثها الدولة الصهيونية وأجهزتها الرسمية بشكل مستمر، وقد تصل الأمور إلى تحريض بعض الفئات ضد حكومتهم وجيشهم.

الحرب الاقتصادية:

الصراعات الحديثة تأخذ صفة الشمول، وتأتي الحرب الاقتصادية في مرتبة متقدمة في سياسة الحرب هذه الأيام، فنحن نرى كيف استخدم الإحتلال هذا السلاح ضد أبناء شعبنا خلال انتفاضة الأقصى على وجه الخصوص، حيث مارس الحصار الخانق لسنوات طويلة، كما دمر البنى التحتية للاقتصاد الفلسطيني، ودمّر مؤسسات العمل ومراكزه العامة والخاصة، وهدم آلاف البيوت وحارب البنوك وحال دون إدخال الأموال القادمة من الخارج، وأغلق الجمعيات الخيرية التي تساهم في رفع معاناة الناس، وقد وضعت لذلك خططٌ وبرامج مدروسة، وعقدت اجتماعات ومؤتمرات دولية لتطبيق سياسة الحرب الاقتصادية ضد الشعب الفلسطيني ودفعه إلى معارضة المقاومة ثم الاستسلام لمشاريع تصفية القضية.

بينما نجد أن المقاومة الفلسطينية لم تتمكن من وضع خطط معقولة وعملية وقابلة للتطبيق في مسألة إضعاف اقتصاد العدو وإنهاكه، على الرغم من أن هذا الجانب هو أحد نقاط الضعف الأساسية في المجتمع الصهيوني، لطبيعة الفطرة والنفسية الصهيونية المبنية على حب المال حباً جماً.

لقد كان من النتائج غير المباشرة للانتفاضة خاصة في أوج قوتها أن تراجع الاقتصاد الصهيوني، وتأثرت قطاعات كبيرة منه بشكل واضح مثل السياحة والاستثمار الخارجي.

لكن المقاومة مطالبة بأن تخصص جزءاً من نشاطاتها وقدرتها في الهجوم على الاقتصاد، واختيار الطرق والوسائل المناسبة لذلك، والأمر ليس ضرباً من الخيال لمن فكر وخطط ودرس وقرر، وكل نتائج تظهر ستكون مساهمة في استكمال مشروع المقاومة، ولو كان الأمر نسبياً في هذا الميدان فهو أفضل من ادّعاء العجز والقصور.

مسائل تخص حماس:

لقد أثبتت انتفاضة الأقصى المباركة أن انطلاق العمل الجهادي وتصاعده يحتاج إلى جملة من الأمور: على رأسها وجود قرار تنظيمي حازم وثابت، مهما كانت الظروف صعبة والإمكانات محدودة، وإنّ أصعب المعوقات في مسيرة المقاومة هي تلك التي تضعها هي بنفسها، بحيث تقنع ذاتها بعبثية المقاومة، أو تنتشر بين صفوفها فكرة استحالة البدء والمواصلة.

ومع بداية هذه الانتفاضة كان يمكن لأي دراسة مبنية على الأرقام والحسابات وتقدير الإمكانات ومقارنتها بالظروف الحرجة آنذاك أن تؤدي إلى نتيجة واحدة مفادها أن العمل سيفشل في التواصل إذا نجح في الانطلاق ابتداءً، لكن الذي ثبت أن قوة حماس الجهادية في الانتفاضة كانت هي الأشمل والأوسع والأكثر أثراً والأشد تنظيماً، وفي هذا عبرة لمن يعتبر.

ورغم نجاحات حماس وإنجازاتها فقد كان بإمكانها توسيع دائرة المجاهدين فيها – في الضفة على الأقل – إذ إنّ نسبة من ساهم في العمل الجهادي المباشر قليلة مقارنة بأعداد أبناء الحركة وأنصارها ومحبيها، فضلاً عن عامة الناس الذين أمكن ضمهم وإشراكهم في العمل.

أما على المستوى التنظيمي فإن من المعقول والمنطق – ورغم بعض المخاطر الأمنية– أن تكون قيادة العمل الجهادي في منطقة ما من داخلها خاصة إذا كان العاملون كثر في المكان، بينما يمكن للخارج أن يتعامل مع مجموعات صغيرة هنا أو هناك، في حين يحتفظ بدوره الأساسي الداعم والمنسق والراعي للعمل.

كما يفضل أن يكون على رأس الأمر شخص أو أكثر من أهل الخبرة والحكمة، وأن يكون من فئة عمرية مناسبة ومكانة تنظيمية ملائمة حتى يتمكن من إدارة المقاومة بحكمة ووعي لازمان لإنجاح المهمة.

الفصل الخامس

السبّاقون إلى الجنّة

السبّاقون إلى الجنّة

الشهداء.. رواد الجهاد والفداء:

حسب الشهداء أن الله رب السموات والأرض قد اختارهم لجواره، واصطفاهم من بين عباده المؤمنين المجاهدين، فهم صفوة الصفوة، ﴿ويتّخذ منكم شهداء﴾ آل عمران ١٤٠

ولمّا كانوا عند ربهم؛ فلا يحقّ وصفهم بالأموات، بل إن رزقهم لا ينقطع، وهذه صفة الأحياء﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ آل عمران ١٦٩.

بل إن الله نهانا أن ننسب الشهداء إلى الموت فقال: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ البقرة ١٥٤، ولأنهم أحياء حقّ لهم أن يحبّوا العودة إلى الجهاد وأن يتمنوا الشهادة مرات ومرات، (ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلاّ الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة) رواه الشيخان.

بل إن الله خفف عنهم أثر القتل في الدنيا (ما يجد الشهيد من مسّ القتل إلا كما يجد أحدكم من مسّ القرصة) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

ثم إن الله تعالى قد حفظ الشهداء وأمّنهم في المرحلة الفاصلة بين الدنيا والآخرة، فنجّاهم من فتنة القبر دون سواهم من المؤمنين، (سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله: ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة).

إذن فقد تكفل الله للشهيد بتخفيف الألم عنه حين يقتل في الدنيا، وبحفظه في حياة البرزخ في القبر، وبنعيم مقيم يوم القيامة، ثم رفع له ذكره، وباهى به ملائكته، وينتقل أثره الطيب إلى أهله، قال صلى الله عليه وسلم: (إن للشهيد عند الله ست خصال، أن يغفر له عند أول دفقة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلّى حلّة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه) .

واجبنا نحو الشهداء:

اعتدنا أن نعقد مهرجانات لتكريم الشهداء، ويظنّ البعض أنه بذلك قد أدى ما عليه تجاههم، وفي الأشهر الأولى لانتفاضة الأقصى المباركة دعونا الشيخ جمال منصور لإلقاء كلمة في واحد من هذه المهرجانات، فبدأ حديثه يومها قائلاً: "إننا لا نكرّم الشهداء؛ ولكننا نحن الذين نتكرم بهم"، فكأنه بذلك يؤكد على أن حق الشهداء علينا أكبر من ذلك بكثير.

إن الواجب الأول والأعظم والأهم هو السير على درب الشهداء والاستمرار على نهجهم وعدم التراجع عن خطهم الذي رسموه بدمائهم على قاعدة "إن صدقت محبتي فاحمل سلاحي".

ثم إنفاذ وصيتهم وسداد ديونهم، وستر عيوبهم، وذكر فضائلهم، وتربية الأجيال على بطولاتهم وتضحياتهم، والكتابة عن جهادهم، وكثرة الحديث عن مآثرهم، ونشر أقوالهم والعناية بكتاباتهم وتراثهم، وكذلك إحياء ذكراهم وإشاعة حسن أخلاقهم ونصبهم قدوة للناس يتأسون بهم.

وواجب آخر يتعلق بأهل الشهداء يتمثل بالرعاية التامة، والسؤال عنهم، وحسن صحبتهم، والحفاظ على ودهم والتناوب على زيارتهم، ثم الحرص على تعويضهم والتخفيف عنهم، وإيصال حقوقهم المادية والمعنوية إليهم، وإكرام أولادهم وأولاد أولادهم، ويتبع ذلك الإكثار من الدعاء لهم، ثم تمني اللقاء بهم.

ثم يكون بعد ذلك إقرار نحوهم بالتقصير، وإلا فلا قيمة للأعذار، فأنت الخاسر، أما الشهداء فهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

⊠ شيخ الشهداء الإمام أحمد ياسين:

يخجل القلم أن يخط مداده عند الحديث عن الشهداء دون أن يبدأ بالشيخ أحمد ياسين، لما له من فضل على كل الأخيار، ولما يحتله من مكانة في قلوب كل المخلصين.

كانت البداية في أواسط الثمانينات من القرن العشرين، حين سافرنا مجموعة من طلاب جامعة النجاح الوطنية بنابلس متوجهين إلى قطاع غزة، في إطار نشاط دعوي تربوي ثقافي وكشفي على عادة حركة الإخوان في تلك المرحلة.

وفي إحدى قاعات الجامعة الإسلامية جلسنا ننتظر محدثنا، حتى دخل الشيخ على كرسيّه المتحرك يتسابق الشبان من حوله لأجل خدمته.

صوته خافت يكاد لا يُسمع، أما عيونه فبراقة، ونظراته عميقة، وكلماته مؤثرة، تدخل إلى القلب وتستحوذ على النفس وتستقر في العقل.

لا تملك حين تراه للمرة الأولى إلا أن يترك أثره عليك، ويشدّك عزمه ويستهويك إصراره، وتعجب لقوة الأمل في آرائه وحجم الهمة لديه.

الأهداف واضحة عنده منذ البداية، والطريق مرسومة خطواته في تلك المراحل الأولى، وكان قبلها بسنوات قليلة قد اعتقلته قوات الاحتلال بسبب إشرافه على العمل الجهادي المقاوم داخل الحركة الإسلامية، فيخرج بعد ذلك في تبادل الأسرى عام ١٩٨٥م.

وحينما تفارقه يصعب عليك أن تنساه، ثم تحس بنوع من الانتماء إليه.

في العام التالي التقيناه في المسجد الأقصى أثناء انعقاد المؤتمر الطلابي الإسلامي، والذي يضم طلاب الحركة الإسلامية من كل جامعات الوطن، وهي فئة كان الشيخ يحرص على لقائها والتواصل معها، إذ كان يرى فيها أمل المستقبل، وهي الشريحة التي تستحق أن تستثمر الحركة فيها كلّ مقدراتها، وقد كان محقاً في تطلّعاته، فمن بين هؤلاء الشباب خرجت معظم قيادات الحركة في مختلف المجالات، والذين كان لهم دور الريادة في الانتفاضة الأولى والثانية.

حاصرت قوات الاحتلال المؤتمر وحاولت منع انعقاده، غير أن الشيخ بقي صامداً راسخاً في مكانه يتحدى جبروتهم ويستهزئ بتهديداتهم، ولسان حاله يقول لنا: "إن القدس هي عنوان الصراع والبوصلة التي تضبط مواقف الحركة وتنظم مسيرتها وتنسق خطواتها".

بعد ذلك بسنوات، وفي ساعات النهار الأولى، أيقظني السجّان بصورة مفاجئة وأخبرني بنبأ إطلاق سراح الشيخ وخروجه بقدر الله من سجنه الانفرادي المؤبد إلى الأردن لتلقي العلاج من أمراضه الكثيرة التي كانت تلازمه دون أن تمس من عزيمته وصبره ورضاه.

سالت دموع الفرح؛ فأسرعت إلى بقية الأسرى أبشّرهم وأبارك لهم، وخيّم جوّ من السعادة والطمأنينة علينا رغم قسوة السجن ومحنته.

لاحقاً.. اشتعلت انتفاضة الأقصى، فأعادت ذاكرتي إلى آخر لقاء جمعنا بالشيخ في ساحات المسجد الأقصى، فصدقت توقّعات الشيخ وبانت صوابية أفكاره، وثبتت صحة منهجه الذي كان يدعو إليه ويقوده من سنوات كثيرة خلت.

ولما اشتدّت حماس وصلب عودها واستعصت على الاستئصال، وضربت جذورها في أعماق الأرض وأذاقت الاحتلال ألوان العذاب، واطمأنّ المؤسس على سلامة الطريق ومتانة البناء وصدق التوجهات وتواصل الأجيال وتكامل المنهج، بدا كما لو أنه أدىّ الأمانة، وحان موعد الرحيل وجاءت الشهادة التي طالما سعى إليها.

فيكون مقتله فاصلاً في تاريخ الصراع، يفضح جبن العدو ومكره وحقده وخبثه، إذ يحارب شيخاً مقعداً بالصواريخ، ثم تكون دماؤه حجة على كل القاعدين المتثاقلين إلى الأرض، وترتقي روحه إلى السماء تستبشر بالذين لم يلحقوا بها ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ويأتي الخبر ونحن في سجننا وقيدنا، فتسيل دموع من أحبوه وتنفطر قلوب من عرفوه، ويكون العزاء بأن الرجل قد عاش كما أراد، ومات كما أراد.

ورغم أنف المحتلين الغاصبين فقد ترك الشيخ خلفه حركة سيرها نحو الأمام، قد نما غرسها وكبر، وبدأت خطواتها الأولى في قيادة الشعب بأسلوب جديد يجمع بين المقاومة الرشيدة والسياسة الحكيمة.

أما الحديث عن مزايا الشيخ وصفاته، وجوانب القدوة في شخصيته وصفات الخير لديه وملامح الإبداع عنده وعناصر القوة فيه ومكامن التميز في حياته فهو أمر يحتاج إلى طول أناة ومزيد إسهاب ليس هذا مكانه ولا موضعه.

وإنما هي بعض إيحاءات ومشاعر شخصية تجاه الشيخ تسلط الضوء على جوانب محدودة من صفاته التي عُرف بها وأخلاقه التي تخلّق بها.

وأول الأمر وأوضحه تعلقه بالمقاومة والجهاد، رغم أن اللّه تجاوز عن أمثاله تجاه هذه الفريضة، لكنها الهمة العالية تسابق الجسد الضعيف المريض وتغلبه، وقديما حاول البعض ردّ الصحابي عمرو بن الجموح يوم أحد لعرج في قدمه، فقال إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة، بينما أراد الشيخ من جهاده أن يطأ الجنة بشلله الكامل.

فكان له دور أساسي في تأسيس العمل العسكري وتنظيمه والحض عليه، وكان يتمنى لو يشارك فيه بنفسه، حتى إنه ذات يوم طلب من بعض المجاهدين -بجدية وصدق- أن يقلوه في سيارتهم ويلصقوا إصبعه على الزناد ليضغط بقوته على السلاح.

فانظر إلى أثر هذا الموقف على شباب الحركة ومقاتليها.

وقد دفع الشيخ المجاهد ثمن ارتباطه بالمقاومة بالاعتقال عدة مرات، والتضييق والملاحقة التي انتهت باغتياله.

وعُرف الشيخ بوعيه السياسي المميّز، وبقدرته على فهم طبيعة الصراع وإدراك أبعاده الإقليمية والدولية، واستطاع بمواقفه السياسية وآرائه أن يجمع بين التمسك بالثوابت الوطنية وعدم التنازل عنها مهما كانت الضغوط، وبين المرونة والواقعية في الوسائل والأساليب المتبعة لإنجاز الحقوق الفلسطينية الأساسية.

وكان من أوائل من دعا إلى إخراج ما يعرف "بالمدنيين" من دائرة الصراع والقتال المباشر، وهو الذي تبنّى فكرة الهدنة المؤقتة مع الاحتلال بشروط ومستلزمات معروفة.

وتميّز الشيخ بعلاقاته الطيبة والإيجابية مع كافة فصائل الشعب الفلسطيني وقواه وشرائحه المختلفة ثم مع عامة الناس وبسطائهم، ساعده على ذلك عذوبة لسانه وحسن إصغائه لمحدّثيه، وتركيزه البحث على القضايا المشتركة والأمور المجمع عليها، مع استعداده لمناقشة المسائل الخلافية بانفتاح كبير، كما توفر لدى الشيخ قدر كبير من الإبداع والمبادرة تجلى ابتداءً في إنشائه الجامعة الإسلامية، إلى جانب المؤسسات والجمعيات الخيرية والثقافية والتي ساهمت كلها في إحياء الصحوة بين الناس والمحافظة على جيل الشباب من أن تتناوشه الأفكار والمبادئ الفاسدة.

ثم إدراكه مدى خطورة العملاء في المجتمع الفلسطيني وقيامه بدعم محاربة هذه الظاهرة المقلقة المدمِّرة من خلال التوعية والتثقيف وكشف أساليبهم أمام الناس ثم ملاحقتهم والتضييق عليهم وبذل جهود خاصة للتخلص منهم.

أما إبداعه الأكبر أثراً فقد جاء من الدور المركزي الذي لعبه في تأسيس حركة المقاومة الإسلامية حماس، وهي من أعمق مراحل التغيير في تاريخ الصراع مع المحتل، حيث أحيت حماس جذور المسألة بأسسها الدينية والحضارية، ورسخت التناقض التام بين الشعب والاحتلال.

أما صفاته الشخصية وأخلاقه الذاتية، فثقته بالله وتمسكه بالأمل حتى في أصعب الظروف خاصة أثناء سنوات السجن القاسية التي فرضت عليه.

كما يبرز عنده خلق التواضع والزهد في الحياة، وإصراره على العيش البسيط الذي يجمعه مع عامة الناس من أبناء شعبه، مما زاد في حب الناس له والتفافهم حوله.

وما أعظم ذلك المشهد حين تتوالى الشخصيات والوفود الرسمية والحزبية والشعبية إلى منزله المتواضع يطلبون رأيه ويستشيرونه وينتظرون موقفه في التطورات المختلفة على الساحة الفلسطينية.

كما كان الشيخ صاحب نكتة لطيفة وابتسامة جميلة تقربه إلى القلوب وتزيل الحواجز بينه وبين جلسائه.

إن الشيخ هو من أول الشخصيات والقيادات المجمع عليها داخل الحركة.

ولقد تجاوز أثره الساحة الفلسطينية، ليترك بصماته الخاصة على صفحات الأمة بأسرها، كما ارتقى فعله ودوره من الساحة المحلية ليمر بالمنطقة الإقليمية وصولاً إلى الرحاب العالمية الواسعة، وسوف يسجل التاريخ وتحفظ الأجيال أن الشيخ أحمد ياسين كان الشخصية صاحبة التأثير الأكبر والأعظم في كل جولات الصراع المتلاحقة التي خاضها الشعب الفلسطيني ضد من اغتصب أرضه واحتل بلاده.

☒ الشيخ القائد جمال منصور " أبو بكر "

{من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه}

الأحزاب ٢٣.

تترك بعض الشخصيات أثراً في محيطها حتى بعد موتها، وتحتار حين تحاول ذكر بعض جوانب التميز والقدوة في شخصية أبي بكر، ماذا تذكر وماذا تبقي، ولذلك **سوف أركّز على بعض جوانب القوة في شخصيته كي تقتدي به أجيال الحركة القادمة.**

١. سعة الإطلاع وتنوعه:

لقد كان أبو بكر واسع المطالعة والقراءة في مختلف تخصصات العلم والمعرفة، وكان يحرص على متابعة كل إصدار حديث، فكانت مكتبته الخاصة تحتوي على النسخ الأولى لكثير من الكتب التي تصل إلى الوطن، وحين كان يتحدث في مجال ما كنت تظن أنه متخصص به، حتى إذا انتقل إلى موضوع آخر حسبته كذلك، لقد كان بحراً من العلم في مختلف التخصصات الشرعية والحركية، وله معرفة واسعة في التاريخ المحلي والعالمي وإطلاع على جغرافيا العالم، ويدهشك حديثه عن شعوب بعيدة عنا وصراعات وأحزاب وشخصيات لا تكاد تعرف عنها إلا اسمها، وله باع طويل في الأدب والقصص والروايات والشعر، بل حتى في الفن والرياضة، ساعده على ذلك كلّه عقلية منفتحة وذاكرة حديدية وجلد على المطالعة لا تكاد تجد له مثيلاً.

٢. قدرة هائلة على الإقناع والتأثير:

ساعده على ذلك سعة علمه، وقوة شخصيته، وتمكّنه من الكلمات، وبراعته في الاستدلال، وذكاؤه في استخدام النكات الهادفة، وقدرته المميزة على مخاطبة العقل والعاطفة بالقدر والتوقيت والأسلوب المناسب لكل منهما، فعلى مستوى النقاشات الداخلية في الحركة كان يتمكن من كسب تأييد الكثيرين حتى من القادة، ودفعهم لتبني مواقفه وآرائه حتى اتّهمه البعض بالتسلّط الفكري لشدة تأثيره على إخوانه!!.

أما على مستوى الخطاب الجماهيري، فكان يشدّ مستمعيه فلا يتركون أماكنهم لساعات طويلة، لا يتلعثم ولا يكرر كلامه، وحركات يديه جزء من حديثه، يتقن فن الخطبة والموعظة القصيرة والمحاضرة السياسية والمساجلات الفكرية، ففي أثناء وجودنا في النقب عام ١٩٩١م كان يصلي معنا أقل من عشرة أشخاص من بين أكثر من مائة أسير، وحين راح يدعو الناس للصلاة استجاب أغلبية الأسرى حتى ضاقت بنا خيمة الصلاة، وراح يقول مازحاً إنه لا يريد مزيداً من المصلّين الجدد.

أما قدرته على إقناع الآخرين في الحوارات والمفاوضات فليس أدلّ على ذلك من امتناع العديد من الشخصيات الرئيسية المنظرة لدى السلطة عن مواجهته في مناظرات عامة، أمّا الحوارات الداخلية فقد تردّد أكثر من مرة على لسان الآخرين طلبهم من الحركة عدم إرسال أبي بكر لمحاورتهم لأنهم متأكدون أنه سيقنعهم بموقفه وهم لا يريدون الاقتناع أصلاً، حتى قال أحدهم: لو أراد أبو بكر إقناعنا بأن الشمس تطلع في الليل لفعل.

٣. بعد النظر والوعي السياسي:

كان لتنوع ثقافته ومتابعته وتحليله لكل الأحداث والتصريحات أثر كبير في وعيه بما يدور وتوقعه لكثير من الأحداث قبل حصولها بوقت يصل سنوات في بعض الأحيان. فقد سمعته في أواسط الثمانينات يخاطب أبناء الحركة حين عيّرهم الآخرون بأنهم لا يتعرّضون للاعتقال، فقال: "ستأتي عليكم أيام ستكون السجون مفتوحة لكم أكثر من غيركم"، وقد تحقق ذلك بعد عدة سنوات من هذا الخطاب. وفي العام ١٩٩١ خاطب أحد قيادات فتح ونحن في السجن وقال له: ستكون لكم سلطة في بعض المناطق وسوف تقومون باعتقالنا بأعداد كبيرة. فردّ عليه الرجل مازحاً بأننا سنعتقلكم مع نسائكم وأولادكم حتى لا ننشغل بترتيب الزيارات.

ومع انطلاقة انتفاضة الأقصى كان موقفه واضحاً بأنه يجب وضع كل الإمكانيات في استمرارها وتصاعدها، وأن الأمر ليس خدعة ولا مكيدة، وأن هذه الانتفاضة ستحقق انتصارا فعلياً على الأرض، وهذا ما بدأ تحققه بعد استشهاده بسنوات على الأقل في غزة حتى الآن.

٤. شعبية مميزة:

كان بحسن خلقه وبابتسامته التي لا تفارقه وبعذوبة لسانه وحرصه على مشاركة الآخرين أفراحهم وأتراحهم والبحث عن المشترك مع الناس، كان لذلك كلّه أثر كبير في استقرار محبته في قلب كل من عرفه من أبناء الحركة وعامة الناس وحتى خصومه السياسيين. كان بيته بمثابة ديوان عام يطرقه كل من يريد وفي أي وقت يشاء. لقد كانت مرافقته في شوارع نابلس بمثابة نشاط عام، فلن تمر بضع خطوات قبل أن يسلّم على هذا أو يستوقفه شخص آخر أو يستفتيه ثالث أو يدعوه آخر لحديث جانبي، فلا يصل إلى المكان الذي أراده إلا بعد عناء ووقت طويل. وقد سمعت الكثيرين من عامة الناس يرددون عبارة أننا أصبحنا أيتاماً بعد استشهاد أبي بكر، وليس أدلّ على ذلك من جنازته المميزة التي لم تشهد المدينة لها مثيلاً.

٥. الجرأة وتحمل العواقب:

كان أبو بكر من تلك النوعية من القادة التي تتقدم الصفوف دوماً، وتتصدر الجموع لتتلقى الضربات الأولى في صدرها. فلقد اعتُقل لدى الاحتلال أكثر من عشرين مرة في حياته، ودخل التحقيق لفترة طويلة، وقضى سنوات طويلة في الاعتقال الإداري، وكان من أوائل من تم إبعادهم إلى مرج الزهور، فوقف خطيباً في إخوانه بعد وصولهم أرض لبنان مشجعاً لهم ورافعاً من هممهم ومعنوياتهم. وحين جاءت السلطة كان من أكثر الشخصيات التي تم رفض الإفراج عنها من الاعتقال السياسي المتواصل. وما إن خرج مع بداية الانتفاضة حتى عاد إلى عمله ونشاطه يقود ويحرض ويتابع حتى جاءت أمنيته التي طلبها وهي الشهادة لكل جزء من جسده.

٦. جلد وصبر على العمل المتواصل:

كانت هذه إحدى أهم ميزاته، فهو يعمل من أجل دينه وحركته طوال الوقت يصل الليل بالنهار يمارس الرياضة ويقرأ ويطالع ويتابع الأحداث والتطورات في المنطقة وفي العالم، يخطب في الناس ويحاور الآخرين ويقابل الصحافة ويكتب المقالات والتحليلات، ثم يواظب على الاجتماعات واللقاءات التنظيمية، ويحضر النشاطات الحركية ويشارك في المناسبات الاجتماعية لعدد كبير من الناس، ينظم الأمور ويتابع اتصالاته مع القادة في كل المناطق، ويجد الوقت الكافي لكتابة مشاريع العمل السياسي الخاصة بالحركة، وينقل خبرته لجيل جديد في العمل السياسي والإعلامي، كل ذلك في تناغم وتناسق دون كلل أو ملل، وقته مبارك وعطاؤه متواصل يحيرك كيف يتمكن من عمل كل هذه النشاطات في وقت محدود، لكنه أبو بكر الذي قل أن تنجب حماس مثله، كان دوماً من السبّاقين، فأين المقتدون؟.

☒ الشيخ القائد يوسف السركجي:

من مواليد مدينة نابلس عام ١٩٦٢م، بكالوريوس شريعة من الجامعة الأردنية، وماجستير من جامعة النجاح، متزوجٌ وله العديد من الأبناء، اعتُقل عدة مرات لدى الاحتلال والسلطة، وكان أحد قيادات المبعدين إلى مرج الزهور، استُشهد مع بعض إخوانه في عام ٢٠٠١م.

نحن نقف اليوم أمام نوعية أخرى من القادة، متميزة وفريدة بحيث يندر أن تتكرر في تاريخ الحركة، ولذلك فإنها تحتل مكاناً مرموقاً للإقتداء والتشبّه، وتتنوع جوانب القدوة والعطاء في شخصية الشيخ يوسف، ولصفة " الشيخ " ارتباطٌ وثيقٌ به، بحيث أنه إذا قيل: "الشيخ" في أوساط قادة الحركة وكوادرها في المنطقة كلها فإن الجميع يعرف أن الحديث يدور عن الشيخ يوسف السركجي، على الرغم من كثرة المشايخ في المنطقة، ورغم الأثر الكبير الذي أحدثه الشيخ في مسار الحركة في طول البلاد وعرضها ولسنوات طويلة إلا أنه لم يحظ بالقدر الذي يستحقه في تسليط الضوء على شخصيته بصفته أحد أهم الرموز في الحركة، حتى وإن لم يكن شخصية إعلامية معروفة لدى معظم الناس.

الشيخ يوسف وإن أخذ العمل الحركي والدعوي أغلب وقته؛ إلا أنه تميّز في تخصصه الشرعي وأبدع فيه، بحيث أنه لم يترك مجالاً لإخوانه أن يقصر أحدهم في تخصصه بحجة الانشغال في العمل التنظيمي، وكان الفقه على وجه الخصوص ميدانه الذي يصول فيه ويجول، جمع في فتاويه وآرائه بين الأصالة والحداثة، واعتمد خطاً وسطياً يراعي فقه الواقع وحاجات العصر وخصوصيات الحالة الفلسطينية، كان يميل إلى التيسير على إخوانه خاصة في فقه المحنة سواء داخل السجون أو في مواقع

الجهاد وسنوات الملاحقة من قبل الأعداء، ولقد شهد له الكثيرون بفقهه، حتى اعتبره الشهيد جمال منصور أحد أهم فقهاء الحركة، لدرجة أن بعض الأئمة والخطباء كان يفتي الناس والعوام ببعض الفتاوى دون الاعتماد على فقهاء السلف وحين يرى في وجوه المستمعين تردداً في القبول يقول إنه ينقل هذه الفتوى عن الشيخ السركجي رحمه الله - وكان هذا في حياته - فيقتنع الناس بالأمر وترضى نفوسهم.

أما فيما يخص العمل الحركي والدعوي، فقد عمل الشيخ يوسف في مختلف ميادين العمل، وكان حاضراً في كل اللجان الرئيسة، ويشارك في جميع القطاعات المتنوعة لدى أبناء الحركة، وهو في كل عمل أو لجنة أو موقع يعطي كل ما لديه من طاقة وجهد ووقت، يبادر ويبدع ويتابع، وكان يترأس معظم هذه اللجان والتشكيلات التنظيمية على كافة المستويات، فقد كان مسئول المكتب الإداري للحركة في نابلس لسنوات طويلة وهو أعلى هيئة تنظيمية في الحركة، وكان يمثل الشخص المركزي المحوري لأي تشكيل تنظيمي على مستوى شمال الضفة أو حتى للضفة كلها.

كما تنقل في نشاطاته بحسب المرحلة، فقد أشرف على العمل الطلابي وأحيانا على العمل النسائي، وكذلك على الهيئات الإدارية والتربوية المختلفة، وعلى لجان الوعظ ونشر الدعوة، ثم أشرف على لجان العمل الميداني في الانتفاضة الأولى، وعمل لسنوات في قطاع الريف والقرى.

شخصيته إدارية من الطراز الأول، يخطط ويتابع التنفيذ ويشارك فيه، ثم يقيّم ويصوب ويطور باستمرار، أول من ينفذ القرارات ويلتزم بالتعليمات، يتقن فن الجندية تماماً كما يتقن فنّ القيادة، وهو في ذلك كله يرى نفسه واحداً من إخوانه ، فعند اضطرار الحركة للنزول إلى الشوارع في بداية الانتفاضة الأولى لتثبيت قراراتها حول الإضرابات والمظاهرات، كان يبادر بنفسه ويتنقل بين شوارع المدينة مع ساعات الفجر الأولى بطوله الفارع وهيئته المميزة عن بعد ولا يبالي بالنتائج، ولا يكتفي بدوره المركزي في التخطيط واتخاذ القرارات، وكان شباب الحركة يزدادون اندفاعاً وعطاءً حين يرون شيخهم بينهم بل في مقدمتهم، وهو مع كونه عضواً في أعلى هيئة إدارية في الحركة كان يذهب إلى جامعة النجاح في فترات الانتخابات والنشاطات الطلابية، حيث كان يدرس في مرحلة الماجستير ويقول لمسئولي الكتلة فيها إنه جندي لديهم ويطلب منهم التعليمات والأوامر لينفذها بصفته طالباً مثلهم.

جانب آخر من جوانب القدوة في حياة الشيخ يوسف تمثله بقول الإمام البنا رحمه الله بأن الواجبات أكثر من الأوقات، فراح الشيخ يسقط هذا القول على أرض الواقع ويمارسه في حياته بشكل يومي، فعطاؤه المتواصل ليل نهار كان يترك أثره الواضح على كل من عمل معه، وإذا حاولت أن تجاريه في ذلك تجده قد سبقك بخطوات كثيرة، يصح فيه القول بأنه كان رجلاً لا ينام ولا يدع أحداً ينام، تبدأ متابعاته الحركية لإخوانه في أيام كثيرة قبل صلاة الفجر، في أغلب الأحيان لا يستدعي إخوانه إليه

ليبلغهم بالتكليفات ومواعيد الاجتماعات بل يقوم بنفسه بالتنقل بين بيوتهم، وحين تستغرب عندما تراه يطرق بابك بعد الفجر لأمر حركي يرد عليك بابتسامة لطيفة بأنك الأخ الرابع الذي يأتيه منذ الصباح، لا يحب تأخير العمل ولا تسويفه، وطالما لزم الأمر فإنه يتحرك في أي ساعة من الليل والنهار، حتى إن زوجات إخوانه كن يعتبرنه بمثابة "الضرة" لهن!؛ لكثرة ما يأخذ من أوقات أزواجهنّ.

برنامج العمل والمتابعة لديه ممتلئ لعدة أيام، وأحيانا لعدة أسابيع لاحقة، وكنا نستشعر بركة الوقت في حياته في فترات غيابه في السجن، حيث تطرأ الحاجة الملحة لإيجاد عدد كبير من الإخوة ليقوموا بملأ الفراغ الذي تركه وحده.

ولا يمكن الحديث عن الجوانب المشرقة في حياة الشيخ يوسف دون التطرق إلى مهمته التربوية في الحركة؛ حيث أشرف ولسنوات طويلة على الجهاز التربوي في الحركة، وتابع نظام الأسر مع النقباء والأفراد، وتولى ترتيب المناهج التربوية وتطويرها وتنويعها وإضافة كل جديد لها.

وكان يحرص على الدمج بين مفهوم الطاعة وفكرة المبادرة الذاتية، يزرع في إخوانه معاني الأخوة والانتماء، ويؤكد على علاقة الأخ بربه من خلال تربية روحانية وسلوكية كان هو أول من يلتزم بها، كان يزعجه جداً أن يرى أخاً جامداً في مكانه لا يتقدم، وكان يؤذيه أن يجد بعض أبناء الحركة القدامى يتقاعسون ويتردّدون فيسبقهم أخوة جدد، فيقرر أن هذا التأخر إنما جاء بسبب نقص في التربية في مرحلة سابقة.

كما أن هناك صفة أخرى هامة يحتاج إليها كل داعية عموماً وكل قائد على وجه الخصوص، وهي القرب من الناس واكتساب محبتهم وتأييدهم، وهذا ما كان عليه الشيخ يوسف، فقد استطاع بفضل تواضعه وعذوبة لسانه وقلبه الذي لا يعرف الحقد أن يجمع الناس من حوله فيحبه الجميع، ففي بداية الثمانينات عمل لمدة ثلاث سنوات إماماً في قرية صغيرة

نائية "عصيرة القبلية" وإذا به خلال أشهر قليلة شيخ القرية ومسئولها ومستشارٌ لكل أهلها في أمورهم الاجتماعية والعائلية والاقتصادية، لا يقضون أمراً دونه، وظلّوا على صلة به حتى استشهاده، وبصورة عامة كان كبار السن وعوام الناس يأنسون به بينما حظي باحترام المثقفين حيث كان يتقن التعامل مع كل فئة بما يناسبها.

أما بالنسبة لإخوانه، فكان دائماً بمثابة الأب أو الأخ الكبير، وفي أيام المحنة على وجه الخصوص كالسجن مثلاً، كان يمدهم بحنان كحنان الأم الذي فقدوه، يعدّ لهم الطعام ويوقظهم لتناوله، وكثيراً ما كان يجهز لهم الملابس ويكويها قبل مواعيد زيارة الأهل لهم.

حين تعيش معه تشعر بالأمان والاطمئنان، ظلّه يحميك وخبرته تعطيك راحة نفسية عجيبة، لا ينتقم لنفسه أبداً، ويعفو عن إخوانه حين يخطئون بحقه.

لقد كان للشيخ يوسف نفس تواقة للمعالي، إذ على الرغم من موقعه المتقدم في قيادة الحركة ودوره المميز في العمل الدعوي والتربوي إلا أن حبه للجهاد المباشر دفعه إلى دخول الميدان مع إخوانه المجاهدين، خاصة حين عرف بحكم موقعه حاجتهم إلى ظلٍّ يحميهم وقائد يوجههم ويقدم لهم الدعم السياسي والمالي والمعنوي المطلوب، وكان ذلك قبل انتفاضة الأقصى، فكان بيته مأوى لهم، وراح يرتب صفوفهم وينسق جهودهم ويشرف على مسيرتهم، يوجه وينصح ويشجع ويدعم بكل ما لديه من إمكانات، فقدر اللّه له أن يسجن لدى السلطة فترة طويلة تعرض خلالها للتحقيق والتعذيب ورفض كل محاولات الإفراج عنه، وكاد يفقد حياته خلال إضراب الأسرى السياسيين لحماس في سجن جنيد، والذي استمر لأكثر من شهر خاصة أنه كان يعيش بكلية واحدة، وكان من أواخر من خرج من أسرى الحركة لدى السلطة بعد الضغط المتواصل في بداية انتفاضة الأقصى، ليعود إلى مواصلة مشواره الجهادي محتضنا إخوانه المطاردين، يعيش كواحد منهم ولم يكن بالإمكان العودة إلى الحياة الطبيعية خاصة حين أصبح هدفا للاحتلال.

وبقي كذلك حتى أكرمه اللّه بالشهادة في العام٢٠٠١ مع بعض إخوانه في عملية اقتحام ضخمة للشقة التي كانوا يستترون فيها، فعاش كما أراد ومات كما أراد، لقد كان مكسباً عظيماً، وخسارة الحركة له كانت عظيمة.

لقد كان الشيخ يحبّ المجاهدين بشكل خاص، حتى إنه كان يحرجهم حين يفاجئهم بتقبيل أيديهم ويرى أن اليد التي تجاهد في سبيل اللّه تستحق كل التقدير والاحترام، وقد بادله إخوانه الحب بالحب والاحترام بمثله، لقد أحبه إخوانه بنفس القدر الذي أبغضه به

عدوه، فكان الاحتلال يرى به شخصاً بالغ الخطورة، واعتبروه شيخاً يخرّج المجاهدين ويشكّل منبعاً للمقاومة.

لو حصر الشيخ يوسف نشاطه في العمل الدعوي والسياسي لرضي عنه إخوانه كلهم، لكنه كان يرى في نفسه قدرة أكبر على العطاء، وكان يعنيه قبل كل شيء أن يرضى عنه ربه سبحانه وتعالى.

☒ الشهيد صلاح الدين دروزة "أبو النور"

هذا القائد الذي لا تملك حين تتعرف عليه إلا أن تحبه، ولا تستطيع حين تعمل معه إلا أن تؤثر فيك همّته ويدهشك مدى استعداده للتضحية والعطاء في أصعب الظروف.

ولد أبو النور في مدينة نابلس في العام ١٩٦٥، حيث نشأ في أحضان عائلة متدينة، فكان والده من أشهر معلّمي أحكام تجويد القران في المدينة، انتمى صلاح إلى دعوة الإخوان في مرحلة مبكرة من حياته ليواصل مشواره بعد ذلك كأحد النشطاء الإسلاميين في كلية أبو ديس في القدس حيث كان يدرس في بداية الثمانينات، فيستفيد من تجربة العمل الطلابي في الجامعات وتبرز ملامح شخصيته القيادية التي تطورت مع مرور الوقت.

إنّ ظهور صلاح كقائد تبين مع انطلاقة الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧م لتثبت التجارب والوقائع أن دخول الحركة في مجال المواجهة المباشر مع الاحتلال لم يساهم في زيادة مصداقية الحركة وشفافيتها وقوة نفوذها فحسب بل إن ذلك ساهم بشكل كبير في صقل أفراد الحركة الذين تجلّت مواهبهم وقدراتهم القيادية في الانتفاضة، وعمل على النضوج الفكري والسياسي لديهم، مما أدى إلى استخراج طاقاتهم الكامنة، وهذا يؤكد مدى صوابية قرار الحركة في دخولها لمجال المقاومة المباشرة.

كان عضواً فعالاً في لجنة الطوارئ، وهي اللجنة التي أوكلت لها الحركة مسئولية الإشراف والتنفيذ لكل النشاطات الميدانية والجماهيرية في الانتفاضة الأولى، وتولّى مسئولية منطقة واسعة في المدينة، ينسّق فيها الفعاليات والمواجهات مع الاحتلال ولا يكتفي بتوجيه إخوانه عن بعد بل ينزل ويشاركهم في الميدان يضع المتاريس أمام دوريات الاحتلال ويرشقهم بالحجارة، لا يرى نفسه أعلى من إخوانه رغم كونه أكبرهم سناً وأكثرهم خبرة.

كما كان المنسق لنشاطات لجنة الطوارئ في القرى، يجتمع بهم ويتواصل معهم، ورغم التواجد المكثف للاحتلال إلا أنه كان يرتب الفعاليات معهم ويوصل لهم كل ما يحتاجون إليه من بيانات وأموال واحتياجات، وصلاح هو المسئول الأول عن توزيع البيان المركزي للحركة في المنطقة كلّها، ولهذا البيان في تلك المرحلة أهمية كبيرة حيث كان يصدر بشكل متسلسل بما يتناسب مع الأحداث ويتضمن إضافة إلى المواقف السياسية للحركة قائمة بالفعاليات والنشاطات التي تنظّمها الحركة

ضد الاحتلال خلال الأيام اللاحقة، ومن ذلك المواجهات وأيام التصعيد والإضرابات العامة والكتابة على الجدران وخطوات التضامن مع الشهداء والأسرى وعيادة الجرحى، وكل نشاط محدد بيوم بذاته، مما يتطلب سرعة في إيصال البيان إلى كل المناطق الفرعية كي يتم النشاط في وقت واحد في كل المناطق الأمر الذي يربك قوات الاحتلال ويبعثر جهودها ويحول بينها وبين التفرد في مناطق بذاتها، وكان صلاح يدرك ذلك كله فيتحرك بالبيان بآلاف النسخ متنقلاً من منطقة إلى أخرى رغم الانتشار الواسع لقوات الاحتلال، حيث كان الاحتلال في مرات عديدة يفرض نظام منع التجول على نابلس وما جاورها لأيام طويلة متواصلة بسبب شدة المواجهات، ويعمل على رفع المنع لساعتين أو ثلاثة كل عدة أيام، حيث يذهب الناس لشراء حاجياتهم الأساسية من طعام وشراب ودواء، بينما صلاح يستغلّ هذه الفرصة لإيصال البيان إلى كل المعنيين بعد أن يكون قد جهّزه في فترة حظر التجول، فيفرح أبناء الحركة وتزداد ثقتهم بقيادتهم، فينطلقوا بكل همّة لتنفيذ ما جاء في البيان وسط إعجاب الناس واستغرابهم من قدرة حماس على التحرك في أصعب الظروف.

وكان له اهتمام بالحركة داخل القرى، حيث أشرف على تنسيق نشاطات الحركة في القرى أثناء الانتفاضة الأولى، ودعم فكرة ملاحقة العملاء التي بدأت في القرى منذ الأشهر الأولى لانطلاقة حماس.

وما أن جاءت انتفاضة الأقصى الثانية في العام ٢٠٠٠ حتى برز صلاح كواحد من أهم شخصيات حماس في شمال الضفة الغربية على وجه الخصوص، أما على مستوى نابلس فقد عمل كعضو في وفد حماس لدى لجنة التنسيق الفصائلي المسئولة عن متابعة فعاليات الانتفاضة الموحدة على مستوى المنطقة كلها، وكان صاحب تأثير كبير على مندوبي الفصائل بحيث حظي باحترامهم وتقديرهم، وتمكن من بناء جسور قوية مع الجميع، وهو من ينسق ويتصل بقيادات الحركة في كل أرجاء الوطن وخارجه، لكن هذا العمل الهائل وهذه الملفات المتعددة التي يتعامل معها صلاح لا تلبي طموحاته ولا تبعده عن أعظم الأمور وهو الجهاد في سبيل الله، ودوره في العمل الجهادي لم يبدأ مع انتفاضة الأقصى كما يظن البعض، فقد كانت له جولات وصولات قبل ذلك بكثير، ولعل ذلك بدأ مع انطلاقة الحركة في الانتفاضة الأولى، فكانت له محاولات بناء وتأسيس محدود، ثم جاء الإبعاد إلى مرج الزهور ليستغلّه في زيادة الخبرة والكفاءة في هذا الميدان على المستوى الشخصي، ثم ما كان من دوره في مساعدة إحدى أهم القيادات، حيث آوى "العياش" ومن معه من المطلوبين، وقدم لهم المساعدة والدعم والمتابعة.

لكن إبداع صلاح في هذا الميدان تجلّى مع انطلاقة انتفاضة الأقصى، إذ إن قلبه كان يحترق ألماً وهو يشاهد ضحايا شعبنا تسقط في كل يوم، والدماء تسيل والعيون تبكي، فراح بحكم موقعه يبحث عن رجال يدافعون عن شعبهم، وحين يتأكد أن العمل الجهادي شبه معطل بسبب الظروف التي كانت في سنوات أوسلو وأنه لا يكاد يوجد شيء مرتب ومنظم على الرغم من وجود الطاقات والكفاءات، وحين علم أن الأمر يحتاج إلى من يعلق الجرس، لم يتردد ولم يغمض عينيه بانتظار المعجزات، فبادر هو بنفسه بالاشتراك مع أحد إخوانه المسئولين، وحملوا الراية وقادوا المسيرة، فأعيد ترتيب الأوراق والأولويات، وتم تجهيز كل الاحتياجات واللوازم، وأصبح هناك متابعة يومية واحتضان للعمل وأهله وتوجيه مدروس، فكانت الثمار عظيمة وكبيرة وكانت النتائج سريعة وكان العمل مميزاً جداً على مستوى الوطن كله بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء.

وكان صلاح يحب هؤلاء المجاهدين ويعمل على رعايتهم بصورة شخصية دون أن يبالي بالعواقب، فكان يزور القائد أبا هنود في سجنه باستمرار ويرعى شؤونه، وكان من أوائل من وصل إليه يوم قصف السجن عليه، ثم كان هو من استقبله حين خروجه ورعاه وهيأ له المكان والاحتياجات، وكذلك فعل مع الشهيد أيمن حلاوة حين أصيب في حادث عمل فكان رفيقه بالمستشفى، واستقبل العديد من المجاهدين الآخرين في بيته، لم يضجر ولم يتلكأ ولم يتذرع بموقعه السياسي حين كان الأمر ضرورياً وملحّاً.

ولأجل هذا كله، وبسبب شخصيته في الحركة وفي الشارع ككل؛ كان صلاح من أوائل من تم استهدافهم من القادة السياسيين ليلقى الله تعالى وهو مقبل غير مدبر، ليكون عرس شهادته مشهوداً وأيام عزائه شهدت حضور أهل المدينة بمختلف توجهاتهم وانتماءاتهم، حيث صار صلاح شخصية عامة مقبولة لدى الجميع، وراح إخوانه في أول جلسة للقيادة بعد استشهاده يتذكرون مناقبه والدموع تترقرق في العيون، تذكّروا طيب معشره وخدمته المتواصلة لإخوانه، كيف كان يشرف على أضخم المسيرات والمهرجانات فيجدد ويبدع ويصرّ على أن يعمل بيده في ترتيب المنصة والكراسي والرايات منذ الصباح قبل أن يصعد ليكون أحد عرفاء هذا النشاط، تذكّروا اهتمامه الخاص بكل من قاوم وضحى خاصة الأسرى والشهداء وعنايته بذويهم.

وتبقى الحاجة ماسة في كل حين إلى هذه النوعية من القادة الذي يقدر على المزاوجة بين اتّخاذ القرار وتحمّل المسئولية وبين العمل في الميدان وسط الجموع.

☒ الشهيد الشيخ جمال سليم " أبو مجاهد "

إنه صاحب الابتسامة التي لا تفارقه، واللسان العذب الذي يجذب الناس إليه، والهدوء الذي يلازمه فيلقي في قلوب من يجالسه السكينة والطمأنينة.

كان أبو مجاهد قد أنهى دراسة الشريعة من الجامعة الأردنية، حيث عاش فترة إعداد وتربية في صفوف حركة الإخوان، ثم عاد إلى مخيم عين بيت الماء بنابلس ليواصل مشواره الدعوي ويرتقي بفضل عطائه وإخلاصه في صفوف الحركة حتى صار أحد أبرز رموز حماس في الضفة ومن أفضل من يمثلها أو ينطق باسمها على مدى سنوات طويلة.

وكان يقدّم المشاريع والأفكار والمواقف للحركة بتنسيق شبه يومي مع الشهيد القائد جمال منصور حتى اشتهر بين الناس لقبهما "الجمالان" إلى أن أكرمهما اللّه تعالى بالشهادة في موقف واحد وساعة واحدة.

لم يكن الشيخ جمال ممن تلهيه الدنيا عن القيام بواجباته تجاه دينه ووطنه، بل لعله كان أقرب إلى الخصومة مع ملذات الحياة أو هو أقرب إلى حالة الطلاق الكلّي معها.

كان من أولئك القادة الذين بارك اللّه في أوقاتهم، فهو من "الرواحل" التي لا تئن ولا تتعب ولا تشكو ولا تيأس، فهو إضافة إلى وظيفته كمدرس في المدرسة الإسلامية كان يخطب ويعظ ويعلم متنقلاً بين مساجد المدينة وخارجها.

كما أشرف وأدار العديد من لجان الحركة على مستوى المنطقة كلها، خاصة في مجال الدعوة والتربية والتنظيم، هو أول من أسس وترأس اللجنة الرياضية التابعة للحركة في بداية الثمانينات، وكان لحسن إدارته ومتابعته وأفكاره المتجددة أثر واضح في انضمام أعداد كبيرة إلى صفوف الحركة عبر هذا الميدان.

ثم شارك في إدارة لجنة نشر الدعوة، وكانت من أهم اللجان العاملة ومن أبرز مهامها القيام بمرحلة "التعريف" بالحركة وأفكارها ومواقفها عبر نشاطات مختلفة ومتنوعة، والتواصل مع المساجد والأحياء وتدفع باتجاه تفعيل عناصر الحركة وتزويدهم بما يلزمهم في خطتهم الدعوية، وأدار لسنوات

طويلة لجنة التوعية الإسلامية التي تقوم ببث الفكر الإسلامي الصحيح بين عموم الناس، كما يقوم من خلالها بترتيب الأفكار الرئيسية أسبوعياً مع عدد كبير من خطباء الجمعة بحيث تؤدي الخطبة الهدف المرجو منها.

كان الشيخ جمال يبدي اهتماما خاصاً بطلبة المدارس والجامعات؛ إدراكاً منه لأهمية هذه الفئة ودورها الأساسي في نمو الحركة وتطورها، لذلك فإنه يشارك في معظم النشاطات العامة والخاصة للطلاب، يخطب ويحاضر في المؤتمرات والمهرجانات التي ينظمونها، ويعظ ويربي في اجتماعاتهم الداخلية.

كما تفهم الشهيد أبو مجاهد دور المرأة الإيجابي في صفوف الحركة، فقام بلعب دور كبير ومتواصل في تنظيم وتطوير العمل النسائي في الحركة، وكان بمثابة الأخ الكبير شديد الحياء عفيف اللسان، يشكل حلقة وصل رئيسة بين العمل النسائي وبقية قطاعات الحركة، وكان أحد الشخصيات الرئيسة التي ساهمت في تكوين وتأصيل العمل النسائي داخل الحركة حتى صارت له هياكل وآليات عمل وامتدادات تنظيمية وشعبية مميزة.

وهو إضافة إلى هذا كله عضو الهيئة التأسيسية لرابطة علماء فلسطين وأحد قياداتها الكبار، بل كان ولفترة طويلة المركّز لنشاطات الرابطة في الضفة، ينسّق مواقفها ويتابع ويصوغ العديد من البيانات الصادرة عنها وكذلك النشرات والفتاوى المعبرة عن آراء الرابطة، لكن إبداع الشيخ جمال وظهوره كشخصية عامة تجلّى مع انطلاقة انتفاضة الأقصى، وصارت جهوده تتركز أكثر في العمل السياسي وفي التعبير عن مواقف الحركة وآرائها في مختلف التطورات والأحداث والمجريات اليومية، وكان الممثل الأول عن الحركة في لجنة التنسيق الفصائلي في المدينة، وقد كان بحق العمود الفقري لهذه اللجنة من الناحية العملية، فاقتراحاته وأفكاره كانت غالباً تنال موافقة الجميع ورضاهم دون استثناء، على الرغم من تعدد مشاربهم السياسية ومنطلقاتهم الفكرية، فكثيراً ما يوكلون إليه صياغة البيانات، وهو دائماً على رأس كل النشاطات العامة الموحدة والتي كانت تجري بصورة شبه يومية بل أكثر من نشاط في اليوم الواحد، لا يتخلف أبو مجاهد عن واحد منها أبداً.

وقد كان لطبيعة شخصيته وتربيته الإخوانية وقدرته الهائلة على الإصغاء للآخرين واحترام مواقفهم حتى لو خالفت رأيه والتزامه بأدب الحوار وحضوره الدائم- كان لذلك كله - أثر كبير في احترام كل الأطراف له وسعادتهم بالتعامل معه، فكان شخصية جامعة توحد ولا تفرق وتجمع ولا تشتت، شهد له بذلك محبوه ومخالفوه، حتى شاع بين إخوانه قولهم إن الشيخ جمال لو أراد أن

يغضب أحداً فإنه لا يعرف الطريق إلى ذلك.

لقد أحب حركته حباً عظيماً، وعمل لأجلها طوال حياته، وما كان لشيء أن يردّه عن ذلك، فقد اعتُقل لدى الاحتلال أكثر من مرة، وكان أحد المبعدين إلى مرج الزهور.

ولم يسمح لظرف أو لمرض أن يحول بينه وبين المشاركة في النشاطات العامة، حتى إنه رفض الاستجابة لنصيحة الطبيب أن لا يمشي في المسيرات والجنازات اليومية التي تمتد إلى مئات الأمتار بسبب مرض أصابه في قدميه، فكان في كل مرة على رأس الأمر وفي الصفوف الأولى.

لقد كان أبو مجاهد شديد التواضع قريباً جداً من القلب، تراه يحاضر في الطلبة الجامعيين ثم يتحدث في منابر الجمعة وهو الخطيب المفوه والواعظ المؤثر، ثم يتكلم باسم الحركة في احتفالات ومهرجانات يحضرها عشرات الألوف، ولا يمنعه ذلك أن تراه في ذات الحين يعطي جلسة تربوية أمام عشر طلاب ثانويين من أبناء الحركة ممن هم في جيل أبنائه، يحسن فن الاستماع، ويمكن لأي شبل في الحركة أن يطلب منه حديثاً خاصاً، ويذهب إليه أي مندوب عن الحركة في أحياء المدينة أو قراها لينسق معه مباشرة لأي نشاط جزئي، فلا يرد أحداً بل يسر بذلك فلا يخرج أحد من عنده إلا وهو راض ومطمئن.

منزله ديوان فعلي للحركة، فالاجتماعات واللقاءات لا تنقطع فيه، وجرس الهاتف لديه لا يكاد يتوقف لمتابعة الأمور الحركية والدعوية.

امتاز الشيخ بزهده وعفة نفسه، رغم قلة ذات اليد، يعطي جلّ وقته لدعوته ولإخوانه، فلا يجد الكثير من الوقت أو الجهد لتحسين وضعه الخاص أو الجري وراء الدنيا وفتنها.

لقد برع الشيخ جمال في العمل السياسي وفي تحليل الأحداث المتلاحقة ومتابعة تطوراتها، وبذل جهداً كبيراً ويومياً في إبداء الرأي في القضايا السياسية المختلفة، وساعد على التنسيق بين مختلف قطاعات الحركة للوصول إلى المواقف المتفق عليها، يتصل بكل القيادات في مدن الضفة والقطاع وكذلك مع المكتب السياسي للحركة في الخارج.

ويعطي رأيه المتوازن والواقعي في كل الأمور، لكنه يلتزم بالقرار الجماعي ويدافع عنه ويتبناه بكل قوة، كما إنه أبدى اهتماما مميزاً بقضية اللاجئين وأقام لجنة داخل الحركة للاهتمام بهذه المسألة تثقيفاً وتحليلاً وإحياءً لذاكرة اللاجئين في المخيمات، ثم شاركت هذه اللجنة في تشكيل هيئات وطنية

عامة بالتنسيق مع بقية القوى والفصائل لإبقاء قضية اللاجئين قضية مركزية في الصراع.

لقد أثّر الشيخ جمال على إخوانه الذين أحبوه وعرفوا له فضله، ويشاء اللّه تبارك وتعالى أن يختاره إلى جواره في نفس الحادثة مع الشيخ جمال منصور ليجمع اللّه بينهما في حياتهما وفي استشهادهما، ليخرج الناس كلهم في وداع الشيخ، ثم يكون حفل تأبين ومنصة اشتاقت إليه بعد أن تعودت عليه، ولكنه يتركها ليقف هناك على منصة السماء.

ومن عجائب الأقدار أن الشيخ جمال ألّف كتاباً عن أحكام الشهيد في الإسلام كرسالة للماجستير، وأهدى نسخة منه لأحد قيادات الحركة في غزة الذي لم يطّلع على الكتاب لشهور عديدة بسبب الانشغالات، فإذا به يمسك بالكتاب ذات ليلة ويقرأ فيه فيكون صباح ذلك اليوم هو الموعد الذي اختاره اللّه ليجمع بين الشيخ وبين الشهادة.

☒ الشهيد القائد البطل: محمود أبو هنود

عندما تطل برأسك على قرية عصيرة الشمالية وتشم في نسماتها رائحة الشهداء سيكون أبو هنود في مقدمتهم بلا مراء، وستجد نفسك في حيرة آنذاك، هل عنفوان هذه القرية هو الذي أنتج بطولة محمود أم إن جهاده وتضحياته وإصراره هو الذي ساهم في زرع بذور المقاومة فيها، أم إن عصيرة قد ولدته فلما رأته باراً بها مدافعاً عن كرامتها محارباً لعدوها اشتاقت إليه فعادت واحتضنته في أحشائها من جديد ؟!!!

محمود، ابن الريف الأصيل بكل ما فيه من نقاء وصفاء وفطرة سليمة، زاده الالتزام بدينه منذ الصغر عراقة وضياء، ثم زاده انتماؤه الباكر لدعوة الإخوان صلابة ومتانة، فاتّضحت ملامح شخصيته وتكاملت، ثم سبق أقرانه وتقدم الصفوف، وعلا بعد ذلك وارتقى بجهاده ومقارعته للاحتلال حتى صار الجهاد صفته الأساسية التي لازمته وعرف بها طوال حياته، أحبّ محمود المسجد وداوم عليه وتلقى التربية الإخوانية وانتفع بها، وشارك في نشاطات حماس وفعالياتها كلّها، لم يتخلف ولم يتردد أبداً.

حين أنهى دراسته في المرحلة الثانوية انتقل إلى جامعة الخليل لإكمال دراسته فيها، وكانت الهمة والنشاط والالتزام صفاته التي ترافقه في كل حين.

استعدّ محمود لدفع ثمن الطريق الذي اختاره، فدخل السجن وصبر، ثم انضمّ مع خمسة من أبناء قريته الصغيرة إلى قافلة المبعدين إلى مرج الزهور في جنوب لبنان أواخر العام ١٩٩٢م، وهناك تعرّف إلى قادة الحركة ورموزها القادمين من كل المناطق فأحبّهم وأحبّوه، فكان مثالاً للأخ الخدوم المعين لإخوانه.

ورغم شدّة المحنة وصعوبتها هناك- خاصة في مراحلها الأولى- إلا أنه لم يضجر ولم ييأس وبقي الأمل يحدوه بالعودة إلى الوطن ليواصل مشواره الجهادي على الأرض التي أحبها وعشقها.

وحينما رجع شارك في العمل الجهادي للحركة وبرع فيه، وامتاز بجرأته وشجاعته وكأن الخوف لا يعرف إلى قلبه سبيلاً ، يعمل بيده وينفذ المهام بنفسه ويحب أن يتقدم دوماً، يتقن فن إطلاق النار، دقيق في إصابة الأهداف كما لو أن السلاح جزء من جسده، وهذا ما ساعده على نصب العديد من الكمائن مع بعض إخوانه، والتي كانت تستهدف آليات الاحتلال التي تمر في طرقات الوطن، مما أوقع العديد من الإصابات والخسائر في صفوف العدو.

واضطر هذا المجاهد بعد ذلك إلى دخول عالم المطاردة والملاحقة، فترك المنزل والأهل واعتاد التنقل والاختباء، وخلال هذه المرحلة عمل على زيادة نشاطاته وتوسيع دائرة المجاهدين، وصار يجوب مدن الضفة وقراها، ينظّم ويجنّد ويرتّب المجموعات ويربط الخطوط وينسّقها.

وكان له دور رئيسي في العمليات الإستشهادية الشهيرة التي عرفت باسم "شهداء من أجل الأسرى" والتي تمت في القدس المحتلة أواخر التسعينيات من القرن العشرين، حيث شارك فيها أربعة مجاهدين من أبناء قريته، والتي كانت تهدف إلى إحياء ملف الأسرى في سجون الاحتلال، وزيادة الضغوط من أجل نيلهم الحرية بكرامة حين عجزت جهود التسوية السلمية عن إنهاء معاناتهم المتواصلة.

وقد تميز العمل الجهادي في تلك المرحلة بصعوبة بالغة، فالاحتلال يقتل ويلاحق ويعتقل ويضيّق الخناق، والسلطة في أوج قوّتها تلهث وراء السراب وتسعى لتقدم رأس المقاومة مقابل تسويات هزيلة، والتنسيق الأمني بين السلطة والاحتلال على أشده.

وأبو هنود هدف مشترك تلاحقه وتطارده كل الأجهزة الأمنية العاملة في المنطقة، واشتد الطلب عليه باعتباره المطلوب الأول للاحتلال في الضفة الغربية، وجرت عدة محاولات لاغتياله كان من أشهرها تلك التي حدثت قبل أشهر قليلة من بداية انتفاضة الأقصى، حين تمكنت أعداد كبيرة من

القوات الخاصة للاحتلال من محاصرته ليلاً داخل قريته عصيرة، وكادت أن تجهز عليه لولا عناية الله ثم يقظته وتأهّبه وسرعة بديهته، فكان أن فاجأهم واستمرت المواجهات فترة من الزمن أسفرت عن مقتل ثلاثة من جنود الاحتلال، وفي المقابل أصيب محمود بجراح أتعبته لكنها لم تقعده، ورغم الدماء والليل المظلم والموقف الحرج فقد تحرك في جبال القرية وسهولها بخفة وذكاء لأنه كان يعرف المنطقة مثل كف يده، واستطاع الوصول إلى مدينة نابلس لكنه اضطر إلى دخول المستشفى، حيث اعتقلته السلطة الفلسطينية وقدّمته لمحكمة عسكرية سريعة حكمت عليه بالسجن الفعلي لمدة خمسة عشر عاماً بتهمة مقاومة الاحتلال!!، ووضع في سجن إنفرادي، ومنع من التواصل مع الأسرى السياسيين لدى السلطة آنذاك، واستقبل محمود الأمر بهدوء المؤمن الواثق، وصبر على الأذى والتضييق لكنه استمر في علاقاته مع العمل الجهادي عبر رسائل سرية كان يخرجها من سجنه.

وبقي على هذا الحال حتى اشتدّت ضربات حماس الموجعة ضد الاحتلال خلال انتفاضة الأقصى، فاختار العدو محمود هدفاً للانتقام، حيث تم قصف سجن نابلس بصواريخ طائرة حربية من طراز إف ١٦، ليتهدّم جزء كبير منه ويقتل أحد عشر حارساً هناك، وجاء آلاف الناس للاطمئنان على محمود الذي نجّاه الله من بين الدمار والركام، واضطرت السلطة بعد ذلك إلى إطلاق سراحه ليعود إلى الجبال مرة أخرى، حيث عاش معظم فترات مطاردته، وكانت له طريقة قاسية في العيش فيها، ويرى في الأرض المفتوحة حضناً دافئاً يلجأ إليه كلما اشتدت الأمور من حوله.

جنّ جنون العدو، وصار محمود كابوساً يلاحقهم، وأطلقوا عليه لقب صاحب الأرواح السبعة والرجل الذي لا يهزم، ومع ذلك حافظ أبو هنود على تواضعه وحبه لإخوانه والتزامه المطلق بمواقف الحركة وقراراتها، وظل حبه للشهادة مسيطراً على نفسه ومستحوذاً على قلبه حتى أصر في مرحلة ما على تنفيذ عمل استشهادي بنفسه لولا رفض إخوانه التام لهذه الفكرة التي رأوا فيها هدية مجانية تقدم للاحتلال مهما صاحبَها من خسائر في صفوفه.

وحين جاء الموعد مع الشهادة؛ لاحقته عدة طائرات مروحية وأطلقت صواريخها الجبانة على السيارة التي كان يستقلها برفقة اثنين من إخوانه فأصابتها بشكل مباشر، ما أدى إلى استشهاد مرافقيه على الفور، لكن محمود صاحب الحركة السريعة تمكّن من الخروج من السيارة وجرى بعيداً عنها، فطاردته الطائرات مستخدمة تلك الصواريخ المضادة للدروع مستهدفة ذلك الرجل الذي زرع الرعب في قلوبهم، وكان أشدّ عليهم من جيوش جهّزت للاستعراضات.

وأصابت الصواريخ جسد محمود الأعزل من كل شي إلا من إيمانه، فامتزج لحمه ودمه بتراب الأرض التي طالما مشى عليها مجاهداً في سبيل اللّه، في بقعة قريبة من قريته.

وارتقت الروح إلى بارئها، بينما لم يميّز الناس الجسد إلا من بعض العلامات الفارقة فيه، ولم يجرؤ الاحتلال على إعلان فرحته خشية من أن يكون أخطأ الهدف مرة أخرى، وبقي الأمر كذلك إلى أن أعلنت حماس الخبر، ثم نقلت بقايا الجسد إلى جنين فودّعه أهلها، وانتظره سكان نابلس حتى ساعات المساء وشارك الآلاف في تشييعه، ثم استقبلته عصيرة في وقت متأخر لتخرج برجالها ونسائها وأطفالها تعلن الوفاء لمن حفظ العهد وأدى الأمانة، وأبى إلا أن تكون استراحته الأخيرة في بطن الأرض التي نشأ فوقها.

وقبل أن تكتمل سعادة العدو كانت حماس قد ردّت له الصاع صاعين وأذاقته الويلات في غزة والقدس وحتى حيفا، وشاء اللّه أن يسدد الضربات.

وكأن فلسطين كلها أرادت أن تشارك في الردّ، معلنة وفاءها للمجاهد الذي رفض القيد وحافظ على الوعد.

☒ الشهيد البطل: إبراهيم بني عودة:

اعتاد الناس على فكرة (الجندي المجهول) الذي يقاوم ويقاتل ويستشهد دون أن يُعلم كثيرٌ من أمره أو تعرف تفاصيل حياته ويذهب إلى اللّه وهو على هذا الحال، لكن المقاومة في فلسطين خلاّقة تتجلى إبداعاتها في ميادين مختلفة وتغمر البركة فيها كل شيء حتى ظهر فيها مفهوم (القائد المجهول)!!، وكان الشهيد إبراهيم بني عودة واحداً من هؤلاء.

فقد عرف نفر من الناس بعض جهاده عند أسره، ثم عرف أكثر الناس حجم عطائه بعد استشهاده، وبقيت تفاصيل قيادته في علم اللّه عز وجل لا نرى سوى آثارها من بعده.

هو من قرية طمون، لكنه عاش معظم حياته خارج الوطن وعرف قسوة الغربة وصعوبة الحياة حين لا ترى عيونك أرض فلسطين، لكن قلب إبراهيم لم يفارق دياره، ولم يغب عن ذهنه العدو الذي يغتصب أرضه، فاستغل فترة وجوده في الخارج ليتعلم ويتقن العمل العسكري في مجالاته

المتعددة، ويتنقل في بعض ميادين الجهاد في العالم الإسلامي، ثم يرجع إلى فلسطين التي أحبّ؛ ليضمّ جهوده إلى بقية إخوانه المقاومين للاحتلال.

وكان له دور في كتائب القسام في أكثر من مرحلة، حيث كان يدخل البلاد دون أن يثير الشكّ والريبة فيجتمع إلى بعض العاملين في العمل الجهادي أو يربط ويصل بين خطوطهم ويشارك في نقل الخبرة التقنية والمهنية العالية التي يتمتع بها.

ومن حسن تدبيره ودقة عمله أن الاحتلال لم يعرف عنه أي شيء، وكانت إجراءاته الأمنية عالية لدرجة أنه كان يحمل بطاقة "ممغنطة" تمكّنه من الدخول إلى داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة عام١٩٤٨م، وهي بطاقات لم يكن الاحتلال يمنحها إلا لأشخاصٍ ليست لهم أية نشاطات في المقاومة ولا تربطهم بالعمل التنظيمي أية صلة.

ثم شاء الله أن يُكشف أمرُه على يد أجهزة أمن السلطة الفلسطينية، ويتم اعتقاله في سجونها قرابة العامين، تعرض فيها للتحقيق والتضييق، ورفضت السلطة الإفراج عنه وبقي في سجنهم حتى تم اغتياله أثناء خروجه في إجازة خارج السجن!!.

وعاش فترةً طويلةً في سجن جنيد المركزي بنابلس برفقة ثلةٍ مميزةٍ من قادة حماس وكوادرها الذين عرفوا صدق انتمائه وخبروا طيب معشره وصلابة مواقفه، فاختاروه من بينهم فترة من الزمان ليكون ممثلهم أمام إدارة السجن، فدافع عن حقوقهم وعبّر عن مطالبهم بأحسن ما يكون الأداء.

امتاز إبراهيم بهدوء أعصابه وسرعة بديهته، حيث كان قد استأجر مكتباً في إحدى البنايات وسط مدينة نابلس واتّخذ منه مقراً يدير من خلاله أعماله الجهادية في فترة حساسة سبقت انتفاضة الأقصى، وكان المجاهدون يضطرون إلى أضيق السبل وأصعب الأماكن هرباً من الملاحقة والمراقبة الدائمة، ولما تسنى له الحصول على قذيفة هاون قديمة حملها إلى مكتبه وبدأ يعمل على تفكيكها للاستفادة من المواد المتفجرة الموجودة بداخلها، لقلة إمكانات المقاومة في تلك المرحلة مع وجود الحاجة الماسة لذلك.

ورغم براعته وخبرته المهنية في هذا الأمر إلا أنّ القذيفة انفجرت وهي بين يديه نتيجة خلل ما، وما هي إلا لحظات حتى شعر بالذهول حين رأى أنه لم يصب بأي أذى بعد أن توقع أنه سيتحول إلى أشلاء، لكنّها إرادة الله ولطفه يقدّرها كيف يشاء في أوقات المحن على وجه الخصوص.

وهنا تدارك إبراهيم نفسه وسارع إلى تبديل ثيابه ومسح آثار الانفجار على وجه السرعة وغادر المكان حتى لا يكشف أمره، حيث كان يتوقع رؤية حشد من الناس حول المكان نتيجة الصوت الهائل الذي أحدثه الانفجار، لكن المفاجأة كانت أن أحداً لم يسمع الصوت بما في ذلك رجال المخابرات الفلسطينية الذين اتخذوا من الطابق الأسفل من مكتبه مقراً لهم.

اتّضحت بعض ملامح إبداعه من خلال قدرته على إدخال عنصر التمويه والتنكر، وكان له دور في هذا الشأن مرتبط بعمليتين بطوليتين نفذتا باسم "شهداء من أجل الأسرى" على يد مجموعة من رجال القسام من أبناء عصيرة الشمالية، وقد صعب على الأجهزة الأمنية

للاحتلال معرفة هوية الإستشهاديين أو تحديد مكان انطلاقهم، حيث تم مسح بصمات أصابعهم قبل التنفيذ وإزالة أي إشارة على ملابسهم تشير إلى مكان شرائها أو إنتاجها، وكانت هذه الإجراءات ضرورية في تلك المرحلة الحرجة من تاريخ المقاومة على وجه الخصوص.

كما تميّز إبراهيم بقدراته العالية في مجال صناعة الطرود والعبوات المفخخة حتى في أدوات صغيرة الحجم، إذ تمكّن من تجهيز قلم متفجر ورسالة مفخخة وغير ذلك من الأمور التي لم تكن تعرفها المقاومة حينها، وهذه الخبرة النادرة والمعرفة الراسخة عرفها رجال أمن السلطة الفلسطينية حتى قال عنه أحد قادتهم بأنه كنز تمتاز به حماس وتستحق أن تُحسد على وجود إبراهيم في صفوفها، ولاشك أن الاحتلال كان يعرف ذلك أصلاً كما يعرف همة إبراهيم وإصراره وثباته، فعمد إلى اغتياله في واحدة من أوائل حالات التصفية التي مارسها الاحتلال بعد انطلاقة انتفاضة الأقصى، خاصة أن إبراهيم -ورغم سجنه- واصل نشاطه الجهادي وراح يحرّك بعض المجاهدين الذين يعرفهم.

وقام الاحتلال بتفخيخ سيارة كان يستقلها إبراهيم وذلك على يد أحد عملائه ليرتقي "أبو حذيفة" إلى ربه وسط مدينة نابلس التي احتضنته كواحد من أبنائها.

ورغم أن الناس لم تعرفه من قبل على المستوى الجماهيري إلا أن جنازته كانت يوماً مشهوداً شارك فيها عشرات الآلاف الذين رافقوه ثم ودعوه في ميدان الشهداء وسط المدينة في مشهد مهيب.

وكانت شهادته بمثابة تجديد لعهد المقاومة مع الشعب واستمرارٍ لجولة أخرى من جولات الصراع مع المحتل، ثم انطلقت به الجموع حتى احتضنته أرض قرية طمون، ليسجل اسمه في قائمة المجد والجهاد، ولينتصب قدوة لكل مغترب حوى الوطن في قلبه فحفظه الوطن في ذاكرته.

☒ الشهيد المجاهد مهند الطاهر:

رجل رفعه الجهاد وباركت المقاومة مكانته، فهو واحد من قادة المجاهدين الذين جعلوا الإحتلال يعتبر نابلس مركزاً رئيساً للمقاومة، حتى تباهى العدو بمقتله وتنفست قيادتهم الصعداء، وهللت وسائل إعلامهم حين تم القضاء عليه، رغم اعترافهم وإقرارهم بمسؤوليته عن مقتل ما يزيد عن مائة صهيوني وإصابة أعداد أكبر خلال مسيرته الجهادية.

علاقة مهند بالمقاومة بدأت قبل انتفاضة الأقصى؛ فقد كان له دور في عمليات القسام التي تمت في فترة أوسلو، مما أغضب أصحاب مشروع التسوية، فقاموا باعتقاله ولبث في سجونهم فترة من الزمن، قضى معظمها في سجن جنيد مع ثلة من قيادات حماس وكوادرها، حيث تعرضوا هناك إلى الكثير من التضييق وعاشوا مرحلةً صعبةً اضطرّتهم إلى اتخاذ خطوات احتجاجية متواصلة بلغت حد الإضراب المفتوح عن الطعام لمدة تجاوزت الشهر.

وبقيت السلطة تماطل في الإفراج عنهم وتتلاعب في إطلاق سراحهم حتى انطلقت انتفاضة الأقصى وتوجهت الجماهير نحو سجن جنيد الذي يمثل رمز القهر في حينه، فاضطرت السلطة إلى إخراج المعتقلين السياسيين من داخله، ولمّا خرج مهند سارع إلى الانضمام إلى ركب المقاومين؛ فكان من أوائل العاملين في القسام في المنطقة، وكانت له بصماته الواضحة مع كل من عمل معه أو خالطه.

لم يكن عنده كثير تمسكٍ بالدنيا، وكانت علاقته بالقرآن مميزة، حيث أتم حفظه كاملاً، ثم انتقل إلى حفظ الحديث الشريف مع بعض إخوانه، وذلك بعد أن أنهى دراسته وتخرج من كلية الشريعة بجامعة النجاح.

وهكذا كان المسار واضحا أمام مهند، إذ لم يفكر أثناء مطاردته بأن يوجه سلاحه لمن آذاه وعذّبه من أبناء جلدته، فركّز جهوده كلها على المحتلين، ينظّم ويجنّد العناصر، يتواصل مع بقية القادة الميدانيين للمقاومة، يخطط للعمليات ويشرف عليها.

كان معظم أصحابه وأصدقائه من رجال المقاومة, عاشوا في السجن معاً حتى إذا خرجوا تعاهدوا على المضي في درب الجهاد, حتى إذا صاروا مطاردين تبايعوا على الشهادة, فسبقه عدد منهم.

ومع كل شهيد يمضي كان إصرار مهند يزداد قوة, وحزنه على الفراق يدفعه نحو العمل وشدة البأس لا إلى القنوط ومظاهر اليأس.

وبمرور الوقت وتطور الأحداث صار مهند من أخطر المطلوبين لدى قوات الاحتلال, فشددوا في عمليات ملاحقته ومطاردته حتى اضطرّ إلى الخروج نحو الجبال في بعض المراحل برفقة إخوانه المطاردين من أبناء الريف الذين اعتادوا على مثل تلك الظروف.

ومع بداية الإجتياحات العسكرية للمدن الفلسطينية ضاق الخناق على المجاهدين, خاصة أمثال مهند الذين اعتبرهم العدو أهدافاً أساسية.

ولما حوصر داخل مدينة نابلس برفقة علي الحضيري من طولكرم وعلي علان من بيت لحم, ولأنّه ابن المنطقة العارف بتفاصيلها تمكن من النجاة مع علان رغم إصابتهما جراء هدم المكان فوقهما وتواجد أعداد كبيرة من الجنود حولهما, وذلك بفضل سرعة تحركه وحسن فطنته بعد عناية اللّه وحفظه, إذ استطاع التسلل من مدخل جانبي للمبنى قبل دقائق من وصول الجنود إليه.

وبعد ذلك وفي ظروف غاية في الصعوبة -ظن فيها العدو أنه قد تمكن من القضاء على المقاومة بعد أن احتلّ كل المدن الفلسطينية- تمكن مهند من التخطيط والإشراف على عملية فدائية نفذت في قلب مدينة القدس أوقعت عدداً من القتلى والجرحى, أرغمت شارون - وهو المسئول المباشر عن عمليات الاجتياح والقتل- على الوقوف فوق الجثث والدموع في عينيه, في صورة كأنها إعلان عن الفشل في تحقيق أهداف الحملة.

وبسبب قوة العملية تأكد العدو أن لمهند بصمات فيها, فاشتد في متابعته حتى كاد يصل إليه أكثر من مرة وهو ينجو في اللحظة الحرجة, حتى جاء موعد اللقاء مع الأحبة الذين سبقوه, حين علم المحتل بتواجده داخل إحدى البنايات فحاصرها من كل الاتجاهات خشية أن يفشل في الوصول إليه كما حدث في المرات السابقة, وعبثاً حاولوا إقناعه بالاستسلام مهددين بقتله, وما عرفوا بجهلهم أن ما يخوفونه منه هو الذي يتمناه, فكانت المواجهة والاشتباك المباشر وكانت النتيجة شهادة في سبيل اللّه كان يبحث عنها منذ سنوات.

☒ الشهيد المجاهد أيمن حلاوة:

مقاتل من مدينة نابلس، أحب حماس لجهادها فانتمى، وتعلق بفكرها فوعى، ودرس في جامعة بير زيت التي طالما خرّجت المجاهدين والمهندسين المقاومين من بين طلبتها، مهني متقن في عمله الجهادي يحاول التطوير والتحديث باستمرار، كأنما الجهاد صنعته التي يعتاش منها.

يتحكم في الدوائر الكهربائية بمهارة عالية، وهي عنصر هام في التصنيع الجهادي، ولما استقدمت القيادة خبيراً من الخارج وعاش مع أيمن عدة أيام علمه فيها بعض الفنون والقواعد العملية، عاد الخبير معجباً بقدرات هذا المجاهد على العمل والابتكار في مجال الكهربائيات على وجه الخصوص، ولكنه تأثر أكثر بنفسية أيمن ومن معه من المطاردين، فعاد يشرح ذلك قائلا: جئت من عند رجال قلوبهم معلقة بالجنة وتفكيرهم يكاد ينحصر في المقاومة والجهاد.

كان لأيمن مشاركة مع الكتائب قبل انتفاضة الأقصى سجن بسببها لدى الاحتلال، فعرفه إخوانه بأخلاقه وأدبه المميز، وهناك التقى بقادة القسام الأوائل من كل المناطق، واستفاد من التجارب وحافظ على شحنة الإيمان القوية في قلبه.

ورغم قسوة السجن والسجان إلا أن أيمن خرج بعزيمة راسخة بنية مواصلة العمل واستكمال المشوار، فانخرط مباشرة في فعاليات المقاومة مع بداية انتفاضة الأقصى.

وفي يوم صيفي شديد الحرارة كان أيمن يعمل وحده في تصنيع العبوات داخل شقة مستأجرة بمدينة نابلس، ونتيجة احتكاكٍ بسيط في المواد؛ انفجر جزءٌ منها وملأ الصوت أرجاء المكان، وشاء الله يومها أن ينجيه فلا تنفجر كلّ المواد الموجودة في الشقة، أدرك أيمن الأمر بسرعة وتحامل على نفسه رغم إصابته فعمل على ترتيب الموقع وإخفاء الآثار خوفاً من مجيء الأجهزة الأمنية التابعة للسلطة الفلسطينية والتي كانت تلاحق المجاهدين في تلك المرحلة، ثم توجه بنفسه إلى المستشفى للعلاج، وتأثرت حاسة السمع لديه وبقي يعاني من آثار ذلك الحادث حتى استشهاده.

وبعد ذلك اضطر إلى الانتقال إلى حياة المطاردة والملاحقة فتحايل في خروجه من المستشفى بعد أيام، وترك منزله وزوجته وطفله الصغير الذي ما كاد يراه ويعيش معه، لكنها الهمم العالية التي تتجاوز كل الصعاب والأزمات، وهي نفوس المجاهدين التي تأبى الانكسار أو التراجع.

في هذه المرحلة كان أيمن أحد القادة الميدانيين الرئيسيين للمقاومة فأعطاها كل وقته ووضع فيها كل جهده، كان يعمل ليلاً ونهاراً كأنما يريد مسابقة الزمن.

وبترتيب مع القيادة فتح خطوطاً عدة للتواصل مع رجال المقاومة في عدة مناطق خارج نابلس ينقل خبراته ويعلم إخوانه، وحرصاً منه على مواصلة العمل شرح خبراته من خلال شريط مصور يفصل ويبين ويحذر من المخاطر.

كان يتواصل مع أميره عبر رسائل توضع في نقاط ميتة دون أن يعرفه أو يراه، ومع ذلك فهو المجاهد المطيع المنضبط والملتزم بتعليمات إخوانه.

ولشدة حرصه فقد كان يكتب لهم بالتفصيل اللازم عن كل تحركاته واتّصالاته، ويشاورهم ويعلن ثقته التامة بقيادته.

ولما علم الإحتلال بحجم دوره في المقاومة -خاصة سعيه في نقل الخبرة إلى مناطق أخرى- شدّد عليه وركّز جهوده في البحث عنه، حتى تمكن من الوصول إليه عبر استغلال حرصه على فتح خطوط للمقاومة مع منطقة القدس الحيوية، حيث قاموا بتفخيخ سيارة وصلته عبر شخص تبيّن أنه ليس أهلاً للثقة، وأثناء جلوس أيمن داخلها تذرّع سائقها للخروج قليلاً، وما كاد يبتعد حتى انفجرت السيارة؛ فاستشهد أيمن على الفور.

وتجمع الناس حوله وعيونهم مليئة بالدمع حتى شيعته الآلاف من محبيه في اليوم التالي ليلحق بإخوانه الذين سبقوه.

ويحتفظ لنفسه بمكان متقدم في سجل المجد والبطولة.

☒ الشهيد المجاهد نسيم أبو الروس:

منذ صغره عندما كان شبلاً في مسجد "السلام" غرب نابلس علّمته الدعوة والحركة أن السلام الآمن لا يكون إلا في المساجد وفي كل مكان يقام فيه شرع الله، وأن المحتل الغاصب لا تجدي معه ألفاظ "السلام" شيئاً.

كان من أوائل من سُجن لدى الاحتلال بسبب نشاطه في حماس وهو في تلك المرحلة المبكرة من حياته، وعندما خرج كان بإمكانه أن يعيد حساباته ويتراجع كما يفعل البعض عند أول محنة تصادفهم، وكان يمكن له أن يختار منهجاً آخر إذ حماس ما زالت فتية ناشئة حينها.

لكنه حافظ على العهد في كل المراحل حتى جاءت أوسلو بإفرازاتها وسلبياتها التي جلبت لشعبنا الأضرار والمهالك، وسنحت له فرصة المشاركة في عمليات المقاومة فلم يتردد، بل اقتحم وبادر، وكان برفقته صديقه جاسر سمارو الذي لازمه في كل مراحل الجهاد والتضحية والعطاء.

ولما كشف أمر المجموعة المجاهدة اعتقلت قوات الاحتلال بعض عناصرها بينما اعتقلت السلطة كل من نسيم وجاسر وعرضتهما على محكمة عسكرية حكمت على كل منهما بالسجن الفعلي لمدة خمسة عشر عاماً بتهمة مقاومة الاحتلال، والأغرب من ذلك والأشد إيلاماً أن السلطة وضعتهما في سجن أريحا سيء السمعة، والواقع في منطقة شديدة الحرارة والبعيدة جداً عن منطقة سكنهما في مدينة نابلس!!، وبقيا فيه لعدة سنوات، كان الأهالي يعانون خلالها من صعوبات كبيرة في التنقل والزيارة، ولم تجد كل محاولات الوساطة في إقناع السلطة بنقلهما إلى سجون نابلس على الأقل!!.

ولما اندلعت انتفاضة الأقصى وأُرغمت السلطة على إخلاء سبيل المعتقلين السياسيين لديها، خرج هذان المجاهدان، وتمكنا بذكاء وحكمة من الوصول إلى مدينة نابلس بأمان بعد أن أطلقتهما السلطة في منطقة أريحا والتي كانت محاصرة بشدة من قبل قوات الاحتلال.

وبعد لقاء قصير مع الأهل، اختفى المجاهدان عن الأنظار والتحقا بإخوانهما المطاردين، رغم أن هذا تم قبل اجتياح نابلس، فكان يمكن لنسيم أن يعيش بين أهله فترة من الزمن على الأقل لكن شوقه لساحات الجهاد كان أكبر.

وعلى الفور صار أحد القادة الميدانيين للعمل على مستوى المنطقة وعلى اتصال مباشر بقيادة المقاومة، وانتقل إلى جنين وغيرها في مرحلة لاحقة لينقل خبراته المميزة في تصنيع المواد، حيث تمكن من تطوير قدراته حتى زعمت قوات الاحتلال أنه استطاع التفوق على غيره ممن سبقه في هذا الميدان بما فيهم المهندس يحيى عياش رائد هذا العمل وصاحب الفضل الأول فيه.

وكان له دور مركزي في العديد من العمليات النوعية التي أوقعت خسائر كبيرة في صفوف العدو، والغريب في أمره أنه لم يكن قد أكمل دراسته، وكان رجلاً هادئاً جداً وخلوقاً طيب المعشر، جاء من عائلة فلسطينية عادية للغاية، من عامة الناس، وكان يمكن لمثله أن يعيش عمره كله لا يسمع به أحد ولا يترك أثراً خلفه، ولكنها بركة الجهاد وكرامة المقاومة وجمال التضحية تلتقي بالهمة العالية والنية المخلصة فتكون النتيجة مميزة والأداء عظيماً والمكانة عالية.

وشاء الله أن يُستشهد نسيم في حادث واحدٍ مع رفيق دربه جاسر وبصحبة شيخهما يوسف السركجي الذي كان له عليهما فضلٌ كبيرٌ و استشهَد معهم المجاهد كريم مفارجة.

وانتقلوا زمرة واحدة إلى جنات الخلد - بإذن الله تعالى-. فودعتهم نابلس بمشاركة الآلاف من أبنائها، ووسط الأحزان والدموع حفر نسيم اسمه في قلوب الناس، وخطّ بدمه مساراً مميزاً في حلقات الصراع مع المحتل، ونام داخل قبره بسلام، تاركاً خلفه بلاداً تحنّ إلى الأمان والسلام.

☒ الشهيد المجاهد نصر جرار "أبو صهيب" :

هذا الشهيد الذي تجاوز الأربعين، صاحب البشرة البيضاء والعيون الخضراء، يمتاز بصلابته وقوة ثباته على المنهج، لم تغير قناعاته الشدائد ولم تفتر همته المغريات، فقد أكلت جدران السجن سنوات طويلة من عمره لكنها سطّرت في نفسه إصراراً وعزماً، فقد أمضى عشر سنوات متواصلة في سجون الاحتلال انتهت مع بداية الانتفاضة الأولى في فلسطين أواخر الثمانينات، وقد كان ذلك بسبب مشاركته في مقاومة الاحتلال بدوافع دينية ومنطلقات شرعية، وقد تنقّل في هذه المرحلة بين العديد من سجون الاحتلال، واجتمع عليه قهر السجان وتسلط العدو من جهة، وظلم ذوي القربى من جهة ثانية، حيث إنه عاش في مرحلة كان أصحاب التوجه الإسلامي فيها قلة وكانوا يعاملون بالكثير من التضييق والتمييز والإجحاف من قبل الاتجاهات الفكرية التي تمثل الأغلبية!!، وكانت تلك صفحة سلبية في تاريخ الحركة الأسيرة أصبحت من الماضي حالياً.

ورغم ذلك فإن البوصلة في نفس نصر لم تنحرف أبداً، وبقي حقده موجهاً تجاه المحتل الذي أخذ من شعبنا كل شيء جميل وسبّب له كل المآسي والويلات.

وفي هذه المرحلة التي كان النسيان والبعد أهم ملامحها أصرّ نصر على متابعة تطور الحركة الإسلامية ونموها خارج أسوار السجن، فكانت إحدى وسائله الطريفة لذلك بأن يتابع الصحف المحلية باهتمام، وحين يجد خبراً ما يتحدث عن شخص يتعلق بالعمل الإسلامي الطلابي أو الرياضي أو الاجتماعي ترى نصر يبادر فيرسل رسالة من سجنه لهذا الأخ يحثّه فيها على مواصلة طريق الدعوة ويطلعه على حال السجن وأوضاع الأسرى داخله.

وحين خرج نصر من هذه المحنة وجد حماس قد انطلقت ومدّت أشرعتها، وصارت بصمات جنودها في مقاومة الاحتلال واضحة في أرجاء الوطن، وهنا بدأ بالبحث عن دور له في هذه الحركة وكان له دوماً تعلقٌ خاص بالعمل المسلح، وبعد فترة قصيرة عادت قوات الاحتلال لاعتقاله وتم إخضاعه إلى تحقيق قاسٍ وطويل؛ لوجود قناعات لدى المحققين بأن له دورٌ في بعض العمليات الجهادية التي حدثت في المنطقة، لكن نصر يأبى الاعتراف ويهزأ بالجلاد ويرفض الخضوع والتراجع ولو لخطوة واحدة لأنه يعلم أن ذلك سيجبره على الاستسلام حتى النهاية فاختار الصمت، وهنا قام المحتل القائم على الظلم بتحويله إلى الاعتقال الإداري لعدم تمكنه من إدانته ليقضي نصر عدة سنوات أخرى دون محاكمة.

وفي مرحلة السجن كان نصر منفتحا على الجميع، يقيم العلاقات الطيبة مع الصغير والكبير لا يتعالى على أحد، قليل الكلام ليس من النوع الذي يتحدث عن نفسه، لا يكثر من ذكر سنوات سجنه الطويلة أمام إخوانه، متواضعٌ يحب أن يقوم بشأنه بيده بل ويحرص على خدمة من معه، حتى إنه عمل في مطبخ السجن ليخدم إخوانه رغم كبر سنه بالنسبة لهم.

في محنة السجن.. اعتاد أن يجعل القران رفيقه الأول، لسانه رطب بذكر الله، أمله في الله متين ولا يدع اليأس يتسلل إلى قلبه، ومن غرائب أمره أن كل من يسأله طوال سنوات سجنه عن موعد إفراجه فجوابه دوماً أن هذا سيتم خلال أيام، ومن الطبيعي أن تراه وقد لبس أجمل ما لديه وكأنه يستعد للإفراج عنه يحاول بذلك بث الأمل في قلوب إخوانه.

أما علاقته مع السجان؛ فلا تعرف أنصاف الحلول، وما أن تحدث مواجهة مباشرة حتى يكون نصر في المقدمة لا يتردد ولا يخشى العواقب.

امتاز شهيدنا بحقده شديد على العملاء والمتعاونين مع الاحتلال، وكان يرى فيهم عيون المحتل التي يبصر بها، وكان يؤمن بضرورة محاربة هذه الآفة واستئصالها من صفوف شعبنا بعقلانية وحزم.

ومرة أخرى تأتي انتفاضة الأقصى، لتكون الرافعة لكل من ساهم فيها، وكأن نصر وجد فيها ضالته المنشودة، حيث بدأ عمله العسكري في منطقة جنين منذ البدايات، لم تردعه سنوات السجن السابقة ولم يقعده وجود الزوجة والأولاد.

صار نصر ينظّم العناصر ويقودهم بنفسه، ويأبى إلا أن يشارك بنفسه في النشاطات، يرصد ويراقب ثم يكون على رأس المنفذين.

وفي إحدى صولات الجهاد انفجرت عبوة في الميدان بنصر ومن معه لتصيبهم بجراح مختلفة كان نصيبه من ذلك بتر يده وساقه وجراحات أخرى في جسده، وتبدأ بعد ذلك مرحلة المطاردة والاختفاء، وهي فترة صعبة وقاسية على الأصحاء، تحتاج إلى صبر وتحمل وحذر وخفة في الحركة، وإلى تنقل من مكان إلى آخر تلاحقك عيون المحتل على الدوام، ولكن نصر الذي أصيب في جسده لم يصب في همته، وعاش هذه المرحلة يضمد جراحه وعينه على جرح الشعب، وما زادته الدماء التي نزفت منه إلا إصراراً على مواصلة مقاومة المحتل، وكأني به يستحضر قول ذلك الصحابي: "والله لو لم يبق معي إلا الذر لقاتلتهم به"، وهنا ترك نصر البيت والزوجة والأولاد، ورافق السلاح مع الجراح، واستمر يخطط لعمليات جديدة ويضم عناصر أخرى لعمله الجهادي؛ مما دفع المحتل لأن يشتد في طلبه وأن يبذل جهوداً كبيرة في ملاحقته والوصول إليه، حتى تمكن من معرفة مكان اختبائه في بلدة طوباس المجاورة.

وتم حصاره بقوات كبيرة معززة بالآليات العسكرية، ويظنّ المحتل بغبائه أن نصر لا يقوى على المواجهة في حالته تلك، لكنها الشهادة التي طالما تمناها، وهي الجنة يراها أمام عينيه، ويدخل نصر في المواجهة ويتواصل الاشتباك مع الجنود في معركة غير متكافئة انتهت بارتقاء روحه إلى بارئها، وسقط جسده الذي أتعبته الهمة العالية، وعلى الأرض فرح العدو وتنفس الصعداء.

وذهب نصر إلى رب السماء، يحمل علامات الخير والفخر كلها، سجنٌ ومطاردة .. جرحٌ وشهادة.

☒ الشهيد المجاهد نصر الدين عصيدة:

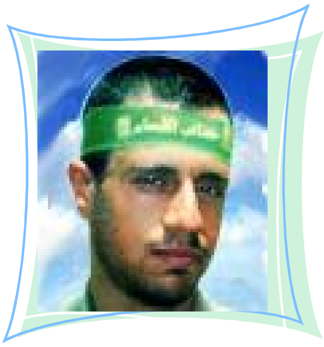

رجلٌ نشأ في الريف الفلسطيني بكل ما يتمتع به أهله من تواضع وبساطة ومن رجولة وشهامة، ومن جلد وصبر وعشق مخضرم للأرض والسهول والجبال، وكان القائد نصر الدين أحد أروع هذه النماذج، فهو ابن قرية "تل" المشرفة على نابلس والقريبة من بعض مستوطنات المحتل، امتاز بالكثير من صفات الخير الفطرية التي جبل اللّه النفوس عليها، ثم أضيف إلى ذلك في مرحلة لاحقة صحبة أخيار ومنهج حق وحرية حملت لواءها حماس فالتفّ من حولها أهل الهمّة والنخوة من الناس.

كان نصر شبلاً صغيراً، لم يكمل دراسته الأساسية حين وقّعت اتفاقية أوسلو-التي أجازت لدوريات المحتل الغاصب أن تخترق سكون قريته لتعكر طهارة هوائها وصفو مائها، فكان يتحيّن الفرصة ليرجمها بالحجارة تعبيراً عن رفض ذاتي غير مدفوع بتحريض حزبي أو سياسي، وحين اشتدّ عوده بحث عن السلاح وأهله، فاحتضنته حماس في مجموعة صغيرة قامت بقتل اثنين من حرّاس إحدى المستوطنات المجاورة وأخذ سلاحهما وعتادهما الذي كان من ضمنه سكين ظلّ نصر يحملها حتى استشهد، ويفتخر بكونها غنيمة ودلالة على جهاده، ثم تمكّن الاحتلال من أسر أعضاء المجموعة في حين اعتقلت السلطة نصر الدين ليمكث في سجنها فترة طويلة زادت عن السنتين تعرض في بعض فتراتها إلى تحقيق وتعذيب وضغط شديد.

وفي محنة السجن حافظ على هدوئه وطول صمته، وازداد تعلقه بكتاب اللّه، فكان يجلس يتلوه ساعات طويلة متواصلة، ورغم قسوة السجن ورتابة أحداثه أصرّ شهيدنا على المحافظة على استعداده وجهوزيته للمعركة القادمة، فكان من عادته أن ينام بكامل ملابسه وحذائه، وما إن يسمع باب السجن يفتح فجأة حتى تجده يقف على رجليه ويحمل سكينه الذي كان يخفيه معه، ومع بداية انتفاضة الأقصى صار نصر يتحرق في قيده باحثاً عن فرصة للذهاب إلى الميدان، وبدأ يفكر بخطة

للهروب من سجن جنيد بالتعاون مع بعض إخوانه، لكن الله الذي علم صدق توجهه وحبه للجهاد هيأ له فرصة للخروج بعد ضغوط جماهيرية متصاعدة على السلطة اضطرتها لفتح أبواب سجونها، خاصة بعد أن صارت هدفاً لقصف الاحتلال.

وبعد لقاءٍ قصيرٍ مع الأهل عاد نصر إلى الجبال يخطط ويقود عمليات المقاومة، ولم يكن يلجأ إلى البيوت إلا في حالات نادرة، فقد عرف المناطق البرّية مثل كف يده، يتجول فيها ويمشي ساعات طويلة بشكل متواصل، وينام الليالي وحيداً أو مع بعض إخوانه، وينام على الأرض فوق الصخور الناتئة وبين الأشواك كأنما يغفو على فراش وثير ممهد، وهو أمر اعتاد عليه منذ طفولته كما يذكر والده. وكان بقية إخوانه المطاردين إذا خرجوا معه لا يحتملون ما يحتمل ويشق عليهم متابعته ومرافقته، يحرص على إخفاء بعض الطعام والماء واللوازم في أماكن متفرقة بين الجبال ليستخدمها عند الضرورة والحاجة، سلاحه رفيق دربه الذي لا يفارقه أبدا لا يتركه في نوم ولا في يقظة، يطلق وينفذ بيده ويعشق السلاح الذي استُخدم في المقاومة حتى كان يقبله من حين لآخر كأنه معشوقه، ومع ذلك فحبّه لإخوانه أكبر وحرصه على أرواحهم أشدّ، فهو القائد الذي يؤثر إخوانه على نفسه باستمرار، وحين يكون معهم فإنه يعطي أفضل قطع السلاح لمن معه ويصرّ على حمل أقلها جودة، فهو يريد أن تكون لهم فرصة أفضل للنجاة في حالات الخطر والمداهمة.

نصر أو "نمر" -كما كان لقبه الحركي- يعيش على القليل، حيث كان يجفف الخبز لمدة ثلاثة أيام تحت الشمس، ثم يوزعه في المناطق البرية، وحين يحتاجه بعد أسابيع يبلله بقليل من الماء ويأكله، وهي طريقة القائد أبو هنود من قبله، والذي كان يرى فيه نصر قدوة ومثالاً له، أحبّه وكان شديد التعلق بقرية عصيرة الشمالية إكراماً ووفاءً له، كان يبتعد عن الحرام وعن كل ما يرى فيه شبهة، فقد أكل ذات مرة شيئا من التين الذي تشتهر به قريته تل، وترك شيئاً من المال معلقاً على الشجرة ليعطي بذلك نموذجا مميزاً للرجل المقاوم المطارد الحريص على أموال الناس، مغيراً بذلك بعض الصور السلبية السابقة لأشخاص اتّخذوا المقاومة سبيلاً للتسلط على الآخرين.

كان شديد الحذر، يتحرك بخفة ويتحدث بصوت منخفض ويدعو إخوانه لذلك، يراقب ويجهز ويعدّ العدة اللازمة للعمل ويستغرق كل ما يلزمه من وقت دون استعجال ولا تهوّر، ومع ذلك يحب الاستخارة قبل التنفيذ مستشعراً قول الله تعالى: "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى" الأنفال ١٧، وقد بدا توفيق الله له من خلال مجموعة من العمليات البطولية المميزة التي كان مسئولا عنها، وأهمّها عمليتي مستوطنة "عمانؤيل" واللّتان نفذتا بفارق زمني بسيط، ولكن بنفس الأسلوب وفي ذات الموقع

في خطوة فيها الكثير من الجرأة والتحدي لإجراءات المحتل أسفرت عن عشرات القتلى والجرحى، وبفضل الله ثم بجهاد وعطاء نصر وإخوانه من المقاومين كان عدد قتلى العدو على يد أبناء قرية "تل" أكثر من عدد شهدائها في انتفاضة الأقصى.

وهذا ما دفع الاحتلال إلى تشديد الملاحقة لنصر ومحاولة القضاء عليه بكل ثمن، لكنّ اللهّ قدّر له أن ينجو عدة مرات من قتل محقق جراء محاولات الاغتيال التي تعرض لها، فقد نجا ذات مرة باختفائه داخل برميل، ومرّة في خزان للماء، وحين اقتحم الجنود منزلاً واغتالوا الشهيد محمد ريحان تستّر نصر في غرفة مجاورة خلف حزمة من الحطب لا تكاد تحول دون رؤيته حتى جاء القطّ يداعبه وهو صامت لا يتحرك، وبقي كذلك ساعات طويلة حتى يئس العدو وترك المكان، وفي محاولة أخرى أطلقت عليه النيران من كمين نصبه جنود الاحتلال له ذات ليلة حين كان يتنقل مع بعض إخوانه فأصيب، ثم جلس في مكان آمن طوال الليل وجرحه ينزف وهو رابط الجأش قوي العزيمة حتى تمكن من الفرار والابتعاد عن المكان.

ومن جميل حفظ اللهّ له أنّه أثناء محاولته تفكيك قذيفة قديمة انفجرت بين يديه مما كان يعني تحويله إلى أشلاء في الوضع الطبيعي، غير أنّه لم يصب بأي أذى حيث انطلقت شظية بقوة نحو تلفاز كان في الغرفة فاخترقته مباشرة، واتّجهت شظية أخرى نحو صدره حيث كان يضع مصحفا في جيبه فاخترقت المصحف دون أن تصل إلى جسده، وهكذا يتجسّد فيه قول أبي بكر رضي اللهّ عنه: "احرص على الموت توهب لك الحياة".

واستمرّ نصر في مشواره الجهادي، لا يكلّ ولا يملّ، حتى جاء موعده مع اللهّ تعالى، حيث حاصرته قوة كبيرة من قوات الاحتلال قرب قرية الفندق، فكمن لهم كعادته دون أن يتحرك، وعجز الجنود عن الوصول إليه رغم إحاطاتهم به من كل جانب، حتى تمكن كلبٌ مدربٌ من إيجاده، فاضطر نصر إلى قتله والدخول في مواجهة مباشرة ومن مسافة قصيرة كانت نتيجتها استشهاده وانضمامه إلى قافلة الشهداء الذين سبقوه، وعدّ العدو ذلك إنجازا كبيراً له، ومضى نصر إلى اللهّ وهو في أواسط العشرينات من عمره، ولكن اللهّ بارك في عمله وجهاده فارتفعت مكانته بين الناس وعلا شأنه وصار مثالاً لكل شبل وشاب يرفض الذل ويتطلع نحو المعالي.

☒ الشهيد المجاهد طاهر جرارعة:

من شموخ عصيرة الشمالية المطلة على نابلس جاء الشهيد طاهر أحد القادة الميدانيين لكتائب القسام في شمال الضفة، شاب ملك من صفات الشخصية الإسلامية ما يضعه في موقع القدوة في كل منها، وهو نموذج مميز لقدرة حماس على تربية الأجيال وتخريج القادة بصورة تربك العدو وتزيد من حيرته في التعامل مع هذه الظاهرة.

هذا الرجل الطاهر ينتمي إلى زمرة فرسان النهار ورهبان الليل، فهو داعية معطاء، روحاني صقلت العبادة نفسه وكيانه، وظهر ذلك في حسن خلقه وجمال صحبته، حفظ كتاب الله تعالى في صدره فكان جوفه عامراً مشرقاً، وكان للقرآن الكريم أثر خاص في حياته دفعه إلى أن يتمثل بمقولة السلف الصالح: "لا ينبغي لحامل القرآن أن يلهو مع من يلهو ولا أن يلغو مع من يلغو"، ثم استعان بقوة حفظه مندفعاً بشدّة حبه للنبي صلى الله عليه وسلم، فعمد إلى حفظ صحيح البخاري حتى حوى معظمه في صدره.

ومن جانب آخر فهو مقاتل شرس ومجاهد هوايته مقارعة المحتل ومراغمة العدو، وهو صاحب بنية جسدية متينة ويتمتع بلياقة بدنية عالية، فقد كان رياضياً بارعاً، تميز بمهارته بكرة القدم، ويعد من أفضل اللاعبين في بلده ثم في جامعته.

تخرج طاهر من كلية الشريعة بجامعة النجاح، ثم التحق بمرحلة الماجستير، وكان بإمكانه أن يكتفي بهذا الدور؛ الداعية المحبوب والرياضي الموهوب، لكنّه كان ينظر ويتطلع إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير.

وكان من تدبير الله له أن جعل جل أصحابه من الرجال المجاهدين الذين قضى معظمهم نحبه في سبيل الله، كان أوّلهم ابن قريته القائد "أبو هنود" الذي استعان به وأشركه في بعض نشاطاته، من ذلك أن طاهر قام بإيواء أبو هنود في فترة ملاحقته قبل انتفاضة الأقصى وقدم له العون والمساعدة، وشارك في إخفاء مجموعة شهداء عصيرة الشهيرة التي عملت من أجل قضية الأسرى، وهم توفيق ياسين ومعاوية جرارعة وبشار صوالحة ويوسف شولي، وعلى خلفية هذا الدور اعتُقل طاهر لدى السلطة ومكث في سجنهم مدة قاربت الثلاث سنوات تعرض خلالها إلى أنواع شتى من التعذيب والقهر والتضييق.

وكان أن قضى جزءاً من هذه المرحلة في سجن جنيد مع ثله كريمة من قادة حماس وكوادرها، وذلك في أوج ممارسة السلطة للاعتقال السياسي والذي مثّل إحدى أكثر الصفحات سوداوية في تاريخ العلاقات الفلسطينية الداخلية.

وفي سجنه حظي طاهر بمحبة إخوانه، فلم يبدو منه تجاههم إلا كل خير، وهنا تعمقت صلته بالله تبارك وتعالى، وأقبل على كتاب الله يكثر من قراءته نهاراً ويتهجد به قائماً بالليل.

وحين خرج من سجون السلطة -التي تعرضت لقصف الاحتلال- عاد طاهر مرة أخرى لمواصلة مشواره في المقاومة، وقد استنفرته دماء الشهداء وصيحات الثكالى.

وظل يعمل في الخفاء إلى أن تم اغتيال القائد إبراهيم بني عودة، فانتفض طاهر لذلك الحدث، وفي ذلك اليوم دخل مرحلة جديدة من حياته، وبدأ مشواره كمطارد، وانضم إلى قافلة المجاهدين الذين تلاحقهم قوات الاحتلال وتبحث عنهم في كل مكان.

وفي هذه الفترة كان يختبئ في بعض البيوت أحياناً، ويتنقل عبر الجبال في أوقات كثيرة، يخطط للعمل ويشارك بيده في عدد من العمليات خاصة تلك التي كان يتم فيها استهداف العدو من خلال إطلاق النار في الطرق الالتفافية التي تحيط بالمدينة.

وراح يوسّع نشاطه من خلال تنظيم عناصر جديدة من القرى، وامتاز بذكائه الواضح وحِسه الأمني الذي ساعده على أداء مهامه بدقة وإتقان، له همّة عالية يودّ لو يستطيع أن يقوم بكل يوم بتنفيذ عمل ما.

كان شديد الثقة بقدرته وقدرة إخوانه، وكثيراً ما كان يردّد مقولته الطريفة المفعمة بالأمل "لن يقدر عليّ أحد، سننجز عملنا في فلسطين، ثم نكمل المشوار إلى الشيشان". هكذا ببساطة يرى صاحب القرآن الدنيا جولات من الجهاد متلاحقة، لا وقت فيها للراحة والسكون.

عرف طاهر بشدة التزامه وانسجامه مع قرارات الحركة، وحين اجتهد مرّة وخالف مسئوله وتبين له بعد ذلك صحة رأي أميره حزن لذلك حزناً شديداً وأصابه الهمّ حتى أرسل لأميره رسالة يقول فيها إنه الآن قد تحقق من بركة الطاعة والالتزام، فردّ عليه قائده يسلّيه ويشدّ من أزره ويحثّه على مواصلة الدرب، وهكذا كان.

كان طاهر- وهو أكبر إخوته- دائم التطلّع إلى الآخرة، يحبّ العمل في الخفاء، لا يبحث عن السمعة والصيت والشهرة، وكان يرفض بشكل قاطع التقاط صور شخصية له خاصة في فترة الملاحقة والمطاردة، فلم يترك خلفه سوى بعض الصور القليلة التي تمكن إخوانه من التقاطها خلسةً ودون علمه.

كان صديقه المقرّب القائد مهند الطاهر، حيث تعلق كل منهما بالآخر، فكانا كتوأمين في السجن، عاشا معاً، وفي العلم درسا القرآن معاً، وحفظا الحديث سوية، وفي ميدان الجهاد والمقاومة انضمّا إلى قافلة المقاتلين المطاردين في يوم واحد، عملا معاً واختفيا معاً، وظهرا معاً، لكنّ طاهر سبق صديقه إلى الجنة.

فبعدما اجتاحت قوات الاحتلال المدن، لجأ طاهر إلى الجبال استعداداً لجولات جديدة من المواجهة، لكنه حوصر في جبال عصيرة التي أحبها وأحبته، وفي مواجهة استخدم العدو فيها كل الأسلحة ارتقى طاهر إلى ربه برفقة صديقه إياد حمادنة الذي كان يرافقه في أوقاتٍ كثيرة.

ترك شهيدنا الدنيا؛ ولكنّ مسيرته الطيبة بقيت من بعده، ستذكره تلك الصخور والوديان والحقول، وسيظلّ حافظ القرآن والحديث حياً في نفوس الأجيال لعلهم يقتدون ولعلهم يتشبهون.

☒ الشهيدان المجاهدان الشقيقان عامر وعلي الحضيري:

قدّر اللّه لأهل فلسطين أن تلتحق بعض العائلات برمّتها في الجهاد، فيسطّر الأبناء صوراً رائعة من البذل والعطاء والتضحية والفداء، ويكتب الإباء فصولاً مشرقةً في الصبر والرضا والاحتساب، فهي جباهٌ لا تعرف الانحناء، عرفوا قيمة الوطن وخبروا ظلم المحتل فألقوا في أتون المعركة كل الأبناء.

من طولكرم.. المدينة الوادعة، خرج الشقيقان (عامر وعلي)، وهما الولدان الوحيدان لأبويهما، وكما في كل عائلة حرص الأهل على تنشئة الأولاد تحت عيونهم وراحوا يرسمون لهم المستقبل ويزيّنون الأحلام بالزواج والأحفاد والعيشة الرضيّة، لكنّ اللّه أراد أمراً آخر وجعل من هؤلاء الأبناء أبناءً لكل الشعب وجعل ذكرهم ومسيرتهم مدداً للأجيال القادمة.

جمع الأخوان كثيراً من الصفات المشتركة، فيما تميز كل واحد بشيء يخصّه أكثر، كان عامر قد درس الاقتصاد بينما توجه علي لدراسة الهندسة بجامعة النجاح، اعتُقلا معاً لدى الاحتلال فما رأى الناس منهما إلا الخير والإيجابية.

كان عامر يجمع بين المرح والابتسامة وبين الجد والنشاط، فكان فعّالاً وبارزاً في الدعوة من خلال العمل الطلابي في مدرسته ثم في الجامعة، منظّم في وقته، يوائم بين واجباته الحركية والعائلية والشخصية فيعطي كل ذي حق حقّه، يعتني بمظهره وملابسه رغم تواضعه، وهو رياضي يحبّ كرة القدم كغيره من أقرانه، كما كانت

علاقته مميزة مع أهله تجمعهم المودة والمحبة، لم تمنعه دراسته وانشغاله الحركي من القيام ببعض الأعمال لمساعدة عائلته في ظروف الحياة الصعبة التي يعيشها شعبنا الفلسطيني.

وحين بدأت انتفاضة الأقصى، كان عامر أحد النشطاء الأساسيين في العمل الميداني الذي تقوده حماس، لكنّه كان يتطلع إلى ما هو أكثر من ذلك ويبحث عن وسيلة للانخراط في المقاومة المسلحة، ولما عرض عليه أحد القادة ذلك أحس بفرحة غامرة كمن وجد ضالّته.

ثم أراد صاحبه اختبار مدى استعداده للتضحية، وسأله عن إمكانية قيامه بعمل استشهادي، فكان جواب عامر بالقبول مباشرة ودون تردّد، إذ كان شعاره الذي هتف به وآمن به "الموت في سبيل الله أسمى أمانينا"، لكنّ الضرورة كانت تقضي استغلاله في نشاطات أخرى، فقام بالمشاركة في بعض العمليات ضد المستوطنين، كما ساهم في إعداد إحدى العمليات الإستشهادية، وكانت همّته العالية تدفعه إلى مسابقة الوقت بحثاً عن أي فرصة لمقاومة المحتل، حتى إن أحد إخوانه المرتبط بالمقاومة في نابلس عرض عليه الانضمام إليه فوافق واستعدّ وبقي كذلك حتى حسم أمره من الناحية التنظيمية.

وفي اليوم الذي قدّره الله للقائه، تناول عامر مع أمّه طعام الغداء، ثم لبس أجمل ثيابه حتى قال لأمه: إنني اليوم مثل العريس المسرع نحو عروسه، فسرّت وابتسمت وألقت عليه نظرات محاطة بالدعوات تتخيل ولدها يدخل عليها يمسك بيد زوجته.

ركب عامر سيارته وانطلق، فقد كان على موعد لاستقبال الأحزمة الناسفة المجهزة للعمل، وفي الطريق أطلقت طائرة الغدر والإجرام صاروخاً أصابه مباشرة، وحاول الخروج لكنّ النار عاجلته، فلقي الله محترقاً في مشهد مؤلم راقبه كثير من الناس، وكأن الله أراد لكل قطعة من جسد عامر أن تحمل علامة جهاد وأثراً من مقاومة.

رأى عليٌّ سيرة أخيه فلحق، وعرف طريق العزة وعشق.

وكانت شخصيته تميل إلى الهدوء، شديد الحياء عظيم التواضع، متعلقٌ بالله روحاني الطابع، ينتمي إلى رجال مدرسة قيام اللّيل، لا يحبّ الأضواء، دائماً يعمل في الخفاء، لديه حسّ أمنيٌّ قويّ، وهو في

المقابل رجلٌ عسكريٌّ في نفسه وجسده. مارس ألعاب الدفاع عن النفس وكأنه كان يستعد لمرحلة لقاء العدو.

بقي عليٌّ وحيد أمه بعد استشهاد أخيه عامر. لكنّه لم يدع لنفسه مجالاً لتحول بينه وبين ما يبتغي ويتمنى، فانضمّ إلى كتائب القسام يعمل ويتحرك، حتى اشتدّ طلب المحتل له وسلّط عليه العيون لتراقبه وتبحث عنه، ثم انتقل إلى نابلس منضماً إلى قافلة المطاردين فيها. وهناك تمرّس في الجهاد أكثر، وتعلّم وأتقن، وبقي على العهد حتى أذن الله له بالانضمام إلى شقيقه، حيث تمكّنت قوة كبيرة من جنود الاحتلال من محاصرته في مكان اختفائه. وكان برفقة الشهيدين مهند الطاهر وعلي علاّن.

ولما ضاق الخناق عليهم ولم يبق مجال للانسحاب الجماعي، أعلن عليٌّ عن أصالته وشهامته معبراً عن حبّه لإخوانه، مقدّماً روحه فداءً لهم ضارباً بذلك أروع آيات الإيثار مستلهماً كلام الإمام البنا بأن "الأخوّة مراتبٌ أعلاها الإيثار".

تطوّع علي بالبقاء والمواجهة وإعطاء المجال لإخوانه بأن ينسحبوا من الجهة الخلفية للمبنى، فاشتبك وحده مع المحتلين في مشهد بطولي نادر، وأتيح له في موقفه ذلك أن يتصل بأمه ليبلغها أنه عن موعد مع الشهادة وأنّه ليس بينه وبين الجنة إلا أن يقاتل هؤلاء القتلة. فودّعها طالباً منها الدعاء له بالقبول، وكأنه أخذ تحياتها إلى شقيقه، واستمرّت المواجهة، وتمكّن من قتل ضابط وإصابة آخرين ثم استُشهد، وتمكّن أخواه من الانسحاب بسلام وأمان.

وبعد ذلك عجب الناس من صبر الأهل ورضاهم واستقبالهم لقدر الله بسكينة وطمأنينة.

كان لأبناء الحضيري أن يكملوا دراستهم ثم يتزوجوا فيكون لهم أولاد وأحفاد ولا يسمع بهم أحد، لكنّ بركة الجهاد والمقاومة وكرامة الشهداء جعلتهما من السبّاقين؛ ليدخل اسم هذه العائلة في أروع صفحات العزة والكرامة، في قصص وحكايات يتناقلها المجاهدون جيلاً بعد جيل.

⊠ الشهيد المجاهد محمد الحنبلي:

ينتصب هذا الشهيد قدوةً في مجال المقاومة، في حالة تدحض ادّعاءات المحتلّ في تبريره لدوافع المجاهدين، حيث يحاول الإيحاء بأنهم ينطلقون من ضائقة اجتماعية واقتصادية، كما تأتي قصتّه لتثبت بطلان حجج بعض المعذّرين المتثاقلين عن الجهاد؛ أولئك الذين يخدعون أنفسهم بالابتعاد عن ذات الشوكة مكتفين بأدوار صغيرة هامشية في هذه الحياة.

جاء محمد من عائلة نابلسية غنية وميسورة الحال، معروفة بتدينها، تحظى بمكانه اجتماعية مميزة، أبناؤها من أصحاب الشهادات العلمية الناجحين في حياتهم ومعيشتهم، وكان هو قد التحق بدراسة الماجستير بكلية الهندسة في جامعة النجاح معتمداً على تفوّقه في هذا المجال، وكان يمكنه أن يشق طريقه في هذه الحياة كما يتمنى كل شاب مقتدر، أبواب المستقبل مشرعة أمامه.

لكنّ محمد كان له رأي آخر، إذ لعبت العائلة دوراً في بناء شخصيته، ثم استنفرت الحركة الإسلامية طاقاته وإبداعاته، فبدأ نضجه يظهر عند دخوله الجامعة، وتعددت جوانب الخير فيه في تركيبة نادرة تجمع بين صفات تبدو متناقضة للوهلة الأولى، فهو شاب روحاني كثير العبادة لكنه دائم النشاط والعمل، وهو شديد الهدوء لكنه يتحرك ليل نهار مدافعاً عن دينه ودعوته بكل قوة.

كان رئيس المؤتمر العام في الجامعة وعضو مجلس طلبتها وأحد القيادات البارزة للكتلة الإسلامية فيها، وقائد ميداني يحسن تشغيل الآخرين والاستفادة من قدراتهم، لكنه شديد التواضع يعمل بيده ويشارك إخوانه في كل النشاطات والفعاليات داخل الجامعة وخارجها، لا يتعالى على أي شيء ولا يرى بأساً في أن يتواجد في كل أمر مهما كان صغيراً أو جانبياً، علاقاته الاجتماعية واسعة ومتشعبة تتجاوز عمره وهو يسخرها كلها في خدمة فكرته وتحقيق أهداف دعوته.

أحبه حتى مخالفوه، فقد كان لديه طرق غريبة لدخول قلوب الناس، ساعده في ذلك ابتسامة لطيفة بريئة تلازمه، ولسان اعتاد على ذكر الله، فلا يخرج منه إلا الكلام الطيب، كانت له علاقة مميزة مع بقية الفصائل، بدأ ذلك في الجامعة واستمرّ به في ميدان المقاومة لاحقاً حتى أصبح محطّ ثقتهم.

امتاز بإرادة قويّة وقناعات راسخة، يدافع عنها ويتبناها حتى النهاية. يهتم بالتفاصيل ويتابع المهمة الموكلة إليه بإلحاح حتى يُتمها، يلاحق العاملين معه حتى يتأكد من قيامهم بواجباتهم. وإذا غاب أحدهم أو قصّر تجده يملأ الفراغ ويكمّل النقص فيظهر النشاط عند ذلك مكتملاً وشاملاً.

له حضور في كل نشاط للحركة، حتى يبحث عنه إخوانه أحياناً فلا يجدوه لكثرة انشغاله، لكنه دائم التأهب عند حدوث أي طارئ. ولما كان هو رجل الاتصال المركزي المعتمد عليه بين الحركة من جهة وبين قطاعها الطلابي في الجامعة من جهة أخرى، فإن قيادة الحركة كانت توكل إليه مهمة الإعداد والتخطيط لكثير من الفعاليات المفاجئة التي كانت تحدث خلال انتفاضة الأقصى والتي تحتاج إلى سرعة التحرك وحسن التدبير. وكان هو رجل الموقف الذي لا يخذل إخوانه أبداً.

وبرزت عقليته الهندسية وقدراته الإبداعية في تمكّنه من خلق أفكار واقتراحات فنية واستعراضية مبتكرة تعتمد على وسائل يدوية بسيطة لكنها تجذب انتباه الناس عند كل نشاط عام وتتسابق إليها وسائل الإعلام حيث ترى أن تلك المشاهد تعبّر عن الهدف المنشود بطريقة واضحة ومختصرة.

ولمّا رأت قيادة حماس في نابلس هذه المزايا والقدرات بدأت تخطط لمحمد لعله يكون أحد شخصياتها العامة في المستقبل. لكن مع بداية انتفاضة الأقصى كان هو قد اختار لنفسه طريق المقاومة المباشرة للاحتلال. إذ كان على علاقة وطيدة مع عدد من قادة الكتائب الذين تطاردهم قوات العدو. وصار يساعدهم في الإيواء والتنقل ويوفر لهم الخدمات واللوازم الضرورية للقيام بالمهمات الجهادية، كما كان له دور في الاتصال مع كثير من الإخوة بحكم علاقاته ومن ثم تجنيدهم للعمل.

وبعد أن اشتدت ضربات المقاومة في كل مكان فأرهقت قادة الاحتلال عمدوا إلى إرسال دباباتهم وجنودهم لإعادة السيطرة على المدن الفلسطينية في العملية الكبيرة التي أطلقوا عليها اسم "السور الواقي". وكانت نابلس إحدى المدن التي شهدت قتالاً عنيفاً تركز في البلدة القديمة، حيث تجمّع المقاتلون من كافة الفصائل ليصدّوا العدوان في معركة غير متكافئة. وفي تلك الأزقّة والشوارع الضيقة ظهر محمد كواحد من أبرز نشطاء حماس الذين أدوا دورهم في تلك المرحلة الحرجة. وكان يتحرك في كل مكان يوزع العبوات ويضع الحواجز ويتنقل بين إخوانه يعينهم ويشجعهم ويعمل معهم.

ومنذ تلك الأيام صار محمد من ضمن رجال المقاومة الذين تلاحقهم قوات الاحتلال وتطاردهم باستمرار. وما هي إلا شهور قليلة شهدت استشهاد عدد من القادة الميدانين حتى تحول هو ليكون على رأس مقاتلي الكتائب.

وبدأ يحاول ترتيب الصفوف وتنظيم العمل في فترة معقدة وصعبة، استطاع خلالها الإفلات أكثر من مرة من كمائن أجهزة أمن الاحتلال.

وبقي كذلك حتى حانت ساعة الشهادة، حين تمكن جيشهم من محاصرته في إحدى البنايات متعددة الطوابق، وأرسل المحتلون جنودهم يبحثون عنه في كل زاوية بعد أن تأكدوا أنه لن يسلمهم نفسه طواعية، لكن ذكاءه وجرأته فاجأتهم وأفسدت خططهم فقد كمن لهم في منطقة مستورة عند المصعد وحين أصبحوا في مرمى نيرانه باغتهم؛ فقتل أحد ضباطهم وأصاب آخرين قبل أن يتمكنوا منه، ثم عمدوا إلى هدم البناية بأكملها انتقاما لشعورهم بالهزيمة أمام إصرار محمد وبطولته وثباته.

وهنا بكاه إخوانه الذين عرفوه فأحبوه، فهو الذي جعل همّ الدعوة قبل همومه، وهو الذي لم يجد وقتاً لحياته الشخصية، فلم يفكر في الزواج ولم يسع إليه رغم اقتداره عليه، وهو الذي كان يكرم إخوانه فلا يبخل عليهم بوقته أو ماله أو جهده، وهو من كان يمازحهم ويدخل السرور إلى قلوبهم.

رحل محمد تاركاً ذكراه الطيبة تعبق في كل مكان، تشهد له مساجد المدينة وشوارعها وممرات الجامعة وساحاتها، ورصاصات عزة وكرامة هي آخر عهده في هذه الدنيا.

☒ الشهيد المجاهد حامد عمر الصدر:

إذا كان الشهداء قد تميزوا عن بقية الأمة، فإن لكل شهيد نمطه الخاص وتميزه الفريد الذي يجعله مختلفاً عن بقية إخوانه الشهداء، ولعلّ هذه إحدى بركات الشهادة التي يهبها الله لمن يحب من عباده، فشهيدنا حامد يمثل شخصية ابن المخيم، حيث عاش مأساة اللجوء وترعرع مع قهر المحتل الذي أخذ منا كل شيء، كان حامد من عائلة تجاوز عدد أفرادها العشرين شخصاً، فتوجه إلى المدرسة الصناعية ليكتفي بشهادة الثانوية العامة، ودخل سوق العمل مباشرة ليساعد في تحمل المسؤولية مبكراً تجاه أهله وهذا ما عرف عنه دوماً، وكان يمكن لهذا الحال أن يبعد حامد عن العمل الدعوي والسياسي العام وما يلحقه من تبعات وآثار، لكنها الهمة العالية والبحث عن المعالي هي الصفة التي لازمته، فكانت مشاركته في عمل حماس ثم المقاومة المسلحة رداً على كل من يتذرع بوضعه العائلي وسعيه وراء رزقه ليتقاعس ويتراجع ويقف على الحياد.

وهو في مهنته في مجال تمديدات المياه متقن لها صادق في وعوده صاحب صنعة مميز، لا يغش ولا يخدع ولا يستغلّ.

والشهيد حامد ترى فيه طيبة العامة وذكاء الخاصة وعطاء القادة، فقد كان شخصية اجتماعية محبوبة منفتحاً على الجميع، الدين عنده المعاملة، يتقن بإبداع فن التعامل مع الأجيال الصغيرة يداعبهم ويربيهم ويتفنن في دمجهم في نشاطات الحركة العامة.

امتاز حامد بمرحة وخفة ظله، صاحب نكته حتى في أحلك الظروف وأصعب الأوضاع، ففي الليلة التي سبقت الإبعاد إلى مرج الزهور وفي إحدى خيام الاعتقال في سجن نابلس تجمع ما يقارب الأربعين أخاً من قيادات الحركة وكوادرها في أجواء من الجوع والبرد الشديد والقلق والترقب انتظاراً للمجهول تحت حراب الجنود، وهنا بادر الشيخ حامد البيتاوي وطلب من الإخوة جميعا أن يلقي كل واحد منهم كلمة أو موعظة أمام إخوانه يشد من أزرهم، وهكذا كان إلى أن جاء الدور على الشهيد حامد الذي فاجأ الجميع بالطلب أن يلقي نكتة، فما أن أتمها حتى كانت الضحكات تتعالى من الجميع وتملأ الجو سعادة وسروراً مبدّدةً لجوّ الكآبة، فوقع السخط والعجب في نفوس الجنود المحتلين.

ثم كانت المقاومة المباشرة للمحتل، وكانت انتفاضة الأقصى - التي لم تكن رافعة للحركة فحسب بل أضفت بريقها على كل أخ شارك فيها-، فاستنفرت طاقاته الكامنة واستخرجت إمكاناته المكنوزة.

وهنا انخرط الشهيد حامد في فعاليات الانتفاضة منذ اليوم الأول، وسرعان ما أصبح أحد القادة الميدانيين في المنطقة، له دورٌ أساسي في المظاهرات والمهرجانات والاحتفالات ومواكب تشييع الشهداء، لا تكاد تجد نشاطاً كبيراً لحركة حماس في منطقة نابلس إلا ولشهيدنا حامد بصمة واضحة فيه، لكنّه ممن يعمل بصمت وخلف الكواليس وبعيداً عن الضوء، حين يوكل إليه أمر ما تجده يهتم بكل التفاصيل ويتابع الجزئيات ويلتزم بالمواعيد بدقة عالية، يقود إخوانه الذين يعملون معه، له قدرة مميزة على استغلال كل الأفراد وحث الأنصار والمقربين وإشراكهم في العمل، من عادته أن يجمع كل العناصر الذين تحت إمرته قبل البدء بالعمل يحثهم ويوزعهم على المحاور ثم يذكرهم بتصحيح النية لله تعالى، فينجذبون إليه كأنما هو الخطيب المفوه المتمرس، وحين يبدأ العمل الميداني فهو دوماً في المقدمة لا يتأخر ولا يتردد أبداً.

امتاز شهيدنا حامد بجاهزيته للعمل في كل الظروف، فهو تحت الطلب في أي ساعة من ليل أو

نهار، وهذا أمر كان مطلوباً جداً في الانتفاضة، حيث الأحداث طارئة وآنية تتطلب استعداداً دائماً، ولعلّ هذا ما جعل الشهيد القائد صلاح دروزة - وهو مسئول النشاطات الجماهيرية في حماس- يحبّ حامد ويعتمد عليه في المواقف الصعبة، وكان يلقي عليه المهمة ويتركه وهو على يقين أنه سيؤديها كما يجب وفي الوقت المناسب.

وفي مرحلة لاحقة حين بدأت قوات الاحتلال تجتاح أطراف المدينة بشكل جزئي، بادر حامد بإنشاء مجموعات استطلاع ومراقبة تُتابع تحركات الجيش على الأطراف الشرقية للمدينة والتي كانت مستهدفة أكثر من غيرها، وكالمعتاد فحامد يرابط بالليل وحتى ساعات الفجر الأولى ويضع قادة الحركة في صورة التطورات أولاً بأول.

ومن الطريف أن ترى حامد يتوجه في منتصف الليل إلى رجال الأمن الفلسطيني على الحواجز المقامة على أطراف المدينة ليحذرهم من اقتراب العدو إلى مناطق تواجدهم، فيشكروا له ذلك حيث كانوا من أهداف عدوان المحتل.

كان يمكن للشهيد حامد أن يكتفي بهذا الدور الذي هو محل إعجاب إخوانه وتقديرهم، لكنّ الهمم العالية تأبى إلا الارتقاء والنفوس الأبية لا ترضى بما دون القمة، فبدأ حامد عمله الجهادي بالتعرف على كبار المطلوبين من قادة القسام في المنطقة، وصار يقدّم لهم المأوى الآمن في منطقة المخيم ويرعى شؤونهم واحتياجاتهم، وبناء على تقارير الحراسات فهو جاهز دوماً لنقلهم من مكان إلى آخر، يحرص عليهم كما يحرص على أهله، وكان هؤلاء المجاهدون يشعرون بالراحة والطمأنينة إذا كانوا عنده وفي رعايته.

ثم صار حامد واحداً منهم، فحمل سلاحه واضعاً روحه على كفّه، ابتعد عن البيت والأهل والأولاد وانطلق، وانخرط في العمل الجهادي يعطيه كل وقته وجهده، ينظّم المزيد من المجاهدين في صفوف القسام، وكان له دور بارز في إحدى العمليات الإستشهادية في إحدى المستوطنات، واختار منفذها من بين أهله، فكان محمد ابن أخته، وكانت هذه إشارة إضافية تضاف إلى سجل حامد في الفضل والعطاء والتضحية، وكان حامد قد جنّد أيضاً أحد أشقّائه للعمل معه، وكذلك ابن عمه فايز أحد الشهداء في المنطقة.

لقد دفع حامد ثمن جهاده أكثر من مرة خلال اعتقاله لدى السلطة أو الاحتلال على حد سواء، وكان أثناء اعتقاله دائم الخدمة لإخوانه مفعماً بالأمل، أحبّه كل من عرفه، وحين كثرت تحركاته واشتد

طلب الاحتلال له نصحه بعض أهله أن يأخذ حذره خشية الاغتيال، فردّ عليه بابتسامته المعهودة: "وهل نهرب من الأمنية التي نبحث عنها".

فكان له ما أراد، حيث استهدفه الاحتلال بتفجير سيارته وسط مدينة نابلس، ليلحق حامد بمن أحب وليرقد جسده على أرض مخيم عسكر، ويهتف الرجال والنساء باسمه.

وتفتقده المواقع والشوارع ومواضع سجوده في الجوامع، وينتصب حامد قدوة ومثلاً لكلّ الأجيال القادمة في المنطقة.

وسيذكر الناس حامد بهمّته وضحكته وكثرة صلاته على النبي صلى اللّه عليه وسلم.

☒ الشهيد المجاهد أمين فاضل:

ولد في مخيم العين قرب نابلس الذي أطلقوا عليه يوماً مخيم رقم (١)، وحين فكّر أهله بالخروج منه أثناء طفولته الأولى تحولوا إلى السكن في مخيم عسكر الجديد، وكأن الاحتلال ومن ورائه قوى الشر العالمية أرادوا التعامل مع اللاجئين ومخيماتهم على أساس أنهم مجرد أرقام فقط، ويبدو أن حياة اللجوء والشقاء قد كتبت على أصحابها حتى يعلموا أنه لا سبيل للراحة إلا بالعودة إلى مناطقهم التي هُجّروا منها.

بدأ أمين منذ صغره يشارك في المواجهات الجماهيرية ضد الاحتلال، فهو لا يرى الصهاينة إلا جنوداً ولا يرى الجنود إلا أعداء محتلين، ولا يرى سبيلاً للتعامل معهم إلا بمقاومتهم ولو بالحجارة، وهي معادلة سهلة عرفها الصغار وعجز عن فهمها بعض الكبار الذين نصّبوا أنفسهم قادة للشعب في يوم ما.

ومن الطريف القول بأن مشاركة أمين في المواجهات كانت تزعج بعض أقرانه، لأنه اعتاد أن يتقدّمهم باتجاه دوريات المحتل حتى تسقط بعض حجارتهم قربه لشدة إقباله على المواجهة، حتى أصابته رصاصة في يمينه لتكون أول أثر على جسده في سبيل اللّه.

وبعد بداية تعرّفه على الحياة انضمّ أمين إلى حماس التي رأى فيها أملاً لتحقيق حلم العودة، أحبّها كثيراً وتعلق بالبرامج التربوية الإخوانية التي اعتمدتها، وأيقن أن التربية والدعوة والمقاومة هي أركان متكاملة لبناء المقاتلين الذين يعوّل عليهم الشعب في إحداث التغيير المنشود.

لم يكمل دراسته الثانوية، وتحول مبكراً إلى العمل اليدوي الشاقّ -كونه المعيل الأساسي لعائلته-، لكن ذلك لم يمنع إخوانه من تكليفه بمتابعة جيل الأشبال الذين يرتادون المسجد، فترك بصمات خيّرة عليهم وحدثهم على قدر تفكيرهم، وأراد لهم أن يكبروا على معاني العزة والالتزام، فكان من ضمن ما يعلمهم حفظ أركان البيعة التي ذكرها الإمام البنا، مع ما فيها من المواصفات اللازمة لكل مجاهد، وحتى لا ينسوا تلك المعاني كان يدوّنها على الأصابع العشرة لكل واحد منهم.

ورغم طبيعته التي تميل إلى الجدّية عموماً؛ فقد كان صاحب نكتة ودعابة أعانته على إقامة علاقات اجتماعية واسعة سهّلت أمامه الطريق لدعوة الناس والأصحاب إلى فكرته وحركته، اعتاد

على زيارة إخوانه وتفقد بيوتهم والاستفسار عن أحوالهم، ثم هو يبادر إلى تقديم المساعدة لمن يحتاجها منهم قبل أن يطلبوا منه ذلك.

أما قصته مع الجهاد والمقاومة فهي ثابتة ومتواصلة، حيث كان أمين يرى في الشيخ عبد الله عزام قدوة له؛ فحرص على قراءة كتاباته وآرائه، وتأثر به كثيراً حتى احتفظ لنفسه بكنية "أبو عزام" تيمّناً بالشيخ، ثم أضاف إلى المخزون الفكري الجهادي عاطفة وهّاجة ألهبتها أشعار المقاومة وحداء المعركة، فحفظ الأناشيد والأغنيات التي تحضّ على الشهادة، وصار يكثر من ترديدها والترنّم بها، فتهيأ عقله وقلبه بانتظار الدخول إلى أرض المعركة، حتى جاءته الفرصة التي سعى إليها صادقاً من خلال انتمائه إلى كتائب العز وذلك مع انطلاقة العمل في انتفاضة الأقصى.

بدأ نشاطه بخطوات محدودة تطورت بشكل سريع حتى وصلت أوجها بانضمامه إلى مجموعات المطاردين خاصة بعد الاجتياح الكامل الذي شنته قوات الاحتلال عام ٢٠٠٢م وشمل كل المناطق التي كانت تخضع لسيطرة السلطة الفلسطينية حتى ذلك الوقت، وبرز دوره الخاص في التصدي المباشر لجنود المحتل الذين يقتحمون مدينة نابلس بشكل شبه يومي، وكان له مشاهد معروفة في هذا الميدان، وبعد استشهاد عدد من قادة المجاهدين ظهر أمين كقائد ميداني يضمّ عناصر جديدة إلى العمل ويحاول توسيع النشاط في المناطق المجاورة في ظل ظروف غاية في الصعوبة، حتى إنه احتفظ بعلاقات مميزة مع مطاردي الفصائل الأخرى وكانوا يتشاركون في العديد من الأعمال الميدانية في مواجهة الاحتلال.

وفي هذه المرحلة بذل العدو جهوداً مضاعفة للنيل من أمين، فاشتدّت ملاحقتهم له وكرّروا

اقتحام منزله، واعتقلوا ذات مرة أمه وزوجته وأخوته للضغط عليه وإجباره على الاستسلام؛ لكن ذلك لم يؤثّر عليه، فقد كانت عيونه ترنو نحو الشهادة باستمرار، وظلّ يسارع الأيام ويسابق التطورات سعياً نحو مطلبه الذي بحث عنه فترة طويلة، وكأنه يخشى أن تفوته فرصة الشهادة، حيث إنه كان يردّد دائماً أمام إخوانه بأن المجاهد منّا إذا بلغ سن الثلاثين دون أن تناله الشهادة فعليه مراجعة نفسه والتأكد من مدى التزامه وصدق دعواه.

وكانت السنوات تمر والأيام تتوالى، حتّى دوّى صوت انفجار داخل منزل في المدينة قريب من مخيمه الأول، وكان موعد اللقاء قد حان، فاستشهد أمين ولحق بمن سبقه وذلك قبل أيام قلائل من بلوغه سن الثلاثين؛ ليحقّق اللّه له أمنيته، فإذا بالآلاف يشيّعون أمين في موكب مهيب، يشهدون له بالخير، ويبقى هو الشاهد على أن من يعقد الصفقة مع ربّه صادقاً فهو الرابح دوماً لأن اللّه لا يخلف وعده.

☒ الشهيد المجاهد نشأت جبارة:

في قرية كفر اللبد القريبة من طولكرم ولد هذا الشهيد وفيها نشأ وترعرع، وهنا عاش سنوات عمره الأولى كبقية أطفال فلسطين لا يعرفون المحتل إلا مجرماً ومغتصباً، ولا يرون سبيلاً للتعامل معه إلا في ساحات المقاومة، رضعوا حب الأوطان مع حليب أمهاتهم، لم تغيّر ألاعيب السياسة نقاء فطرتهم، ولم يخرّب دعاة التسوية براءة انتمائهم، كان نشأت تقياً ذكياً يتصف بطيبة أهل الريف، ولمّا أتمّ دراسته الأساسية التحق بجامعة النجاح الوطنية ودرس في كلية الشريعة فيها لعله يعود إلى بلده داعياً ومعلماً.

وكان قد اضطرّ للعيش في مساكن الطلبة في نابلس مما ساعده على المشاركة في نشاطات الكتلة الإسلامية بهمة وعطاء، وفي هذه المرحلة باتت تتكون شخصيته وتتحدد ملامح حياته.

ورغم اهتمامه بدراسته -حتى كاد أن يتمّها- وحرصه على المطالعة ومصاحبته الكتب - يأخذ فيها ما يجعله على بصيرة من أمره- إلا أن ذلك كله لم يصرف قلبه عن الانخراط في المقاومة المباشرة للاحتلال والذي كان يرى فيه سبباً لكل مآسي هذا الشعب.

إلى إحدى المجموعات انتسب وكُلّف بقيادتها والإشراف عليها، وكان قدر الله لهذه المجموعة أن تعمل في المرحلة التي سبقت انتفاضة الأقصى- بكل ما تحتويه تلك الفترة من مصاعب وتضييق من قبل المحتل ومن صالَحه حينها- إضافة إلى قلة الإمكانيات والافتقار إلى من يؤيّد المقاومة ويساندها في سنوات التسوية التي حاولت أن تهدم الحواجز النفسية بين الناس وبين الاحتلال.

وهنا كان القرار صعباً، والتطبيق أشد صعوبة، لكنها إشارة أولية جاءت بتدبير من الله رفعت إليهم وأيقظت الأمل في نفوس أولئك النفر، فقد كانت المجموعة مكوّنة من أربعة طلاب من مناطق مختلفة لا يعرف أحدهم الآخر، وحين اجتمعوا معاً فوجئوا بأن كلّ واحدٍ منهم يكنّى "أبا مجاهد"، فقرؤوا في ذلك توفيقاً وتوجيهاً لهم بصدد توجههم في العمل الجهادي، وكانت لقاءاتهم تتم في المناطق الجبلية البعيدة عن العيون.

وتمكنت المجموعة من القيام بعمليتين في منطقة نتانيا خلال فترة قصيرة، إذ كان الشهيد يتحرك للعمل رغم حسّه الأمني، فتشوّقه واندفاعه وهمّته العالية كانت تجعله يخاطر بنفسه خاصة أنه يتمتّع بجرأة وقوّة وبأس، فهو لا يحسب حساباً لشيء، ولا يعنيه الثمن الذي سيدفعه في هذا الطريق.

كان شديد الالتزام ودقيقاً في مواعيده، اللقاء قبل الخروج إلى المهمة يتم بعد منتصف الليل، ولكن نشأت دائما يصل في الوقت المناسب.

كان يعرف المناطق المحتلة عام ١٩٤٨م بدقة، ويتقن العبرية والإنجليزية، وهذا ما ساعده على التحرك، إذ وضع إحدى العبوات فوق دراجة هوائية نقلها من نابلس ثم وضعها على مفترق طرق رئيسي، مما أدى إلى عشرات الإصابات بينما كان يتمكن هو من العودة إلى منطقته بسهولة ويسر.

وكان نشأت ممن اختاروا أن يجاهدوا في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم، فتراه أحياناً يقدّم قسط الجامعة لشراء ما يلزم في الوقت الذي كانت المقاومة لا تمتلك الكثير.

ثم كان من قدر الله أن يكشف أمر هذه المجموعة، فيضطر إلى الاختفاء، حتى تمكنت السلطة من اعتقاله بعد ملاحقة طويلة، وينقل بعدها إلى مركز تحقيق بيتونيا سيئ الصيت - وهو مبنى شديد التحصين أقيم بمقاييس أمريكية- وتعرّض هناك إلى تحقيق وتعذيب شديدين، ومع ذلك فقد بلغت به الجرأة من التخطيط لمحاولة الفرار من هناك، على الرغم من صعوبة المهمة، وبقي في سجونهم حتى خرج في انتفاضة الأقصى.

وعاد إلى سيرته الأولى، مطاردةً ومقاومة، وراح يتنقل في عمله الجهادي بين نابلس وطولكرم، ويتحرك حسب الحاجة، لا يكاد يسمع صيحة للحق إلا لبّى، ولا دعوة لقتال إلا استجاب ووفى، واعتاد العيش في الجبال والسير لمسافات طويلة، فهو صاحب جلَد وتحمّل، ولمّا اختاره اللّه تعالى للقائه كان نشأت يبيت في غار قرب قريته يؤنسه كتاب اللّه تعالى الذي كان له خير رفيق.

وعرف الصهاينة مكانه بعد طول بحث ومتابعة ومراقبة، فأرسلوا إليه مجموعة من الوحدات الخاصة- التي هي من أكثر جنودهم خبرة ودراية حسب تصنيفاتهم- لكن نشأت كان له تصنيف آخر، إذ هو يرى نفسه أقوى من مجموعهم بفضل إيمانه وحقّه الذي يحمله في صدره.

ولمّا حاصره المعتدون اشتبك معهم بمفرده، وتمكّن من قتل قائد الوحدة قبل أن ينتقل إلى جوار اللّه تعالى؛ ليختم بذلك بضعاً وعشرين عاماً من الخير والعطاء والتضحية والفداء، ويضيف اسمه إلى قائمة السبّاقين الذين أصبحوا قدوات في هذا الزمان ولم يتركوا لأحد عذراً في التردّد.

وأكمل المحتل إجرامه بهدم بيت الشهيد انتقاماً وثأراً لما أوقع بهم، وليصبح المشهد شاهداً، ويمضي نشأت إلى خالقه وعليه آثار المقاومة والمطاردة والسجن، وبيتٌ هدم في الدنيا يرجو له بديلاً في الجنة، ثم انتسابه إلى من قال اللّه فيهم:" فيقتلون ويقتلون".

☒ الشهيد المجاهد خميس أبو سالم:

من سنوات عمره الأولى اعتاد الذهاب إلى مسجد المخيم القريب من منزله، وكان يحبّ المكوث فيه حتى في غير أوقات الصلاة، لا تكاد تفوته صلاة الجماعة، تعلّق بالقرآن حتى صار لاحقاً يعلّم أشبال المسجد أحكام التجويد، رغم أنه اكتفى بالدراسة الثانوية فقط، وليكون أحد تلاميذه الإستشهادي أحمد عبد الجواد، ومن كان يظن حينها أن ذلك الشبل الصغير ومدرّسه الذي يعلّمه القران في زاوية المسجد سيكونان بعد سنوات في صدر الأحداث، وأنّهما سيضعان بصمات ملوّنة بالدم على صفحات الصراع مع المحتل.

عاش شهيدنا في كنف حماس، يشارك في نشاطاتها كلّها، يعمل بصمت وخفاء، ولمّا جاءت انتفاضة الأقصى وازداد عدد المطلوبين والمطاردين من رجال القسام وتنامت الحاجة للإيواء والمساعدة، تطوّع خميس لهذه المهمة، في وقت حرج كان الكثيرون يتقاعسون فيه عن هذه الأمانة، لكنّها تربية

المساجد وخلق القرآن تؤتي أكلها كل حين بإذن ربّها.

كان خميس قد دخل ميدان الحياة يسعى لكسب رزقه ويجمع القليل من المال حتى تمكّن من تجهيز شقة متواضعة أعدّها للزواج وجهّزها بكل ما يلزم، ثم اتّخذها مأوىً مريحاً لإخوانه المجاهدين، فلم يبخل عليهم بشيء يملكه، وراح يقدّم لهم الخدمات ويساعدهم في تنقّلاتهم ويسهر على راحتهم حين ينامون ويراقب تحركات جيش الاحتلال خشية أن يفاجئهم.

كانت لديه غيرة على دين الله، وحرص على الحركة الإسلامية، يحثّ إخوانه على الجهاد ويحضّهم على المقاومة، ويستغرب من تراجع وتردّد البعض منهم.

ولمّا قام الاحتلال باعتقال بعض المجاهدين ممن له علاقة بهم، ترك خميس منزله وانضمّ إلى كتائب المطاردين الذين أرهقوا الاحتلال وأقضّوا مضجعه، وخلال فترة قصيرة من مطاردته شارك في عمليات إطلاق النار وتصنيع العبوات، ولما أعلنت حماس عن مرحلة هدنة وتهدئة ضمن منهج التعامل مع الوقائع التزم خميس وإخوانه بالقرار واستغل هذه الفترة في تجنيد عناصر جديدة وفي إتقان وسائل أخرى للمقاومة، كان أهمّها عمله على نقل آلية تصنيع صواريخ القسام إلى الضفة الغربية - حسبما اتّهمته سلطات الاحتلال- فقامت بتشديد ملاحقته ومحاولة تصفيته إلى أن تمكنت من محاصرته داخل بناية متعددة الطبقات قرب مخيم عسكر، وكان برفقته صديقه فايز الصدر، وعبثاً حاول القتلة دعوتهما لتسليم نفسيهما، بينما هو ينظر عليهم باستخفاف ويرفض أن تمسه يد جندي محتل وهو على قيد الاحتلال، ولمّا كان فايز مصاباً بالمرض ولا يقوى على الحركة نزل خميس بسلاحه يفتدي أخاه، وواجه المحتلين المتمترسين خلف أسلحتهم وجبنهم، وفي تبادل كثيف لإطلاق النار ارتقى خميس إلى ربه بعد أن تمكّن من قتل أحد جنود الإحتلال وإصابة ثلاثة آخرين، ولمّا أذهلتهم هذه البطولة عمدوا إلى هدم البناية كلّها، فاستُشهد فايز أيضاً.

ثم احتجزوا جثّة خميس لعدة أيام قبل أن يتسلّمه أهله، ليشيّع في جنازة ضخمة هتفت باسمه، وعلت الحناجر تطالب بالرد والانتقام، وجاء ذلك بعد أيام قلائل فقط من تنفيذ الإستشهادي إسلام قطيشات - وهو من سكان نفس المنطقة- عمليةً في مستوطنة أرئيل في رسالة واضحة أن إعطاء الهدنة لا يعني السكوت على جرائم العدو.

لقد فوجئ الناس بعمل خميس الجهادي وقدراته المميزة وإصراره الذي تعلمه في صغره من حماس، فقد عرفه الناس بهدوئه، بسيطٌ في ملبسه، ابتسامةٌ دائمةٌ لا تفارقه، رفع لواء المقاومة فرفعت منزلته بين الناس، وحفظ حقّ دعوته وحركته فارتقى به الله إليه، عزف عن زخارف الدنيا وزينتها سعياً نحو المجد والنعيم في الآخرة.

☒ الشهيد المجاهد سامي زيدان:

خرج هذا الشهيد من عائلة محافظة معروفة بتوجهاتها الوطنية، وعلى الرغم من أنّ والده يعمل مديراً في مدرسة القرية إلا أن سامي لم يكمل دراسته ولم يلتحق بالجامعة، فقد دفعه حبّه لحياة الريف نحو الاهتمام بالأرض زراعة وفلاحة، وكان له عشق وتعلّق بالجبال التي يقضي فيها كثيراً من أوقاته، وحياة كهذه تزرع في النفس ارتباطاً بالحرية بكل معانيها.

حظي هذا الشاب بحبّ كل من عرفه، إذ كان يجذبهم بأدبه وحسن خلقه وقلبه الممتلئ طيبة ونقاءً، كان ملتزماً بدينه دون انتماء دعوي أو حركي، يرتاد المسجد ويجلس إلى حلقات القرآن المقامة فيه.

يملك من الجرأة والشجاعة والإقدام ما يجلعه مؤهلاً ليكون في صفوف المقاومة، وما أن عرض عليه بعض المجاهدين الانضمام إليهم لما عرفوا ما فيه من سيماء الخير حتى لبّى واستجاب كأنه كان ينتظر الفرصة ليقتص من عدوّه جزاء ما ارتكب من جرائم بحق شعبه.

وصار سامي واحداً من جند القسام، يصول ويجول، وازداد دينه قوةً ومتانةً، وأصبح المسجد ملاذه الذي يأوي إليه، لا تفوته صلاة الجماعة فيه، حديثه يدور حول الجنة والشهادة، جلّ كلامه وحواره متعلق بأهمية المقاومة وضرورة بذل الجهد لطرد المحتل، وكل ذلك يأتي ببساطة دون تكلف أو تنميق للكلمات.

فالمعادلة عنده واضحة وسهلة: محتلٌّ نعاملهُ بالمقاومة وجنّة نصلها عبر الشهادة، ثم رافق بعض إخوانه في حياة المطاردة والملاحقة في ظروف وأوضاع لا يقدر عليها إلا الأقوياء والأشداء المؤمنون بعدالة قضيتهم والساخرون من بطش عدوهم.

التجأ إلى الجبال والبراري مختاراً الحياة الأصعب، وكأنه لا يريد أن يحمّل أحداً عبء حياته، وإذا اضطرّ للمبيت في بيت ما، كان يدرس مداخله ومخارجه ويجري تقييماً أمنياً له، تحسباً لأي طارئ، لا ينام إلا وسلاحه بيده، حذرٌ في تحركاته واتّصالاته، يحافظ على شكل وهيئة لا تثير الشك ولا تلفت العيون إليه، لا يتّصل بأهله إلا قليلاً رغم حبه لهم وتعلّقه بهم.

وفي هذه المرحلة ازداد تعلّقه بالقرآن الكريم، واجتهد في إتمام حفظه، يقيم الليل رغم كل المخاطر.

لقد كان سامي جندياً يتقن فنّ الطاعة لقادته، كأنّه عاش سنوات طويلة في محاضن الدعوة التربوية يتعلم ويتلقى ويتدرب، لكنها بركة الجهاد، تلك التي ترفع صاحبهاً درجات في الدنيا ومراتب في الآخرة.

أما اليوم الذي سيذكره الناس للشهيد سامي فهو يوم عملية "عمانوئيل الثانية" التي نفّذها مع الشهيد عاصم عصيدة والتي أسفرت عن عشرات القتلى والجرحى في صفوف العدو.

وكانت جرأة سامي قد بلغت حد الاقتراب إلى داخل المستوطنة قبل التنفيذ ومراقبة التحركات والتحصينات والإجراءات المتبعة، وبعد أن تمّ التنفيذ وكانت المفاجأة بعدم تمكن العدو من القضاء على المجاهدَين اللذين نفذا الهجوم وعادا إلى قريتهما "تل" التي سارع الاحتلال إلى حصارها.

ومع ساعات الفجر الأولى حين كان الزهاد يسبحون ويستعدون للقاء اللّه في صلاة الفجر، كان سامي وعاصم يتعبّدون اللّه في مراغمة عدوهم وعدوه، وعلا صوت الرصاص في كل مكان، فاختار اللّه عاصم لجواره، بينما قاتل سامي بشراسة حتى فرغت ذخيرته واضطرّ للاختباء داخل أحد البراميل التي تستخدم لحماية أشجار الزيتون الصغيرة، وانتشر الجنود يبحثون عنه في كل مكان حتى مرّ بعضهم على بعد أمتار قليلة منه وهو يجلس بصمت وهدوء يقرأ القرآن، وبقي على حاله هذا عدة ساعات حتى يئس المحتلون وغادروا المنطقة وتمكّن هو من العودة إلى مكان آمن.

ولما علم باستشهاد رفيق دربه عاصم بكى حزناً عليه، ثم بكى على نفسه التي لم تنل الشهادة التي كانت تسعى إليها، وبعد هذه العملية البطولية صار سامي يعيش على الأرض وروحه متعلقةٌ بالسماء، وكأنّه يشتمّ رائحة الجنّة، وأصبحت نفسه تتوق للقاء أحبةٍ سبقوه.

وهنا أبدى استعداده لتنفيذ عمليةٍ جديدةٍ في ذات الموقع يكون فيها وحده، في واحدةٍ من أجمل صور الإصرار والتحدي والإقدام.

ولم تمض سوى شهور قليلة حتى خرج وحده يحمل عبوة كبيرة ويقطع الجبال باتّجاه الهدف المرسوم، وفي ساعات الليل التي اعتاد فيها هذا المجاهد على الصلاة بدأ يخطو ويتقدم حتى وصل بعض جبال قرية "عوريف" المجاورة، وهناك عاجلته طائرة للعدو وأطلقت عليه النار بكثافة مما أدى إلى استشهاده على الفور.

وبقيت جثته في الموقع عدة أيام لا يعلم أحد بها حتى يسّر اللّه أحد الرّعاة يرعى في المكان فرآه بصورة طيبة، تبدو عليه آثار الرضا والسكينة.

ثم وصل الخبر إلى أهله؛ فاصطحبوه لتحضنه الأرض التي طالما اعتنى بها حياً ودافع عنها مجاهداً، وضمته إلى صدرها كما تفعل الأم الحنون بطفلها.

☒ الشهيد المجاهد عثمان عبد القادر قطناني " أبو طلحة ":

إنّ للشهادة بركات وأنوار، كما أن للشهيد ميزات وخصائص، يرى العارفون بعضها في حياة الشهيد وكأنك ترى أن شخصاً ما يمتلك مؤهلات الشهادة ولم يبق له إلا قدر اللّه في اختياره وتحديد الوقت له ليلحق بركب السبّاقين.

شهيدنا عثمان من أولئك النفر الذين أعدّ اللّه لهم طريق الصعود والارتقاء منذ البداية، فقد عاش عثمان ونشأ في ظل عائلة ملتزمة بالدين، كل أفرادها على قلب واحد ومنهج واحد، الإسلام هو محور حياتهم الذي تدور حوله كل شؤونهم، فكان المسجد بالنسبة لعثمان بيته الثاني، وكان العمل الدعوي شغله الشاغل منذ كان صبياً يافعاً، لا يدع المجال لأي أمر أن يلهيه عن أداء الصلاة جماعة في المسجد.

كان بينه وبين صلاة الفجر صحبة وعشق، يحرص عليها في ليالي الشتاء الباردة والماطرة، كما يتسلل نحوها حين كان جنود الاحتلال ينتشرون في الطرقات دون أن يبالي.

ومع أول شبابه التزم بتجربة الإخوان، فكان لا يتخلف عن موعد حركي، ولا يتأخر عن لقاء تربوي، كنت ترى الحزن في عينيه إذا سمع بهموم المسلمين في أرجاء الأرض رغم صغر سنّه.

همّته عالية وولاؤه مطلق، يشارك في جميع النشاطات العامة التي تنظمّها حماس، من مسيراتٍ ومظاهراتٍ ومهرجاناتٍ ومعارض، وهو دوماً من أولئك الذين يحضرون باكراً يساعدون في العمل، وحينما اشتد عوده أصبح واحداً من المشرفين الأساسيين على عمل حماس في مخيم عسكر والمنطقة المجاورة، فراح يبدع ويبتكر ويبثّ الدعوة في كل مكان، وكان من أواخر أعماله معرض (فلسطين في الذاكرة)، الذي يحكي قصة شعب فلسطين، من المجازر والأسر وحتى نماذج البطولة والفداء، وكان المعرض ضخماً ومتنوعاً لم تشهد المنطقة له مثيلاً من قبل.

وعبثاً حاول الآخرون التقليد لمّا رأوا شدة إقبال الناس وإعجابهم، لكنهم ما عرفوا أنهم

يفتقدون أمثال عثمان في صفوفهم.

ولاحقاً التحق عثمان بجامعة النجاح، ليدرس الكمبيوتر في كلية المجتمع التابعة لها، ثم تسلّم قيادة الكتلة الإسلامية داخل الكلية مع بعض إخوانه، ومن يعرف جامعة النجاح جيداً يعلم أنّ هذه الكلية بالذات لم تكن الأغلبية فيها للكتلة الإسلامية طوال السنوات، بل إنها كانت معقلاً لغير الإسلاميين ترجح كفّتهم في الانتخابات الطلابية، لكنّ عثمان الذي آمن بدعوته وأعطاها كل ما يملك لا يستسلم لهذا الواقع؛ فبدأ العمل والتحرك مستعيناً بالله متسلحاً بحسن خلقه وطيب معشره، حتّى تمكّن من حسم الكلّية، فبدأ العمل الإسلامي في عملية تحول واختراق اعتبرت لا سابقة لها.

وفي هذه المرحلة أيضاً تولّى مع بعض إخوانه مسؤولية متابعة الحركة الطلابية الإسلامية في مدارس نابلس، فترك أثره على أجيال الحركة من الطلاب، فكان بعد ذلك منهم المبادرون والمجاهدون والإستشهاديون، وصاروا يرون فيه قدوةً ومثالاً يحتذى، فازداد حبّهم لدعوة الله، وصار الالتزام والعمل المتواصل والاستعداد للتضحية سمةً ملازمةً لمن عاش مع عثمان.

ونتيجة لهذا النشاط كله تعرّض عثمان للاعتقال لدى الاحتلال، ليضرب نموذجاً آخر في الثبات أمام المحتل، وفي جمال التعامل مع إخوانه، كذلك تعرض للاعتقال أكثر من مرة لدى أجهزة السلطة، وكان السبب في إحداها قيامه بالإشراف على معرض طلابي تضامنا مع الأسرى الفلسطينيين لدى الاحتلال!! وبعد أن تخرّج عثمان من الجامعة عمل في مجال الصحافة كمصور ومراسل ميداني، وعلى الرغم من الفترة القصيرة التي عمل فيها في هذا المجال إلا أنه كان صحفياً صاحب قضية، وبرز تميّزه في تغطية أحداث انتفاضة الأقصى، واهتمّ بحكايات الشهداء والأسرى على وجه الخصوص.

أما حكاية عثمان مع الشهادة فقد بدأت منذ مرحلة مبكرة، فقد كان يتمنّاها ويطلبها طوال الوقت، وكان يقلل من ثقل الحياة دائماً، ولم يكن أبداً من أهل الدنيا، المال والنساء وملذات الشباب لا تعني له شيئاً، تعلقه متواصل بالله وبالجنة، ولأجل ذلك سعى نحو العمل الجهادي وانضمّ إلى إحدى المجموعات العسكرية قبل الانتفاضة، دون أن يتمكن من الدخول في مرحلة التنفيذ لأسباب لا تخصّه.

ثم جاءت انتفاضة الأقصى، وكانت له علاقة مع بعض مطاردي القسام، يساعدهم ويقدّم لهم الخدمات المتنوعة، لكنّ شوقه كان أكبر من هذا، وبقي يلحّ على إخوانه حتى تم الاتفاق على أن يقوم عثمان ببذل روحه والقيام بعملية إستشهادية، محققاً بذلك الهدف الذي أحبّه دوماً – الموت في سبيل اللّه أسمى أمانينا- ، لكنّ الموعد لذلك لم يحدد في تلك المرحلة، ولأنّ سعيه كان صادقاً فقد عجّل اللّه له اللقاء قبل ذلك، واختاره إليه، حيث استُشهد في عملية اغتيال هزّت الدنيا، وشاء اللّه لعثمان أن ينال الشهادة في لحظة واحدة مع القائدين العظيمين جمال منصور وجمال سليم.

ومن لطائف القدر أنه قبل استشهاده بأيام فقط وفي تشييع الشهيد صلاح دروزة، اختار عثمان عبارة بنفسه كتبت على يافطة في الجنازة تقول: "يا رب خذ لدينك من أنفسنا حتى ترضى"، وكانت عبارة ملفتةً ومميزة، لكنّ قوّتها ازدادت حين استشهد عثمان بعد ذلك، ولمّا عرف الناس أنه هو من اختار هذه الكلمات المعبرة.

وفي مرحلة لاحقة قالت مخابرات العدو لبعض إخوانه أثناء التحقيق: إنّ عثمان لم يُقتل صدفةً في تلك الحادثة، بل إنه كان يستحق هذا الاغتيال من وجهة نظرهم.

كان الشهيد عثمان كثير القراءة والمطالعة، دائم الذكر مصاحباً للقرآن، يحب إخوانه ويشفق عليهم حين يرى شيئا من التقصير أو العجز من بعضهم، لم يقل عثمان لدعوته يوما لا، كان يجمع بين مفهوم الطاعة وحسن المبادرة، يحرص على إخوانه فيتصل بهم محذراً حين يرى – بحكم عمله – تحركاً مريباً لقوات الإحتلال، وهو رجل بلغ به الأمر أنّه كان يصرّ يومياً على فحص سيارة الأخ المسئول عنه، ويقوم بتشغيلها بنفسه حين يكون هذا المسئول بعيداً عن التعرّض للأذى- كان هذا في مرحلة الاغتيالات الكثيرة- ، وكان هذا المسئول بذاته قد تعرّض إلى محاولة اغتيال عنيفة بعد ذلك بعدة شهور، لكنّ عثمان كان على استعدادٍ للتضحية فداءً لأخيه المسلم المجاهد، والغريب أنّ عثمان وفي كل مرة كان يشغل فيها السيارة كان يبتسم وكأنه يتهيأ للقاء اللّه تعالى، وما زالت الكاميرا والكتاب ثم المسجد والمحراب في شوق إلى عثمان الذي غاب.

⊠ الشهيدان المجاهدان الشقيقان محمد وعاصم ريحان:

عائلة ريحان الصغيرة من قرية "تل"، لها حكايات في المقاومة وقصص البطولة والفداء تجعلها في الصفوف الأولى من عائلات فلسطين الأبية، وسيروي سيرتها الكبار للصغار، ويتغنّى بها عشّاق الحرية في كل مكان.

فالأسرة كلها ملتزمة بدينها، عميقة في حسّها الوطني، متجذّرة في أصالتها، عصامية ذاتية في معيشتها، سجن أبناؤها كلهم لدى الاحتلال أكثر من مرة ولعدة سنوات، فكانت الأم تتنقل بين سجون الظلمة المنتشرة في أرجاء الوطن المحتل لعلّها ترى أحبابها دقائق معدودة.

الشهيد محمد ريحان

بدأت العائلة عملها العسكري في سنوات عجاف، تلك التي سمّيت زوراً بمرحلة السلام!!، وكانت المقاومة حينها تمرّ بأصعب ظروفها، ويلاحقها البعيد والقريب، ويضيّق عليها العدوّ والصديق، ولا تكاد تجد لها ناصراً ومعيناً بعد اللّه إلا ما ندر.

في هذه الأجواء ترعرع محمد، الذي اعتاد زيارة المساجد منذ الصغر، يؤدّي الصلاة ويحضر دروس العلم، ساعده على نمو شخصيته وجوده في عائلة يشكّل الإسلام والدعوة عوداً رئيساً في تكوينها، ثم صقلته حماس وزرعت فيه روح العمل الجماعي وأوجدت لديه منطلقات المقاومة الجادة والهادئة.

في مدرسة القرية تعلّم وكبر، تميز بإخلاصه وحبه للناس وأمانته، فأحبّه الناس، ثم كان أن تزوّج من ابنة عمه ورزق بولد، لكن ذلك كله لم يحل بينه وبين الانضمام إلى إحدى مجموعات القسام التي اعتُقل أفرادها لاحقاً وصدر عليهم حكم بالسجن المؤبد.

وفي تلك الليلة التي تم فيها اقتحام القرية اعتُقل محمد أيضاً، وسيق إلى ساحة المدرسة، ووضع في سيارة جنود الاحتلال في انتظار استكمال الحملة، وبرزت جرأته وذكاؤه ورباطة جأشه حين تمكن من مباغتة الجنود، فاستغل لحظات انشغالهم، وقفز بعيداً عنهم وانطلق في شوارع القرية وسط دهشة آسريه وخيبتهم!.

وبعد نجاحه بالفرار التحق بمن تبقّى من المجموعة، والذين اعتقلوا بعدُ لدى السلطة ووضعوا في سجن الجنيد وبقوا فيه حتى خروجهم مع بقية إخوانهم إثر نشوء مرحلة جديدة بعد انطلاقة انتفاضة الأقصى.

وعاد محمد إلى هوايته التي أحبّ، وهو يعلم أن غدوة في سبيل اللّه أو روحة خير في الدنيا وما فيها، وواصل جهاده حتى جاء اليوم الموعود، حيث حاصرته قوات الاحتلال في منزله ذات يوم قبل أذان الفجر وطلبت منه تسليم نفسه، وقد علم هؤلاء أنهم قد أتوه بما يتمنى، وأن الشهادة التي يهدّدونه بها لهي الهدف الذي طالما كان يتوق إليه.

ودّع الشهيد أهله وحمل سلاحه وانطلق من الباب كالأسد يكبّر ويهلّل ويطلق النار في كل اتّجاه، حتى لقي اللّه برصاص أعداء اللّه، وكان لهذا الاشتباك دور في حماية بعض المجاهدين الذين كانوا في منطقة قريبة، ولأن محمد استعدّ للقاء ربه في صلاة الفجر، فإن اللّه عز وجل قد اختاره لجواره في مقعد صدق عند مليك مقتدر – بإذن اللّه تعالى.

وفي ذات اليوم حمل شقيقه عاصم الراية من بعده، فقد كان في المنزل عند حدوث المواجهة، وهكذا صار أحد المقاومين الذين تطاردهم سلطات الاحتلال.

وكان هذا الشاب الوسيم قد تلقّى تربيةً إخوانية متينة، وهو صاحب شخصية فاعلة متعددة فيها أوجه الإيجابية، شابٌ عابدٌ نشأ في طاعة اللّه، يتغنّى بالقرآن بصوته الجميل، جنديٌ مجهولٌ يعمل بهمة عالية ونشاط، ولكن بصمت، مطيعٌ لقادته، يحبّ إخوانه، يلتزم بالمواعيد ويقدر قيمة الوقت، رياضيٌّ يحمل الحزام الأسود في لعبة "الكاراتيه"، يعشق السلاح ويتوق لأعمال المقاومة منذ صغره، كان أحد طلاب كلّية الاقتصاد بجامعة النجاح، ومسئول الكتلة الإسلامية فيها.

الشهيد عاصم ريحان

تولّى عضوية اللجنة الدعوية في الجامعة، وهي إحدى أكثر اللجان نشاطاً، والتي يتركز عملها في نشر الوعي والفكر الإسلامي بين جموع الطلبة، يشترك في كافة المهرجانات والنشاطات التي تنظمها حماس في الجامعة وخارجها.

أما في ميدان المقاومة فقد سجّل اسمه بأحرف من نور تضيء الطريق للسالكين على ذات النهج، حيث نفّذ مع بعض إخوانه عدة عمليات إطلاق نار على الطرق الالتفافية التي أقامها المحتلون حول المدن الفلسطينية.

ولمّا رأت حماس أهمية الإعلام المقاوم وخططت لتصوير ما أمكن من العمليات الفدائية- كوسيلة لنشر المقاومة وترغيب الناس بها- تطوّع عاصم وقام بتصوير العملية التي نفّذها الشهيد جمال ناصر بسيارته مستهدفاً إحدى مركبات العدو، وهو أمر يحتاج إلى دقّة وشجاعة خاصة، كما أن المنفذ كان أحد زملائه في الجامعة.

أما الإبداع في مقاومته، والقمة في جهاده، والتميّز في بطولته؛ فقد تجلّى في تنفيذه عمليةً فدائيةً معروفة باسم عملية "عمانوئيل الأولى" و عمانوئيل هي إحدى المستوطنات القريبة من قريته، حيث اعتبرها الاحتلال من أخطر العمليات وأكثرها إظهاراً لضعفه، ورأى فيها شعبنا قدرة على تحقيق الإنجازات واختراق الأماكن المحصنة.

قام هذا المجاهد وحده بنصب كمين لحافلة لليهود، حيث فجّر ثلاث عبوات، ثم واصل إطلاق النار على كل دفعة إمدادات تأتي إلى المكان.

وبينما عاصم ثابت في مكانه لا يتزحزح ولا يتراجع، اتّصل به القائد نصر الدين وهو مسئول العملية عبر جهاز اتصال محاولاً إقناعه بالانسحاب، وأن لديه فرصة أخرى للعودة لاحقاً غير أنّه رفض، وكأنّه يرى الشهادة أمام عينيه، وكأن صورة أخيه محمد تدعوه للحاق به، ولم يكن بين استشهادهما سوى أربعين يوماً فقط.

ولو كان العدو يعلم أنه باغتياله لمحمد سيدفع هذا الثمن وبهذه السرعة لما تجرّأ على جرائمه المتكررة.

أسفرت المواجهة عن عشرة قتلى وآخرين جرحى من الصهاينة، قبل أن يتمكّنوا من إصابة عاصم، ثم أحجموا عن الاقتراب منه، فتقدموا بسيارة مصفّحة تصدمه أكثر من مرة، حتى تأكدوا من مقتله.

وارتقى الشهيد إلى عليين في العشر الأواخر من رمضان، ولقي اللّه صائماً مجاهداً صابراً محتسباً، ورغم ألم الفراق فإن مشاعر العزة والكرامة والإباء كانت تغمر العائلة وهي ترى ظلال قوله تعالى: "ويشف صدور قوم مؤمنين"، وصار كلما مرّ أحدٌ على بيت العائلة - الذي هدمه الاحتلال- تذكّر حماة الإسلام الأوائل، وردّد: (صبراً آل ريحان.. فإن موعدكم الجنة بإذن اللّه تعالى).

⊠ الشهيد المجاهد المجتهد عاصم عصيدة:

من قرية "تل" جاء الشهيد عاصم عصيدة، لتكون تجربته في المقاومة جامعة بين الإعجاب والأمل من جهتنا وبين الحيرة والعجز والفشل من جانب عدونا، فقد نشأ هذا الشاب في أحضان عائلته المعروفة بوطنيتها وبانتماء معظم أفرادها إلى اتّجاهات فكرية سياسية بعيدة كل البعد عن حماس، وكان عاصم قد أخذ مشاعره الوطنية الأولى من والده الذي عمل في التدريس سنوات طويلة، وبينما اكتفى الابن بإنهاء المرحلة الثانوية من دراسته، ثم توجّه إلى العمل في مجالات متعددة، منها تربية الأبقار وما يلحق بها من أعمال أهل الريف، و معلوم ما تتركه هذه الحياة في نفوس أصحابها من اعتمادٍ على النفس واعتياد على خشونة العيش وازدياد تعلقٍ بالأرض.

لم يدخل عاصم الجامعات، ولم يدمن على حضور المناقشات الفكرية، ولم يعتد الاستماع إلى حوارات المحللين السياسيين والخبراء المختصّين، ولم يتشبّث بالانتماءات الحزبية الضيّقة، رغم ذلك فقد تحققت فيه أصالة المعدن ونقاء الجوهر وبراءة الفطرة، وعلم أن المحتل لا يخرج إلا بالمقاومة، فكان من شأنه أن يستقبل دوريات الاحتلال بالحجارة حين تمر قرب بيته وهي تظن أنها محصّنة باتفاقيات أوسلو التي سمحت لها بالتحرك في أرجاء الوطن.

وكان هو في ذلك الوقت من الناشئة الصغار الذين ظنّ العدو أنه قد حال بينهم وبين تطلّعات شعبهم، وحسب أنه قد تمكن من إخراجهم بعيداً عن دائرة الصراع.

جاء عاصم ليوجّه للاحتلال صفعة قوية على غفلة، تربك حساباته وتؤكد على فشل مخططاته السابقة التي تهدف على إحباط الشعب، وليثبت للجميع أن العلاقة الوحيدة الدائمة بيننا وبين الاحتلال قائمة على التناقض والتنافر، فهذا الشاب لم يُعتقل سابقاً ولم يكن له انتماءٌ مسبق لحماس، وما كان له حضور مكثّف في الجلسات التربوية واللقاءات الحركية، لكنّها بركة الجهاد تختصر المسافات وتفي بالقدرات وترفع صاحبها درجات ودرجات.

وذات ليلة اقتحم الجنود القرية، وحاصروا مجموعةً من رجال القسام، واستشهد الأخ نائل رمضان، وتوفّر لدى المحتلين معلومات اضطرّ عاصم على أثرها إلى ترك بيته والانضمام إلى القائد نصر الدين في الجبال، وكانت تلك مفاجأة كبيرة للناس ولأهله الذين لم يكونوا على علم بنشاطه في المقاومة، إذ كانت السرّية طبيعته، والهدوء والصمت من سماته.

تأثّر أهله من هذه النقلة النوعية في حياة ابنهم، ومن عدم رؤيتهم له كل يوم بينهم، فقد كانت علاقته مميزة ومتينة مع العائلة، اعتاد أن يمازحهم، وتسرّ أمه وأخواته بصحبته، طيب النفس كثير الخدمة، قريبٌ إلى القلب، أحبّه الأصحاب والجيران.

وفي فترة المطاردة ازدادت ملامح شخصيته وضوحاً، وبرز التزامه الديني أكثر، و تحوّلت المقاومة والشهادة إلى هدف يسعى إليه ومحور تدور حوله كل تفاصيل حياه، عاش معظم هذه المرحلة في الجبال، فقد كانت بنيته صلبة ونفسيته تميل إلى الجدّية والرجولة، عنده صبر وتحمل جعله يجلس في بيت وحده أياماً طويلة دون أن يملّ أو يكلّ، ورغم تعلّقه بأهله لم يكن يقابلهم إلا قليلاً ولدقائق معدودة، يأتيهم على غفلة ثم يغادر.

ومن جميل أمره في فترة مراهقته تعلّقه بالأناشيد الوطنية وابتعاده عن الأغاني الهابطة وأشكال الخفة والميوعة والرعونة، وأبدى في أواخر حياته زهداً بالدنيا واستخفافاً بملذاتها، ولم يكن الزواج في مخططاته، وازداد تعلقاً بالآخرة وشوقاً للقاء ربه.

أما بطولته وجرأته فقد تجلت حين استعدّ لاقتحام إحدى المستوطنات، ثم تغيّرت الخطة لأسباب فنية وأمنية، وبعد فترة تم الاتفاق على تنفيذ عملية "عمانوئيل الثانية"، التي خطّط لها وقادها الشهيد نصر الدين واختير عاصم مع أخيه المجاهد سامي زيدان ليقوما بأداء المهمة، وهي مسألة تحتاج إلى الكثير من الاستعداد النفسي والتدريب، وإلى سرعة البديهة وحسن التصرف عند حدوث أي طارئ، خاصة أنّ العملية ستتم في نفس المكان وذات الأسلوب والطريقة التي تمت بها عملية

سابقة قبل فترة وجيزة، وما يبنى على ذلك من أخذ العدو للعبرة واتّخاذه إجراءات جديدة تحول دون تكرار ما حدث، لكنّ رعاية اللّه ثم الأخذ بالأسباب وقوة بأس المنفذين كانت عوامل أساسية كتبت للعمل النجاح، وجعلت الاحتلال يتخبط ويعجز عن الردّ، حيث تمّت العملية باستخدام العبوات وإطلاق نار، وأسفرت عن قتل أحد عشر وإصابة ما يزيد عن العشرين من المغتصبين المحتلين.

وكانت المفاجأة الكبرى أن تمكّن المجاهدان من العودة سالمين رغم أن استشهادهما كان أمراً غالب الحدوث حسب الخطة، وكان من روعة القائد نصر الدين أنه أخذ يوزّع الطعام والماء على المواقع في الجبال المجاورة لنجدة إخوانه، لكنّ الاحتلال تحرّك بطائراته وقواته وأخذ يبحث في كل منطقة، وبينما كان المجاهدين في الطريق إلى تل حدث الاشتباك معهم، وقتل ضابط العدو، وكتب اللّه لسامي حينها النجاة ولقي عاصم ربه مقبلاً غير مدبر، وكان من شدة حقد الاحتلال عليه أنه احتفظ بجثمانه ثم اعتقل والده وشقيقه، ولم يتأكد خبر استشهاده إلا بعد عدة أيام.

تقبل أهله الخبر بالرضا والقبول، وكان ذلك اليوم نقطة تحوّل في العائلة كلها، إذ سارت على نهجه وتعلقت بفكره، فكان جهاده عطاء وخيراً، وكان استشهاده نصراً ودعوة، ولعلّ آخرته تكون نعيماً وشفاعة.

☒ الشهيد المجاهد مؤيد صلاح الدين:

شهيدنا هذا من الناس الذين لهم من اسمهم نصيب، وكأن اللّه أيّده بصلاح دينه فكان من السبّاقين في شتّى مناحي حياته، في العبادة والدراسة والعطاء، عرف مؤيّد بنشاطه الدءوب في كل ميدان تواجد فيه، ففي مسجده كان هو المحرك الرئيسي لشباب الدعوة، هوايته جلب مزيد من الناس إلى صفوف الحركة، يتحيّن الفرص ويبتكر الوسائل؛ نجح في المرحلة الأساسية في جلب عشرات من أقرانه الطلبة للدعوة، رغم صغر سنّه، ليكون لمعظم هؤلاء دورٌ مميزٌ في العمل لاحقاً، ولا ترى واحداً منهم إلا ولمؤيد أثر إيجابي عليه.

له تصميم كبير على ممارسة الدعوة الفردية، يختار شخصاً ما، يركّز جهوده عليه، حتى يجلبه إلى حلقات العلم في صفوف الدعوة، يتمثل في ذلك حديث النبي عليه الصلاة والسلام "لئن يهدي اللّه بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم".

كان مؤيد رفيق المسجد والمحراب، يطيل المكث فيه تبعداً وتعلماً، هو من أهل صلاة الفجر لا تكاد تفوته جماعة، بل إنه عادةً ما يتنقل على بيوت إخوانه يوقظهم ويسير معهم إلى الصلاة، ومن عادته أن يعاهد أخاً له على عبادة ما، ثم يعاهد آخر على حفظ كتاب اللّه، ويعاهد ثالثاً على تحصيلٍ علميٍّ محدّد يتم الاتفاق عليه، روحه لا تعرف الخواء، شديد الالتزام بدينه، دائم الدعوة إليه، حتى صار إخوانه يدعونه بـ "الشيخ".

كان مؤيد أمير الحركة الطلابية الإسلامية في المدرسة الفاضلية في طولكرم، وهي إحدى أكثر المدارس تميزاً في الوطن، وكان شهيدنا أحد هؤلاء الطلبة المتفوّقين المشهود لهم، كان لديه حرص على التعليم، يرى في ذلك إحدى جوانب الالتزام في شخصيته الدعوية، حتى أنه تعرض لإصابة في شجار دفاعاً عن التعليم حين حاول بعض الطلبة تعطيل الدراسة عبثاً.

وهو في هذا المجال يثبت أن التحرك في مجال الدعوة والحركة لا يقف حائلاً دون التفوّق العلمي كما يتذرع البعض أحياناً.

وفي أثناء الانتفاضة الفلسطينية الأولى وجد الشاب مؤيد ضالته في بحثه عن طريقة لمقاومة المحتل فكانت مشاركته يومية في كل نشاطات حماس، وكان سبّاقاً في هذا الميدان ليؤكد أن تفوّق الشباب علمياً لا يتعارض مع مشاركتهم في المقاومة كما يظن البعض أيضاً.

ولمّا كان مسجده بؤرة نشاط لفعاليات الانتفاضة؛ عمد المحتل إلى إغلاق هذا المسجد ومنع المصلين من دخوله لفترة محددة، ثم كان اعتقال الشهيد مؤيد على يد قوات الاحتلال ليدخل تجربة التحقيق القاسية، لكن لسانه الذي اعتادَ على ذكر اللّه رفض أن يتحرك ليعترف على نفسه أو على أحدٍ من إخوانه، ليخرج مؤيد أشدّ إصراراً على مواصلة الطريق حتى نهايتها.

لقد عاش مؤيد في المدرسة الإخوانية وتلقى تربية آتت أكلها، فكان أن حفظ القرآن الكريم، ورِعٌ شديد الحياء، دقيق الالتزام بالمواعيد، كتوم كثير الصمت، مبادرٌ.. فحين افتُتح مسجدٌ جديدٌ في منطقة سكنية حديثة تبعد عدة كيلومترات عن بيته، صار يتردّد عليه باستمرار حى أسّس فيه نواةً للدّعوة وسلّمها لإخوانه حين توافدوا عليه.

وكان لحكمته وذكائه أثرٌ في حسن تعامله مع الآخرين، ففي محاضرة دراسية في جامعة النجاح راح أحد المدرّسين يتهجم علانية على ظاهرة الإستشهاديين في أوج انتفاضة الأقصى، فأثار حفيظة بعض زملائه الذين أرادوا التعدي مباشرة على المحاضر، لكن مؤيّد أشار إليهم بالتزام الصمت، وذهب بعد المحاضرة يناقش المدرس بأدب وفطنة أدت إلى تراجع المدرس عن كلامه وراح يعتذر بأنه لا يقصد ما فهمه الطلاب منه.

ومن خلال عضوية شهيدنا مؤيد في الكتلة الإسلامية بجامعة النجاح تولّى-وهو الطالب في كلية الهندسة- مسؤولية اللجنة الدعوية، وهي لجنة حار المسئولون في سبل تنشيطها وتفعيلها، لكن مؤيد بدأ يبتكر ويبدع وينوّع في نشاطات اللّجنة، يُبرز قدرة إدارية مميزة ومبنية على الدقّة والانتباه والمتابعة، أعاد مؤيد إلى الأذهان أسلوب الدعوة الفردية في جلب العناصر، فليس غريباً إحياء الأسر التربوية والمجموعات الثقافية، وامتلأت الجامعة بالملصقات واللافتات التي تحوي نصوصاً شرعية ونصائح إسلامية عامة، حتى صار ذلك ظاهرة في الجامعة.

وأقامت اللّجنة الدعوية معارض الحجاب الإسلامي، وتفاعلت الطالبات مع النشاطات المتنوعة، ومن الطرائف أنّ مؤيد الوسيم المنظر- وقد كان رجل نصيحة مؤدب - توجّه برفقة أخ له ليعطي حجاباً كهدية لفتاة غير محجبة، سرعان ما تحجبت حين سمعت بخبر استشهاده بعد عدة أيام فقط.

وامتدّ نشاط اللجنة الدعوية إلى مساكن الطلاب، فصارت تقام فيها أيام الصيام تطوعاً، والإعتكافات في مساجد المدينة، في تفعيلٍ لدور الطلبة في البيئة المجاورة.

وهكذا تحوّلت اللجنة الدعوية إلى أكثر اللّجان نشاطاً وحيوية، يقودها مؤيّد الذي يحبّ العمل بعيداً عن الأضواء، ولعلّ بعض أسرار نجاح هذه اللجنة أنه كان ضمن عناصرها عاصم ريحان وهاشم النجار وجمال ناصر وحامد أبو حجلة وهمام عبد الحق، وكلّهم قضوا شهداء في سبيل اللّه وانضمّوا إلى ركب السبّاقين إلى الجنة.

وفي آخر اجتماع عقده مؤيد للّجنة، حذّر إخوانه بأن الذي لن يحضر الاجتماع سيخسر، ولعلّه قصد سيخسر وداعه، ثم أخبرهم بأنه عائد إلى طولكرم لإنجاز مشروع تخرجه للشهادة، وكان في نفسه يقصد الشهادة الكبرى، حيث أخذ مؤيد حزامه الناسف وفي مكان يقع على الحدود- حدود الوطن مع الوطن - بين الأرض التي احتُلت سابقاً وتلك التي احتُلّت لاحقاً، ارتقى مؤيّد إلى ربه بعد أن أوقع إصابات عديدة بين جنود الاحتلال، فحزن إخوانه عليه، ولعلّ البعض كان معاتباً؛ إذ كانوا يرون فيه قائداً مميزاً تحتاج إليه منطقته مستقبلاً، لكن نداءَ الجنة أقوى ونفس مؤيّد اشتاقت إلى الأحبة الذين سبقوا، فكان له ما أراد، ثم ما لبث أن تبعه في ذات الدرب شقيقه الأصغر ثابت، ليجتمع الشمل هناك عند اللّه تعالى.

☒ الشهيد المجاهد محمد هزاع الغول:

يختلف الناس في سعيهم نحو الشهادة في سبيل اللّه، بعضهم يرى فيها واحدة من أمنياته في الحياة وآخرون ينتظرون أن تأتيهم دون بذل جهد أو عناء، وفئة ثالثة تبحث عن الشهادة وتلاحقها في كل حين، وكان هذا الشهيد ينتمي إلى الصنف الأخير.

فقد أحب الشهادة وعمل من أجلها واستعدّ لها وجعلها أسمى الأماني وأولى الأولويات، حياته كانت في مخيم الفارعة الذي يقع بين نابلس وجنين، وهناك يمكن للمرء أن يرى في وجوه المسنّين تفاصيل المأساة التي صنعها المحتلون عبر الأجيال، وفي عيون الأطفال آمال العودة والتحرير.

نشأ محمد في طاعة اللّه، قلبه معلّق بالمساجد، وما لبث أن التحق بجامعة النجاح، ودخل كلية الشريعة بدافع الحب والرغبة، إذ أنه كان قد حصل على معدل مرتفع في الثانوية العامة يؤهله لدخول كليات أخرى، وحافظ على تفوّقه وواصل دراسته حتى أنهى شهادة الماجستير، وقد تميّز بذكائه وقوة ذاكرته وحسن خلقه وشدّة اهتمامه بتخصّصه، وهذه خصائص وسمات كان يمكن أن تؤهّله للوصول إلى مكانة اجتماعية وثقافية ودعوية عالية مع مرور السنين، ورغم أنه أعطى دراسته الجهد والوقت اللازم لها، إلا أن ذلك لم يكن على حساب نشاطه في الحركة الإسلامية، فقد كان أميراً للكتلة الإسلامية في كلية الشريعة، وهو الذي يدير جميع النشاطات الطلابية فيها، كما أنه انتخب رئيسا

للنادي الأكاديمي التابع لها، وكان عضواً في اللجنة الدعوية في الجامعة، وهي إحدى أهم اللجان التي تعمل على نشر الفكر الإسلامي وبث روح الالتزام بين جموع الطلبة.

وعلم محمد أن السّائر في هذه الطريق يحتاج إلى زاد روحي وفكري، فاعتنى بنفسه ثقافةً ومطالعةً، ولازم القرآن الكريم حتى أتمّ حفظه. ولكنّه كان يتطلّع إلى شيءٍ آخر ملك عليه نفسه وكيانه، وزادته انتفاضة الأقصى تمسكاً به وحرصا عليه. وهو أن يلقى اللّه شهيداً لمّا تعلمه من علو هذه المرتبة عند اللّه تعالى.

ولعل ما رآه من إجرام المحتل وقهره دفعه نحو هذا التطلع أكثر، إذ ما كان لرجل حر أن يقف على قارعة الحياة وهو يرى الدماء تسيل والبيوت تهدم، وما كان لمن يسمع بكاء الثكالى وصرخات اليتامى أن ينام هانئاً ملء جفنيه.

وهنا اجتمعت كل الدوافع العقائدية والعقلية والعاطفية لدى هذا الشاب. فأوجدت عنده تصميماً وإصراراً على تقديم روحه فداءً لما يؤمن به.

وكان من أوائل من تطوّعوا لتنفيذ عملية إستشهادية، وتمكّن بعد البحث من الوصول إلى بعض قادة المقاومة رغم ترتيب الأمر، لكنه فوجئ بخبر تأجيل التنفيذ، فحزن لذلك وتكرّر الأمر معه خمس مرات يفصل بينها عدة شهور، بينما استعداده لا يتغيّر وهمّته لا تفتر، ونفسه لا تتردّد أبداً.

وظلّ محمد ينتظر، حتّى رأى في منامه صديقه الإستشهادي حامد أبو حجلة وهو يرفع الآذان، ويدعوه للحضور إليه. فهدأت نفسه واطمأن قلبه وعرف أن الموعد قد حان. وكان هذا في فترة صعبة تلقّت فيه المقاومة ضربة قوية بعد قيام الاحتلال باجتياح كامل مدن الضفة لأول مرة منذ اتفاقية أوسلو الهزيلة والتي لا تتضمن أية ضمانات لحماية الشعب الفلسطيني.

وفي هذه المرحلة استُشهد وأصيب المئات. وهدمت بيوت وأسواق، وترك المحتل خلفه دماراً كبيراً كان يفتخر به قادته وسياسيوه. وكان الموعد أسابيع قليلة بعد هذا الاجتياح ولما يشفى جرح الشعب الفلسطيني بعد. فتوجّه هذا الشاب بالدعاء إلى ربه بأن يعينه على قتل أكبر عدد من المحتلين.

ثم رأى في منامه أنّه يقتل تسعة عشر منهم، وقد كان. حيث انطلق لعمليته التي نفذها وهو صائم وكان المكان في قلب القدس. ونزلت هذه العملية كالصاعقة على رؤوس المحتلين، ما اضطرّ زعيمهم شارون إلى معاينة مكان التنفيذ بنفسه وراح يتفقد القتلى وعلى وجهه علامات الاكتئاب والشعور بالعجز. حتى رصدت عدسات الكاميرا الدموع في عينيه لأول مرة. وهكذا التحق محمد بمن أحبّ بعد طول انتظار، ليدخل في إطار قول اللّه تعالى: "من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا".

ولمّا جاء الأمر كما أراده بتفاصيله، صار من قال فيهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: "صدق اللّه فصدقه".

☒ الشهيد المجاهد ضياء الطويل:

غريبة هي الأسماء أحياناً، لأن بعضها يلائم صاحبه بقدر من اللّه، وهذا المجاهد دلالة على هذه الحالة؛ فقد كانت حياته ودراسته وأخلاقه ثم موته ضياءً في ضياءً.

ولد في مدينة البيرة، فطبع هذا الأمر ملامح شخصيته وسماتها الأساسية، وكان التواضع الدعوي الحركي لم يمنع تفوقه الدراسي في المرحلة الثانوية، ثم دخوله كلية الهندسة بجامعة بير زيت، والتي أحبّها تيمّناً بالشهيد يحيى عياش الذي كان أحد طلبتها.

كما أنّ نبوغه العلمي لم يحل بينه وبين السعي إلى الجهاد والشهادة كما يحلو لبعض الشباب بأن يفعل، وأثناء دراسته في الجامعة كان أحد نشطاء الكتلة الإسلامية المعروفين، لا يترك عملاً إسلامياً إلا وله فيه نصيب، حفظ كتاب اللّه تعالى، واعتاد على تلاوته بصوته الجميل المميّز.

وقد عرفه طلبة الجامعة كلهم وهو يرفع أذان الظهر وسط الساحات، فيلتفت الجميع إليه يخشعون لجمال صوته وعذوبته.

ولما قام شارون بتدنيس المسجد الأقصى، استنفر الناس وعلى رأسهم طلبة الجامعات، وكان ضياء يحمل مكبّراً للصوت في يده و يدعو طلاب الجامعة إلى التظاهر والاحتجاج والتوجه إلى الحواجز العسكرية لمقارعة جنود الاحتلال.

وكان ضياء في الصفوف الأولى دائماً، يضرب العدوّ بحجارة فلسطين المباركة، ومع كل يوم كان يرى من حوله الشهداء يتساقطون ويرى صور الضحايا من الأطفال والنساء يزداد حقده على المحتل، ويستصغر المشاركة في المظاهرات والمسيرات فحسب، وراح يبحث عن شيء أكبر وأشد أثراً، وكم كانت رغبته شديدة في أن يفجر جسده بين المحتلين.

ولما علم بعض العاملين في المقاومة بأمره، توجّهوا إليه وعرضوا عليه القيام بتنفيذ عملية إستشهادية وأعطوه مهلة معقولة للتفكير والرد، لكنّه عاجلهم بالموافقة والاستعداد فوراً، فلقد كانت تلك أمنيته التي أرادها.

وحكاية ضياء مع التضحية والاستشهاد هي واحدة من الأدلة الناصعة التي تكذّب إدّعاءات

المرجفين والمشكّكين في دوافع الفدائيين، وتدحض أفكار الجاهلين الذين يروّجون أن المقاومة تختار الأشخاص المحبطين اليائسين لتنفيذ عملياتها!، إذ إن هذا المجاهد كان يعيش حياة طبيعية لا شائبة فيها، بل إنه مكث ما يقارب الشهرين وهو ينتظر موعد التنفيذ، ومع ذلك لم يلاحظ أحد أي تغيير في حياته اليومية، حتى إنه توجّه لدفع قسط الجامعة للفصل الدراسي الجديد قبل أيام من موعد العملية، ولما رآه الشخص الذي جنّده للمقاومة، فسأله عن ذلك مستغرباً، فجاء ردّ الفدائي الواثق المطمئن كما تعلّم من رسول الله عليه الصلاة والسلام: "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً".

وأشدّ حالات حزنه خلال مرحلة الانتظار كانت عندما أخبره إخوانه عن تأجيل الموعد لأسباب أمنية، حيث كان فكره وتطلعاته متعلقة بالله تعالى، وشوقه إلى الرسول الكريم يزداد يوما بعد يوم.

ولمّا حان اللّقاء صلى ضياء في المسجد القريب إماماً في الناس يتلو عليهم بصوته وقلبه: "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون"، ثمّ توجّه إلى مدينة نابلس حيث تجهّز للأمر ليعود بعد ذلك باتجاه القدس وهو يخشى من أمر واحد فقط، وهو أن يتم ضبطه أثناء سفره فيفشل في مهمته، وسار في طريقه بعد أن ودّع أهله بطريقته، حتّى وصل إلى هدفه، وتحوّل جسده إلى عذاب على المحتلين، فأوقع بينهم إصابات عديدة، وذهب ضياءُ إلى ربّه راضياً مرضياً "صدق الله فصدقه".

الفصل السادس

شهداء الله يعرفهم

شهداء اللّه يعرفهم

بعد فتح نهاوند جاء مبعوث الجيش إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه فسأله عمن قتل من المسلمين، فقال: فلان وفلان وفلان لأعيان من الناس وأشرافهم وآخرون ممن لا يعرفهم أمير المؤمنين، فجعل يبكي ويقول: وما ضرّهم أن لا يعرفهم أمير المؤمنين، لكنّ اللّه يعرفهم وقد أكرمهم بالشهادة وما يصنعون بمعرفة عمر.

" كتيبة الشمال" كان منها أعداد كبيرة من الشهداء، ذكرنا بعضهم ولم نذكر أغلبهم، وليس ذلك استخفافاً أو انتقاصاً من حقّهم، أو تقليلاً من قدرهم أو تصغيراً من عظمتهم، وإنّني وإن كنت أعرف معظم أسماء الذين عملوا في هذه الكتيبة، غير أني لم أتشرف بمعرفة عدد منهم بشكل شخصي، ولم يتيسّر لي أن ألتقي في سجني بمن يعرفهم عن قرب، ولا أملك وسائل سهلة للتواصل لاستكمال المعلومات، مما ألزمني أن أكتب عن بعض النماذج فقط.

إنّ هذه الكتابة وأضعافها لا يمكن أن تعطي لشهيدٍ حقّه مهما توفّر لديّ من معلومات عنه، وبالتالي فإن كتابتي عمن لا أعرف ستكون ضعيفة مبتورة، لذا فضلت أن أتجنّب الدخول في هذا الخطأ بحق الشهداء.

إن الشهادة هي الطريق الأقصر والأكرم لوصول المرء إلى المكانة والرفعة والسمو، وإن الشهيد ينال تلك المنزلة العالية في الدنيا والآخرة، وإن دماءه التي تسيل فوق هذه الأرض هي التي ترسم معالم المرحلة وتهيؤ للمستقبل، وإن جرحه النازف هو خير وسيلة لالتئام جروح الأمة.

وكل شهيد هو عنصر إحياء للأمة وعامل دفع للقضية، وهو خطوة نحو تحرير جزء من طليعة الشعب، ولبنة في جدار الصمود في وجه المحتل، سواء كان هذا الشهيد كبيراً أم صغيراً، رجلاً أو امرأة، قائداً مرموقاً أو عنصراً مغموراً، عالماً أو متعلماً.

وما يضرّ الشهيد عرفه الناس أم أنكروه، أكرموه أم تجاهلوه، حفظوا فضله أم ضيّعوه، كتبوا عنه أم أهملوه، تذكّره الناس أم نسوه!!.

حسب الشهداء أنّ اللّه الذي أكرمهم بالشهادة يعرف أسماءهم وأنسابهم، وما ضرهم أن يغفل عنهم الغافلون، وماذا يفعلون بذكر الذاكرين، وما يصنعون بمعرفة الكتّاب والشعراء والمؤلفين.

❖ الأسرى إخوان الشهداء:

لما كان الشهداء رواد المقاومة، كان الأسرى هم أهل المراغمة، وبينما أمن الشهيد من الفتنة، وجد الأسير نفسه أمامها فترة من الزمن، وللأسرى فضل على المقاومة، ولهم حقّ على حماس، فهم الذين يدفعون أعمارهم وزهرة شبابهم خلف القضبان دون تراجع أو تخاذل، ماضون على الدرب أمناء على النهج.

"وكتيبة الشمال" التي نتحدث عنها تضمّ أعداداً كبيرة من الأسرى، ممن حكم الاحتلال عليهم سنوات طويلة وصلت إلى حد الأرقام الفلكية، وحقّ هؤلاء الأسرى محفوظ ومكانتهم معلومة وفضلهم لا ينكر وخيرهم ثابت وأسرهم بيّن واضح، وأعمالهم مشهودة وأسماؤهم معروفة وصبرهم آية، وثباتهم علامة، فعلهم مبارك وإصرارهم كرامة، جهادهم متواصل وصمتهم فعّال، غيابهم له أثر الحضور رغم عيشهم بما يشبه القبور، ولكنّهم في منزلة بين المنزلتين.

ولهذا فإنّ عدم ذكرهم في هذا الكتاب ليس انتقاصاً من حقّهم ولا تجاهلاً لفضلهم؛ بل إنهم يستحقون كتابة خاصة وإيضاًحاً لأوضاعهم وتفصيلاً لصبرهم واحتمالهم، وهم مع كل رمشة عين مأجورون من الله تعالى، وحسبي هنا أن أذكّر بأن على الأمة واجباً تجاه أسراها، وحقّ على حماس أن ترعى شؤونهم وتوفر احتياجاتهم، وتنشر أخبارهم، وتخلفهم في أهلهم خيراً، وترعاهم اقتصادياً، وتتواصل معهم اجتماعيا، وتجعل قضيتهم على سلّم أولوياتها وفي مقدمة اهتماماتها، وأن تذكرهم الحركة في كل اجتماع جماهيري أو مؤتمر سياسي أو تحرك دبلوماسي.

وهذه خطوات متكاملة مترابطة على طريق الواجب الأكبر والأعظم المتمثل في إعادتهم إلى أهلهم وديارهم آمنين مطمئنين بعزة وكرامة.

واجب الأسرى الاحتساب والصبر، وواجب الحركة والشعب تخليصهم من الأسر، ليحرص كل على تأدية واجبه على أكمل وجه.

الخاتمة

يعاني الإسلاميون عموماً - وحماس جزء منهم- من تقصيرٍ كبيرٍ في تدوين تاريخهم وتسجيل أعمالهم ونقل تجاربهم وتقييم بعض المراحل الهامة في مسيرتهم، رغم أنّ السلف الصالح في هذه الأمة حرص على حفظ عطاء الأجيال بتسجيله في الكتب، فقد كان الصحابة يعلّمون أبنائهم مغازي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كما يعلمونهم السورة من القران، ثم تطوّع العلماء والمؤرخون بعد ذلك لهذه المهمة، فكانت أمهات الكتب في التاريخ وتراجم الرجال، وكلّ جيلٍ يضيف إلى ما سبق، حتى تراكمت كمّية وافرة تعين الأجيال القادمة على فهم واقع المسلمين وإدراك تجاربهم، إذ إن اللّه طبع النفوس على وعي الوقائع العملية والتأثر بها أكثر من النصوص النظرية.

والإسلاميون عادة لا يكتبون إمّا لكثرة انشغالهم في الأمور العملية، أو تحسباً لعقبات أمنية، أو زهداً في الأمر خشية تسلل رياءٍ أو عجبٍ إلى النفوس.

ولمّا كانت الحركة الإسلامية ذات فاعلية كبيرة في بلدانها - بل إن حماس على وجه الخصوص صارت هي المحرك الرئيسي الذي يؤثر في المنطقة- ولمّا لم يجتهد هؤلاء في كتابة تجاربهم بأقلامهم، فقد تركوا غيرهم يفعل ذلك، فكتب الكثيرون عن حماس ما بين منصف و ظالم ومحب ومبغض، منهم الموضوعي المحايد وأكثرهم المتربّص المعاند، حتى تنبّه بعض أبناء الحركة وكتّابها؛ فتداركوا النقص فاندفعوا بأقلامهم يدافعون وينفضون الغبار عن وقائع وتضحيات قامت بها حماس وغفل عنها الناس، ولو قام غيرنا بعشر معشارها لملأ الدنيا صراخاً وتهويلاً.

وقد كان هذا جهداً مباركاً مشكوراً، غير أنه ما زال ينقصنا نوع آخر من الكتابة يتصدر له من كان له دور في صنع الأحداث فعرف التفاصيل والأبعاد والمعوقات فيؤكد على الإيجابيات ولا يحرجه ولا يضرّه التطرق إلى بعض السلبيات وأوجه النقص بصورة إيجابية بنّاءة، ولعلّ هذه الكتابة تشكل مساهمة في هذا الجهد، عسى أن يتحرك صاحب كل تجربة فيمسك بقلمه ويدلي بدلوه أو يحدّث صاحب قلم مؤثر فيشتركان في الأجر، ووجب على من امتلك مثل هذا العلم أن يتكلم، وله أن يختار من العناوين والموضوعات ما يتناسب مع ظروفه، وربما يلحق آخر فيجمع ذلك كله ويرتب حروفه وينسّق كلماته ويقدمه للأجيال في أجمل حلة وأبهى بيان، حتى يعلم الناس أنّ حماس تاج في جبين الأمة وأنّ كتائب القسام الياقوتة البرّاقة في هذا التاج، وهذا جهدي أحتسب به وجه اللّه تعالى، فما كان فيه من توفيق فمن اللّه تعالى، وما كان من تقصير فمن نفسي وهذه طبيعة البشر.

...::: وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين :::...

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٢
مقدمة الناشر	٣
تقديم بقلم الأستاذ خالد مشعل	٤
مقدمة المؤلف	٧
عقبات	٨
اعتذار	٨
جهادنا فخار... ومقاومتنا انتصار	٨
الفصل الأول: (بداية العمل. النار تحت الرماد)	١١
انتفاضة أم مسرحية	١٣
العمل الجماهيري في انتفاضة الأقصى	١٥
واقع العمل العسكري للحركة في ظل السلطة الفلسطينية حتى عام ٢٠٠٠	١٦
قرار استئناف العمل	١٨
من يرفع اللواء للمعركة	١٩
تفرس في الوجوه	١٩
الفصل الثاني (الهيكل التنظيمي... صولات في الميدان)	٢٢
حضن دافئ ومظلة تقي المصارع	٢٣
المظلة السياسية	٢٤
ألوان الطيف	٢٤
تنظيم متعدد الأشكال	٢٥
أمن الاتصال	٢٨
الاتصال مع الخارج	٢٩
استخدام الهاتف والفاكس	٣٠
الإنترنت والبريد الإلكتروني	٣١
استقبال مبعوثين من الخارج	٣٣
الاتصال الداخلي مع القادة في الميدان	٣٣
الألقاب الحركية وكيفية التعامل معها	٣٥
الدرهم المقاتل	٣٦
المطاردون طليعة الأحرار	٣٧

الاختفاء المكشوف	٤٠
نقل المطارد إلى منطقة أخرى	٤٠
تغيير معالم الشخصية	٤٠
تزوير الوثائق	٤١
آليات التجنيد	٤١
الأرشيف خطأ قاتل	٤٦
مشاركة المرأة في المقاومة... بين النظرة الشرعية والسياسة الحركية	٤٧
أفكار رائدة ولكن	٤٩
ملاجئ محصّنة	٤٩
توفير السلاح بكميات مناسبة	٥٠
خبير تمويه	٥١
صواريخ القسام	٥٢
مجموعات المرابطين	٥٢
التنسيق مع الفصائل الأخرى	٥٣
إعلام المقاومة	٥٤
المقاومة المبصرة	٥٨
رؤية العدو لكتيبة الشمال	٦٠
الفصل الثالث (قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار)	٦٣
العمليات الإستشهادية	٦٤
أسلوب السيارات الملغومة	٦٥
الكمائن الاستشهادية	٦٥
إطلاق النار والعبوات الجانبية	٦٦
اقتحام المستوطنات الصهيونية	٦٧
الاغتيالات وتتابع الشهداء	٦٩
السيارات المفخخة	٧١
القصف بالصواريخ	٧٤
الحصار والهجوم	٧٧
حالات اغتيال في المناطق المفتوحة	٨٢
القنص عن بعد	٨٣
ملاحظات حول الاغتيالات	٨٥
خير فات... وأمل آت	٨٦

الفصل الرابع (مراجعات)	٨٨
الانتفاضة كانت خطوة صائبة	٨٩
الانتفاضة بين الموقفين الشعبي والرسمي	٩٠
العمليات الاستشهادية	٩٠
تركيز المقاومة في الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧م	٩٢
أهمية اختيار الأهداف	٩٢
مبدأ الردع وليس الثأر	٩٣
تضامن الأمة محدود نسبياً	٩٣
خطابنا الإعلامي والحرب النفسية	٩٤
الحرب الاقتصادية	٩٥
مسائل تخص حماس	٩٦
الفصل الخامس (السبّاقون إلى الجنة)	٩٧
الشهداء رواد الجهاد والفداء	٩٨
واجبنا نحو الشهداء	٩٩
شيخ الشهداء الإمام أحمد ياسين	٩٩
المجاهد الشهيد الشيخ القائد جمال منصور - أبو بكر	١٠٣
المجاهد الشهيد الشيخ القائد يوسف السركجي	١٠٦
المجاهد الشهيد صلاح الدين دروزة "أبو النور"	١١٠
المجاهد الشهيد الشيخ جمال سليم " أبو مجاهد"	١١٣
المجاهد الشهيد محمود أبو هنود	١١٦
المجاهد الشهيد إبراهيم بني عودة	١١٩
المجاهد الشهيد مهند الطاهر	١٢٢
المجاهد الشهيد أيمن حلاوة	١٢٤
المجاهد الشهيد نسيم أبو الروس	١٢٥
المجاهد الشهيد نصر جرار "أبو صهيب"	١٢٧
المجاهد الشهيد نصر الدين عصيدة	١٢٩
المجاهد الشهيد طاهر جرارعة	١٣٢
المجاهدان الشهيدان الشقيقان عامر وعلي الحضيري	١٣٤
المجاهد الشهيد محمد الحنبلي	١٣٧
المجاهد الشهيد حامد عمر الصدر	١٣٩
المجاهد الشهيد أمين فاضل	١٤٢

المجاهد الشهيد نشأت جبارة	١٤٤
المجاهد الشهيد خميس أبو سالم	١٤٦
المجاهد الشهيد سامي زيدان	١٤٨
المجاهد الشهيد عثمان عبد القادر قطناني "أبو طلحة"	١٥٠
المجاهدان الشهيدان الشقيقان ريحان	١٥٣
المجاهد الشهيد المجتهد عاصم عصيدة	١٥٥
المجاهد الشهيد مؤيد صلاح الدين	١٥٧
المجاهد الشهيد محمد هزاع الغول	١٥٩
المجاهد الشهيد ضياء الطويل	١٦١
الفصل السادس (شهداء اللهّ يعرفهم)	١٦٣
شهداء اللهّ يعرفهم	١٦٤
الأسرى إخوان الشهداء	١٦٥
الخاتمة	١٦٦
الفهرس	١٦٧

تم بحمد الله تعالى،،،